

إمرأة تختصر النساء

مدخل لشرح خطبتي السيدة زينب عليها السلام في الكوفة وفي الشام

نجدي الركابي التغلبي

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب:.....إمراة تختصر النساء
المؤلف:.....نجدي الركابي التغلبي
الطبعة:.....الأولى ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م
عدد النسخ المطبوعة:.....١٠٠٠ نسخة
المطبعة: مؤسسة الضمان للإنتاج الفني - النجف الأشرف

التصميم والأخراج الفني

محمد الخزرجي ٠٧٨٠٠١٨٠٤٥٠

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢١٠٩) لسنة ٢٠١٤ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

﴿وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

صدق الله العلي العظيم

العنكبوت : ٦٩

(٤) امرأة تختصر النساء

الإهداء

إلى.. التي ورثت مصائب أمها..

فغدت تقابلها بصبر أيها.

راجياً شفاعتها يوم الورود

(٦) امرأة تختصر النساء

سيدي، يا صاحب الزمان..

يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ..

تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا.. وَقَدْ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ..

وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ..

فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا.. إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ..

وَاسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا.. إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ.

(٨) امرأة تختصر النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد الخلق، وقدوة الخير، ونبي الرحمة.. محمد بن عبد الله، وآله الهداة المرضيين، سادات الخلق، وولاة الأمر.. لاسيما بقية الله في العالمين، سيدي ومولاي الإمام محمد بن الحسن المهدي سلام الله عليه.

أيها القارئ الكريم ! هذا نتاجٌ اغتنمتُ له بعض دروس سيرة آل البيت عليهم السلام في إحدى المدارس الدينية، ألقى الضوء من خلاله على بحث بعض ما يتعلق بخطابات السيدة الجليلة زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام خلال رحلتها الإصلاحية مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام. وقد وجدتُ في تلك الأثرات ما يصلح خميرة لدراسة خطابات هذه السيدة الجليلة بصورة أوسع وأدق، لذا رأيتُ أن أطرحها إلى القارئ الكريم لتسد بعض الفراغ الموجود في المكتبة الإسلامية فيما يتعلق بتلك الخطابات التي كان لها بالغ الأثر في نجاح ثورة الإمام الحسين عليه السلام والمحافظة عليها واستمراريتها.. فهدبتها ورتبتها وخرّجتُ مصادرها وأضفتُ إليها بعض ما يتعلق بالموضوع، فكان أن اجتمع هذا الكتاب المتواضع الذي بين يديك.

إن المتأمل في ما نقله لنا القرآن الكريم من أحداثٍ كان لها تأثيرها الكبير في مسار الثورات الإصلاحية يجد إن للمرأة الدور الهام والمكمل والمؤثر في مسار تلك

الثورات وتحقيق أهدافها التي قامت من أجلها.. فإن جعل الله سبحانه مع آدم زوجته، ومع عيسى أمه، ومع نبينا الكريم إبنته، فقد جعل مع الحسين أخته، وإذا كانت واقعة الطف من أقدار الله سبحانه، فإن من تقديره الحكيم أن يكتمل الجزء الثاني والهام من المسيرة على يد من تكون شخصيتها مثيلة لشخصية أخيها الحسين تماماً وفي كافة الجوانب، إلا ما اختص به الإمام الحسين عليه السلام، فالتربية واحدة في كنف مدرسة الرسول ﷺ، وفي حجر فاطمة بنت محمد ﷺ، وتحت ظلال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. إنها كبرى الأسباط بعد أخويها الحسن والحسين، فهي تجسد شمائل أمها بكل جلالها وجمالها، وتتمثل شخصية أبيها بكل تقواها وعلمها، وتتناسب مع شخصية أخيها الحسن، وتكاد تتطابق مع شخصية أخيها الحسين عليه السلام.

ومنذ الأزل كانت واقعة الطف مقدرة.. إذ كانت الذروة في الصراع الجاهلي الإسلامي بعد انفجار نور الوحي على هضبات مكة وسهولها، وكانت الوقائع تتسارع في هذا الاتجاه منذ لحظة وفاة النبي ﷺ، ودخول بني أمية على مسرح الأحداث من جديد تحت غطاء النفاق، وفي غفلة من الأنصار وتغافل من المهاجرين لمصالح سلطوية مؤقتة.

ولكن التاريخ لم يبين الشيء الكثير عن حياة السيدة زينب عليها السلام قبل حادثة عاشوراء، إلا أنها أنجبت أربعة من البنين : علياً ومحمداً وعوناً الأكبر وعباساً وفتاتين، وإن النساء كن يختلفن إليها لتلقي عليهن التعاليم الدينية، وإنها هاجرت مع أبيها وزوجها إلى الكوفة، وإن زوجها عبد الله شارك في الدفاع عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه ضد البغاة، وأنه كان من أمراء جيش الإسلام في تلك الحروب.

ولا ريب إن البيت الهاشمي بكل أفراده كانوا يخوضون، منذ التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، غمار صراع متعدد الأبعاد من أجل إعادة السلطة إلى الدين، ومقاومة خط النفاق الأموي الذي تسلل إلى مراكز القيادة في الأمة. والسيدة زينب ع كانت واحدة من أفراد هذا البيت، لذا فهي ثمرة طيبة من الثمرات الخالدة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، حملت في شخصيتها الطهر الفاطمي والعصمة العلوية والفداء الحسيني.. مضافاً إلى كل ذلك العطر النبوي فأثبت كل ذلك وأنتج الشخصية الفريدة المسماة (زينب) والملقبة (أم المصائب).

إنها النموذج الكامل – بعد أمها وجدتها – للمرأة المسلمة للعصور كلها والدهور، إنها الشعلة التي اقتبست النور من نور الأنوار رسول الرحمة محمد ﷺ، وإنها البطلة التي ورثت الشجاعة والجرأة والإقدام من قاتل صناديد العرب في سبيل الله، أمير المؤمنين ع، وهي المشاعر الإنسانية المرفهة التي تفيض حباً وعطفاً وحناناً دافقاً، إذ أخذت ذلك كله من أمها الزهراء البتول التي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، وهي العنفوان والإخلاص والعلم والحجة والبرهان التي أقتبستها من مواقف أخيها الحسن المجتبي ع، وهي البلاغ والرسالة الإسلامية بما ترمز إليه من القوة والشجاعة والثبات والصبر كما ظهر ذلك جلياً في مواقفها الكربلائية، فصارت صنو الحسين ع في ثورته والجزء المتمم لحركته في حياة الأمة كلها وعلى امتداد الأجيال.

إنها القدوة بجهادها وصبرها وأذاها وحزنها وفقد أحببها من الأخوة والأولاد وأولاد الأخوة وأسرها والطواف بها من بلد إلى بلد، فهي التي تحملت كل ذلك لأنه في سبيل الله عز وجل وفداءً لدينه وإخلاصاً.

لقد كانت ع في موقفها الكربلائي حركة لا تهدأ، فتارةً تحتضن أطفال أهل البيت الذين روعهم صهيل الخيل وأصوات السيوف التي فتكت بأجساد آبائهم وأخوتهم الطاهرة، وتارةً أخرى تواسي النساء الفاقات الباكيات على الآباء

والأخوة والأبناء. وثالثة، تساعد الرجال وتشد من عزميتهم وهم ينظرون إلى الموت القادم لا محالة. ورابعة، تقف عند الأجساد الطاهرة التي رملتها صحراء كربلاء تودّعها وتزفها إلى حيث الأمن والأمان. وخامسة، تضع يديها تحت الجسد الطاهر لأبي عبد الله الحسين عليه السلام وتتضرع إلى الله بقلب يعتصره الألم، وشعور دافق بالثورة على الأمة الظالمة التي قتلت ابن بنت نبيها، وهي تقول: اللهم تقبل منا هذا القربان. وسادسة، تدافع عن الإمام زين العابدين عليه السلام الذي أنهكته العلة، وتحول بين القوم الظالمين وبينه، وتدفع بنفسها للقتل فداءً لحجة الله في الأرض دون تردد أو خوف. وسابعة.. وثامنة..

ومع كل ذلك الجو المليء بالإحباط والانكسار وتوهين العزيمة وفقد القدرة على الضبط لحركة المشاعر والانفعالات نرى زينب في القمة من الانضباط والاتزان والثقة بالنفس والتماسك وقوة الإرادة وشدة العزيمة. لقد كانت ابنة الزهراء عليها السلام في تلك اللحظات الحرجة ترسم لوحة الشجاعة والصبر على امتداد الزمن، وتسخر انفعالاتها لترسخ الإيمان العميق بالله والمعرفة التامة بأن كل ما جرى هو بعين الله، ولم تفرط تلك الدماء بأي شعار من شعاراتها وأهدافها الإسلامية، ولم تتنازل أمام كل ذلك عن أي مبدأ من مبادئ الإسلام.

من تلك القيم، انطلقت السيدة زينب عليها السلام بكل عزم وتصميم على التحدي لكل الظلمة المستبدين، فأسقطت رهانات العدو الذي كان يتصور أنه أخرس كل صوت يمكن أن ينطق بالتعريض بالحكم الأموي، وفضح جرائمه وجنایاته بحق الإسلام والمسلمين.

بتلك الروح المتدرجة في مدارج الكمال، والنفس المطمئنة الواثقة.. تحملت زينب كل تلك الآلام وتجرّعت كل تلك الغصص، واحتسبتها عند الله سبحانه، ولم تترك مجالاً للأدعياء لكي يهزموا ثقتها واطمئنانها، بل أخذت المبادرة أيضاً في الرد عليهم بما أخرس ألسنتهم ودحض حجّتهم كما فعلت بعبيد الله بن مرجانة في

الكوفة، وكذلك ما فعلته يزيد ابن ميسون في الشام، عندما خطبت تلك الخطبة بعد أن سمعت أبيات الشعر التي قالها معلناً فيها كفره الصريح وخروجه عن دين الإسلام، تلك الخطبة المليئة بمعاني الثورة والعنفوان، والمشبعة بروح الإسلام الحمدي والإخلاص الحسيني.

إن من يعيش تفاصيل ذلك النموذج الاستثنائي يجد نفسه يتفاعل معه بكل جوارحه وجوانحه من حيث يشعر أو لا يشعر، فيستشعر في نفسه ذلك الدور العظيم لسيدة الإسلام الخالدة زينب الكبرى عليها السلام.

لذا، رأيت إن من الوفاء لحق السيدة زينب العظيم على كل من آمن برسالة جدها وأهل بيته، التي كانت تجسدها في جميع مواقفها ضد الطغاة والظالمين، أن أقدم، ولو بصورة موجزة، شيئاً عن بعض المراحل التي مرت بها في رحلتها الإصلاحية مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام والتي أهلتها لأن تكون في عداد العظماء من أبطال التاريخ الإسلامي والإنساني على حد سواء، وأني لأعلم إن الذي يخوض في ما يتعلق بمثل تلك الشخصيات العظيمة من أهل البيت عليهم السلام ينبغي أن يكون في بحثه بين الخوف والرجاء، أما الخوف فمن التقصير في استيعاب ما يتعلق بتلك الشخصيات، وهذا واقع لا محالة، إذ كيف للجاهل أن يحيط بالعالم. وأما الرجاء فللثواب الجزيل الذي قد يحصل عليه الباحث من مثل هذا العمل إذا ما توفرت مقدماته من الإخلاص والدقة في البحث وما إلى ذلك التي نسأل الله تعالى أن يوفقنا وجميع المؤمنين لها.

والله الهادي

نجدي الركابي التغلبي
النجف الأشرف

(١٤) امرأة تختصر النساء

تمهيد

قبل الخوض في غمار موضوع بحثنا، نقدم بعض الأمور العامة التي تتعلق بشخصية السيدة زينب عليها السلام، فهي زينب الكبرى بنت علي ابن أبي طالب عليه السلام سيد الأوصياء، وأمها فاطمة الزهراء عليها السلام، سيدة النساء، وجدها رسول الله ﷺ سيد الخلق أجمعين، وأخويها الحسن والحسين عليهما السلام سيدا شباب أهل الجنة.. هذه هي العائلة الكريمة التي احتضنت هذا العفاف الطاهر، فهل تراني بحاجة إلى أن أتحدث أكثر؟.

السيدة زينب عليها السلام هي التي حملت رسالة دم شهداء كربلاء، ورافقت الحسين عليه السلام في ثورته الدامية يوم الطف. ولدت في الخامس من جمادى الأولى في السنة الخامسة للهجرة في المدينة، بعد الإمام الحسين عليه السلام. من ألقابها : عقيلة بني هاشم، عقيلة الطالبين، الموثقة، العارفة، العالمة، المحدثّة، الفاضلة، الكاملة، وعابدة آل علي.

واسم زينب مخفف لكلمة (زينة الأب)^(١)، فشابهت محبة أبيها لها محبة الرسول ﷺ لامها الزهراء عليها السلام، فذاك لقبها (أم أبيها) وهذا لقبها (زينة الأب). كان الإمام الحسين يقوم احتراماً لها. روت عن جدها رسول الله ﷺ، وعن أبيها أمير المؤمنين وعن أمها فاطمة عليها السلام^(٢). كانت معروفة بالشجاعة، والفصاحة،

(١) - موسوعة عاشوراء، الشيخ جواد محدثي، ترجمة خليل زامل العصامي : ١ / ٣٠٧.

(٢) - الحسين في طريق الشهادة، علي بن الحسين الهاشمي : ٦٥.

ورباطة الجأش، والزهد، والورع، والعفاف، والشهامة^(١). زوجها هو ابن عمها، عبد الله بن جعفر. أُستشهد لها في كربلاء ولدان : محمد وعون، إذ لما رفض الإمام الحسين عليه السلام مبايعة يزيد وخرج من المدينة إلى مكة، خرجت معه زينب عليها السلام هي وابناها هذان.

كان لزينب تضحيات كبرى ودور فاعل طوال فترة نهضة عاشوراء، فهي التي أشرفت على قافلة سبايا أهل البيت، وتولّت العناية بالإمام السجاد عليه السلام، وفضحت جور حكام بني أمية بخطبها البليغة. كانت زينب بنت شهيد وشهيدة، وأخت شهيد، وأم شهداء، وعمّة شهداء. خطبت حينما أخذوا سبايا، في الكوفة، وفي دمشق، خطابات حادة ونارية، وصارت رمزاً لخلود ملحمة كربلاء وتوعية الناس.

وبعد العودة إلى المدينة أقامت مجالس ذكر لشهداء كربلاء، تحدثت فيها وفضحت أساليب الحكام الظلمة، حتى عرفت بـ (بطلة الصبر). توفيت عام ٦٣هـ أو عام ٦٥هـ على رواية أخرى، والمشهور إن قبرها في سوريا، ويعتقد البعض أن مدفنها في مصر.

وكان سبب خروجها من المدينة إلى الشام بعد مقتل أخيها الحسين عليه السلام، أن المدينة المنورة مرت عليها سنوات قحط، فنزحت زينب برفقة زوجها عبد الله إلى الشام، وكانت لهما أرض فيها، وتوفيت هناك، ودفنت في نفس الموضع^(٢).

كانت أبرز معالم حياة السيدة زينب عليها السلام هو الحفاظ على معاني وثقافة عاشوراء، حيث أوصلت بخطبها رسالة دماء الشهداء إلى أذهان العالم. كانت على درجة كبيرة من الفصاحة والبلاغة ؛ وهي التي لما رأت رأس أخيها فوق الرماح أنشدت^(١) :

(١) - لمعرفة خصائصها عليها السلام ينظر : الخصائص الزينية، السيد نور الدين الجزائري.

(٢) - ينظر : بطلة كربلاء، عائشة بنت الشاطي.

يا هالالاً لما استتم كمالاً	غاله خسفه فأبدا غروباً
ما توهمت يا شقيق فؤادي	كان هذا مقدرأ مكتوباً
يا أخي ! فاطم الصغيرة كلمها	فقد كاد قلبها أن يذوباً
يا أخي ! قلبك الشقيق علينا	ماله قد قسى وصار صليبا ؟
يا أخي ! لو ترى علياً لدى الأسر	مع اليتم لا يطيق وجوباً
كلما أوجعوه بالضرب نادى	ك بذل يفيض دمعاً سكوباً
يا أخي ضمه إليك وقربه	وسكن فؤاده المرعوباً
ما أذل اليتيم حين ينادي	بأيّيه، ولا يراه مجيباً

ونظمت الكثير من الأشعار في رثاء أخيها الحسين عليه السلام جاء في أحداها^(٢) :

على الطف السلام وساكنيه	وروح الله في تلك القباب
نفوساً قدست في الأرض قدماً	وقد خلصت من النطف العذاب
فضاجع فتية عبدوا فناموا	هجوذاً في الدفادف والشعاب
علتهم في مضاجعهم كعاب	بأوراق منعمة رطاب
وصيرت القبور لهم قصوراً	مناخاً ذات أفنية رحاب
لئن وارتهم أطباق أرض	كما أغمدت سيفاً في قراب
كأقمار إذا جاسوا رواض	وآساد إذا ركبوا غضاب
لقد كانوا البحار لمن أتاهم	من العافين والهلكى السغاب

(١) - عوالم الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبد الله البحراني : ٣٩٦ / ١.

(٢) - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء،

بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ : ٤٥ / ٢٨٥.

وقد عيضاوا النعيم من العقاب	فقد نقلوا إلى جنات عدن
يسقن مع الأسارى والنهاب	بنات محمد أضحت سبايا
كسبي الروم دامية الكعاب	مغبرة الذبول مكشفات

تكلّموا تُعرفوا

كتب الباحثون عن شخصية زينب عليها السلام الكثير مما يعبر عن تلك الشخصية الفذة التي قل نظيرها في التاريخ، ونحن هنا لا نريد أن نتعرف إلى شخصيتها من جميع الحثيات التي تعبر عن تلك الشخصية، فقد أغنانا الباحثون عن ذلك، وإنما سنقتصر على محاولة معرفة شخصيتها عليها السلام من خلال ما يتعلق بموضوع بحثنا وهو كلامها وخطاباتها عليها السلام.

إن التشريع الإسلامي يساوي بين الناس في الحقوق والواجبات، فهم سواسية كأسنان المشط من حيث الأحكام الأولية، ولكن من حيث حقيقة وجوه كل إنسان فإن ذلك يختلف من شخص إلى آخر، والله تعالى ينظر إلى الحقيقة والجوهر قبل نظره إلى الخارج والمظهر، وذلك أن الجوهر يكشف عن النوايا الحقيقية لسلوك الإنسان وأفعاله بشكل واضح لا لبس فيه.. وقد يعبر الظاهر عن الباطن، فما أضمر ابن آدم شيئاً إلا وظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ذلك في نهج البلاغة (تكلّموا تُعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه، لا تحت طيلسانه^(١))^(٢)، فالكلمة تُعرّف حقيقة الإنسان وطبيعة شخصيته، إذ أثبت علم

(١) - الطيلسان : هو نوع من الكسوة التي يكتسي بها الشخص، وقالوا هو الذي زينت أطرافه بالدباج. ولعل المعنى : إن حقيقة الإنسان تكمن في جوهره ودواخله التي يكون اللسان معبراً عنها أحياناً، لا أنها تكمن في لباسه الخارجي وهندامه الظاهري مهما كان ثميناً.

(٢) - نهج البلاغة : الحكمة ٣٧٦.

النفس الحديث أن معرفة أي حقيقة لأي شخصية يكون عبر توجيه بعض الأسئلة إليه ومن خلال الجواب عنها يظهر كنه شخصيته وحقيقتها ومدى سعتها واستيعابها، وهل هي شخصية عالية ذا همّة كبيرة أم لا ؟. وهذا ما حدث مع السيدة زينب عليها السلام عندما أجابت عن أسئلة ابن مرجانة وابن ميسون، ذلك أن الكلمة التي تخرج من فم المتكلم تُعبّر عن المعنى الذي يحتويه ذهن قائلها واعتقاده، وخلجات نفسه ودخائل شخصيته، وهذه حقيقة معروفة لدى علماء النفس والتربية والاجتماع.

لذا سنحاول من خلال شرح خطابها عليها السلام في الكوفة والشام التعرف على شخصيتها من خلال تحليل ذلك الخطاب، علنا نهتدي إلى معرفة الشخصية العلمية والفكرية لها عليها السلام. إذ أننا نستطيع معرفة شخصيتها الربانية من خلال نور كلامها الشريف الذي هو عبارة عن صورة حقيقية وانعكاس صادق لشخصيتها الإلهية، فمن خلال أقوالها وكلماتها نستطيع أن نستدل عليها بنسبة معينة، ونكتشف حقيقتها بسهولة ويسر وبساطة.

لقد تجلّت أنوار كلماتها المضيئة في مختلف أبواب العلوم والفنون كعلم الفقه والأخلاق وسائر العلوم الأخرى التي تكلمت فيها، وما عرف عنها عليها السلام من العلوم على اختلاف أنواعها، رتبة أو غريبة، ظاهرة أو باطنة، عقلية أو عقلية، علمية أو أدبية، إنسانية أو طبيعية، إلهية أو دنيوية.. فإنها عليها السلام قد كشفت القناع عن الكثير من الأسرار التي تخص هذا الوجود وبينت الكثير من عجائبه، وفي كل ذلك نستطيع أن نلتمس منه وفيه شيئاً يسيراً من معرفتها عليها السلام، أما أنوار كلامها فهذا ما بينته الكثير من الكتب الروائية التي نقلت لنا بين طياتها أحاديثها وأدعيتها وولايتها وغير ذلك مما هو مذكور في المطولات.

بلاغتها عليها السلام

مما ينبغي الإشارة إليه، ونحن نتكلم عن خطب السيدة زينب عليها السلام، هي الإشارة إلى ما كانت تتمتع به تلك السيدة الجليلة من بلاغة وفصاحة، وكفى شهادة على ذلك قول حذيم الاسدي عن خطابها في الكوفة : فلم أرَ - والله - خَفرةً أنطق منها، كأنما تنطق وتفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام.

إن في ذلك شهادة على إن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان إمام الخطباء والبلغاء والمتكلمين، بحيث كان له أسلوب خاص، ومستوى رفيع في كلامه وخطبه، يمتاز عن كلام غيره، وفي أعلى قمة الفصاحة والبلاغة، وجودة التعبير، وعلو المستوى الأدبي والعلمي.. بحيث جعل مقياساً تقاس به فصاحة الآخرين وبلاغتهم. وكذلك شهادة على بلاغتها عليها السلام، إذ لا يكون التشبيه إلا بوجود حالة شبه بين المشبه والمشبّه به.

ومن المعروف إن للبلاغة في الكلام دورها البالغ في إيصال المعنى إلى المتلقي بأدق صورة وأجمل بيان، لاسيما إنها عليها السلام كانت تتمتع بعلم واسع، وحكمة بالغة، وخطاب فصل، وشجاعة ربانية، وأدب نافذ، وتعبير فصيح، كل ذلك يشكل عناصر بلاغة السيدة زينب.

لقد كانت بنت ثلاث سنوات حين اصطحبتها أمها الزهراء عليها السلام إلى مسجد رسول الله ﷺ، حيث ألقت خطبتها التاريخية التي جمعت فيها كل قيم الرسالة ومعاني الرفض للظلم والظالمين، ثم كانت زينب وريثة تلك الفصاحة والبلاغة التي انحدرت كالسيل من فم أمها الزهراء عليها السلام في مسجد الرسول ﷺ، مضافاً إلى سائر المعارف والعلوم، وقد روي أن أباهما عليه السلام سألها عن مسألة، فقالت بكل ثقة : بلى، أُمي قد علمتني إياها^(١).

(١) - الصديقة زينب، السيد محمد تقي المدرسي : ١ / ١٧.

علمها عليها السلام ومعرفتها بالله تعالى

وقد بلغ من علمها بالله ومعرفته إن أباه أمير المؤمنين علي عليه السلام أجلسها وأخاها العباس إلى جانبيه وهما صغيران، فقال للعباس : قل : واحد.
فقال : واحد.

فقال : قل اثنان.

قال استحي أن أقول باللسان الذي قلت واحد، اثنان.

فقبل علي عليه السلام عينيه.

ثم التفت إلى زينب، وكانت على يساره والعباس عن يمينه.
فقلت : يا أبتاه ! أتعجبنا ؟.

قال : نعم يابنتي، أولادنا أكبادنا.

فقلت : يا أبتاه ! حبان لا يجتمعان في قلب ؛ حب الله وحب الأولاد، وإن كان لابد فالشفقة لنا والحب لله خالصاً. فازداد علي بهما حباً^(١).

لذا، فإن معرفة زينب بربها لم تشذ عن معرفة جدها وأبيها وأمها وأخويها، إذ أنها عاشت في بيت الوحي والنبوة والإمامة، ومن تلك المعرفة أوتيت بصيرة في دينها.

ولم يكن علمها عليها السلام بأقل من خصائصها الأخرى، فكما كانت أمها فاطمة سيدة نساء العالمين ولا ريب بما امتازت به من تلك الخصائص، فإنها عليها السلام كانت قدوة لنساء عالمها، بل سيدة نساء عالمها، فهي حفيدة رسول الله، ابنة أمير المؤمنين، وفاطمة الزهراء، وهي التي شهد بحقها وبعلمها الإمام علي بن الحسين عليهما السلام بعد أن ألقت خطابها الرائع في حشود أهل الكوفة بعد واقعة الطف، قائلاً لها : (يا عمة

(١) - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

اسكتي، ففي الباقي من الماضي اعتبار، وأنت - بحمد الله - عالمة غير معلمة، فهمة غير مفهمة، إن البكاء والحزن لا يردان من قد أباده الدهر^(١). وهي الفقيهة المفسرة التي كانت جلسات درسها مشهودة من قبل النساء في المدينة والكوفة. ومما يؤكد تلك المعرفة والعلم فيها عليها السلام إن الإمام الحسين عليه السلام قد أوصى إليها لتكون نائبة عنه وعن الإمام زين العابدين لتحمل مشعل الثورة في تلك الأيام العصيبة، وكانت في مستوى تحمل أعباء الرسالة في نظر الإمام لما تحمله من العلم والمعرفة، ولو لم يكن الإمام الحسين عليه السلام يعلم أنها أهل لذلك لما جعلها أمينة على الثورة التي غيرت مجرى التاريخ.

حكمتها عليها السلام

أمّا حكمتها فكفى دليلاً عليها قيادتها للمعارضة في تلك الظروف وبعد تلك الفاجعة الأليمة التي لا يختلف اثنان على أنها تحتاج إلى قائد يتمتع بأعلى درجات الحكمة والتدبر، وسيتضح ذلك من خلال سرد خطاباتنا وبيان مواقفها أثناء تلك الفاجعة وبعدها.

فليس غريباً أن تكون المرأة على أعلى درجات الحكمة والتبصر، بل الغريب القول بعكس ذلك. فقد أثبت القرآن الكريم حكمة العديد من النساء عبر التاريخ، كمریم وزوجة فرعون وملكة سبأ...، ولا بأس أن نذكر - على عجلة - واحدة من هذه الحقائق التي ذكرها القرآن الحكيم :

لقد كانت ملكة سبأ تتمتع بدرجة عالية من الحكمة، فقد نقل القرآن الكريم موقفها مع سليمان عليه السلام والحوار الحكيم الذي دار بينها وبين قومها، قال تعالى :

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} (١).

إن أول علامات حكمتها أنها عرضت الأمر على قومها لتشاورهم فيه، ولم يأخذها زهو الملك والاعتداد بالكرسي، فأخبرتهم أنها لن تنفرد بالقرار دونهم. وعندما أجابوها : { قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } (٢) لم يغير ذلك أيضاً من موقفها الحكيم، ولو كان حاكم غيرها لانخدع بطاعة قومه له بمثل تلك الطاعة العمياء ولأدخل نفسه وشعبه في حالة قد يندم عليها حيث لا ينفع الندم، فأجابتهم بحكمة وبيّنت لهم حقيقة غابت عن أذهانهم، إذ قالت : { ... إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ... } (٣)، فعبرت بذلك عن أن المصلحة العامة والحفاظ على العزة والكرامة للشعب والدولة أهم من المصلحة الخاصة لها والمتمثلة بكرسي الحكم.. لذلك جاء التأييد الإلهي لهذه النظرية وفي نفس الآية، إذ قال تعالى : { ... وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } (٤)، نعم إن الطغاة والجبابرة إذا احتلوا المدن والبلدان وسيطروا عليها وعلى مقدراتها، فإنهم سوف يعبثون فيها ويفسدون ويسرقون خيراتها حتى يجعلوا أهل البلد لا كلمة لهم في بلدانهم، ويكونوا فيه أذلة صاغرين.

(١) - النمل : ٢٩ - ٣٢.

(٢) - النمل : ٣٣.

(٣) - النمل : ٣٤.

(٤) - النمل : ٣٤.

وبعد أن شخّصت أين تكمن المشكلة، وإن موقفهم ورأيهم ليس هو الحل – فليس بالضرورة أن يكون النصر حليفهم، فقد يخسروا المعركة ويدخل الملوك بلدهم ويحدثوا فيه ما حذرت منه – عرضت البديل عن موقفهم، فاقترحت أن تختبر نوايا سليمان عليه السلام في دعوته لهم، فقالت : {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} ^(١)، فإن قبل سليمان الهدية – التي هي هدية ملوك وليست هدية عادية، بل قد تصل إلى مئات الجِمال التي تحمل القطائع والصفايا من الذهب والفضة والجواري والعبيد وغيرها بحيث توازي ما سيحصل عليه لو انه احتل ذلك البلد – فهو – مبدئياً – طالب دنيا كغيره من الملوك، فرأت أن تخسر بعض ما في خزينتها من المال في سبيل الحفاظ على استقلال دولتها ودماء أبناء شعبها، فإن رفض الهدية فهو صاحب دعوة حق، إذ لو جاء لمجرد الاحتلال لقبل بالهدية دون أن يبذل جهداً ويخسر دماءً، فلا بد من أن تنظر بجِد في دعوته، فالقتال ليس هو الحل دائماً، بل قد يؤدي إلى الاستمرار على الضلال وعدم الالتفات إلى الكثير من الحقائق. وفي ذلك حكمة من تلك المرأة الحكيمة ليس لها نظير.

ولما رفض سليمان عليه السلام الهدية قررت أن تنظر في الأمر بجِد، ولولا {أَن صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ} ^(٢) لاستجابت لدعوة سليمان بلا تردد.

وعلى العموم فقد قادتها حكمته إلى الحفاظ على دولتها وقومها وأدخلتها في طاعة نبي زمانها المفترض الطاعة عليها بعد إعلان توبتها وبراءتها مما كان منها، فقالت : {... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ^(٣).

(١) - النمل : ٣٥.

(٢) - النمل : ٤٣.

(٣) - النمل : ٤٤.

وعلى تلك الخطى كانت خديجة وابنتها الزهراء وابنتها زينب ليتركن بصمات مشاركتهن الفاعلة في صناعة مجد الإنسانية عندما وقفن سنداً لنبي الإسلام ﷺ وأوصيائه المعصومين عليه السلام، وليضعن الفهم الصحيح لدور المرأة في الحياة الحرة الكريمة التي أرادها لها خالقها بأن الكل سواسية ولا فرق بين الرجل والمرأة في الدفاع عن الدين والمعتقد. نعم، هذا ما أثبتته السيدة زينب في مواجهتها للآلام والأحداث العنيفة التي صدمتها في باكر حياتها بفاجعة جدّها، ففاجعة أمّها، ثم أبيها أمير المؤمنين، تلتها مصيبتها بأخيها الحسن، حتى كان الختم لسنوات عمرها بفاجعة قتل أخيها الحسين وأهل بيته عليه السلام.

بين الأم وابنتها

{ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ..} ^(١)، هكذا هو حال النبي وآله الكرام ﷺ، ففساؤهم كرجالهم في التضحية من اجل الدفاع عن ثوابت الدين وجوهره، وكما كانت الزهراء عليها السلام المدافع عن تلك الثوابت وذلك الجوهر، فقد سارت زينب عليها السلام على نفس المسار الذي تربت عليه في ذلك البيت العلوي المجاهد. لقد قامت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في وجه ذلك الانحراف الذي أراد أن يُبعد أهل البيت عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها، ورسمت للمجاهدين عبر الأجيال بدمها المطبوع على جدار دارها، وبدموعها المحرقة، وبآهاتها التي ضعفت أركان العرش المزيف، وبالتضحية بجنينها.. بكل ذلك رسمت طريق التحدي في وجه الظلم، إذ أنها وضعت حجر الزاوية الأول في بناء الإسلام النقي، الذي لا يسمح للطغاة أن يحكموا باسم الدين، ولا يتحكم في مصير أهله المنافقون باسم القرآن والرسول.

وجاء دور الوريث لسيدة النساء، إنها ابنتها السيدة زينب، التي رسمت بدورها طريقاً لحمل أعباء الدعوة، تمثلت معاملة بمرافقة إمام زمانها لتقف معه أثناء المعركة، وتحمل منظر استشهاد خيرة الله في العالمين، وأهل بيته، والثلة الفريدة في الكون. ثم الصبر والتحمل، وحفظ النساء والأطفال والإمام الوريث. ثم الكلمة الثائرة التي لا تهدأ، والدمعة الناطقة التي لا ترقى.

نعم، كما كانت زينب إلى جانب أمها في ثورتها حين زلزلت عرش الغاصبين المزيفين، حين ألقت ذلك الخطاب الصاعق في مسجد أبيها في المدينة، كذلك كانت مع أخيها الحسين في ثورته، فأما الزهراء لم تكن موجودة حينئذٍ، فكانت هي البديل الأمثل وليس غيرها، فلبت ابنة الليوث النداء الإلهي للدفاع عن منجزات النبوة والإمامة، فكانت الصاعقة التي نزلت على رؤوس الطغاة والظالمين.. أليست هي التي شاهدت بأم عينها كيف حمت أمها الصديقة الكبرى إمام زمانها وزوجها أمير المؤمنين عليه السلام ؟ أوليست هي التي كانت ترافق أمها وهي تلمم جراحها، وتغتصب نفسها وتحمل كل الآلام، وهي تسرع للدفاع عن أمير المؤمنين لتمنع القوم من إكراهه على البيعة ؟. لقد استوعبت السيدة زينب الدرس تماماً لذا كانت خير من يقوم بهذا الدور، فقد انطبعت في شخصية الطفلة الذكية معالم ذلك الطريق بوضوح وشفافية، وكانت مسيرتها من المدينة إلى كربلاء، ومنها إلى الكوفة، وبعدها إلى الشام، ثم إلى المدينة نسخة مطورة من مسيرة أمها فاطمة عليها السلام، من البيت إلى المسجد، ومن المسجد إلى البيت، ومن قبله تطوافها على بيوت الأنصار طالبة منهم نجدة الحق.

لقد كانت المصيبة تُصدع الجبال لو نزلت بها، ولكنها مادامت في سبيل الله فإن تلك الذرية الصالحة تستوعبها.

لقد كان خطابها في مجلس الطاغية يزيد، كخطاب أمها في المسجد النبوي ؛ فقد كان غرض القوم واحد، فكان الرد متشابهاً وبنفس المثل والأهداف، والتعابير

والنبرات، والشجاعة والحكمة، والإثارة والاستنهاض.. وزادت البنت على أمها أنها كانت أسيرة مكبلة، مفجوعة بأعز الناس.. ولكنها عادت فأسرت آسريها، وقيدت مكبليها، وقهرت قاتلي أهلها بالكلمة الحق، وحسن التوكل على الله، وكفى به وكيلًا.

والتأمل في شخصية كل من الأم وابنتها والظروف التي أحاطت بالحركة الإصلاحية لكل منهما، يجد ثمة مشتركات بينهما، وثمة مميزات تميزت بها كل منهما عن الأخرى، فمن أهم المشتركات ما يلي :

١/ أورد الراوي عن هيئة الزهراء حين خروجها إلى المسجد لتلقي خطبتها : (ما تحرم مشيتها مشية أبيها رسول الله صلى الله عليه واله)^(١)، وأورد الراوي عن زينب عليها السلام حين إلقائها خطبتها على أهل الكوفة، قال : (كانها تفرغ عن لسان أبيها عليه السلام) ، وليس مصادفة هذا التلاحق بين الآباء والأبناء في تلك العائلة الربانية الكريمة، ومن شابه أباه فما ظلم.

٢/ إن الأم وابنتها مارسن دورهن في فترة قصيرة في مرحلة كانت تتطلب أن تمارس المرأة فيها دور الرجل في غيرها من الظروف، ثم كان لابد للأمور أن تعود إلى نصابها ويأخذ الرجال دورهم، وفي ذلك حكمة بالغة حافظت فيها كل من الزهراء وابنتها على إمام زمانها، ولو قام الأئمة عليهم السلام بهذا الدور لكان القتل نصيبهم، ولما تحقق الغرض من الحركات الإصلاحية التي قاموا بها.

٣/ الهدف والغاية، فقد كانت كل منهما تهدف إلى نفس الهدف وتبتغي نفس الغاية، وهو الحفاظ على جوهر التشريع الإسلامي فيما يتعلق بالأصول والفروع.

٤/ هذا، مضافاً إلى إن السيدة زينب عليها السلام بعد وفاة أمها الزهراء اهتمت برعاية أبيها أمير المؤمنين، فكانت ترعاه في جميع شؤون حياته حتى صارت بمثابة

الأم له، وهكذا كانت أمها قبلها حتى كُناها أبوها الرسول الأكرم ﷺ بأشهر كناها (أم أبيها).

أما أهم ما تميز به موقف إحداهما عن الأخرى فأمور، منها :

١/ إن السيدة الزهراء ع عليها السلام مارست دورها الجهادي الإصلاحي وألقت خطبتها الكبرى في مسجد أبيها ﷺ دون أن يكون معها احد من رجال بني هاشم أو شيعتهم، بينما كانت الرحلة الجهادية لابنتها زينب ع عليها السلام ومنها إلقاء خطبتها في الكوفة والشام محاطة بالعديد من بني هاشم، وفي مقدمتهم الإمام زين العابدين ع عليه السلام.

٢/ إن السيدة زينب ع عليها السلام حين إلقائها لخطبتها، كانت مفجوعة بقتل إمامها وحجة الله في العالمين، وأهل بيتها وأنصارها، بخلاف السيدة الزهراء ع عليها السلام. نعم كانت الزهراء ع عليها السلام مفجوعة بموت أبيها سيد الخلق ﷺ، وانحراف الدين عن مساره، وهذا يكفي لأن يجعلها تعيش حالة من المأساة والألم والحسرة.

لذا، فإن كل من الأم وابنتها قد أحاطت بها ظروف مختلفة عن الأخرى، وإن كان الأصل والأساس للمواقف الجهادية ضد الطغاة هو موقف الزهراء ع عليها السلام في خطبتها التاريخية، التي تولدت عنها في سكك الكوفة وفي المسجد الأموي خطبتي ابنتها الكبرى زينب ع عليها السلام، إذ فضحت الحاكم الغاصب ابن ميسون يزيد وعامله ابن مرجانة. ولم تتوقف أن تولدت منها مرة أخرى الخطبة السجادية فوق المنبر الأموي وبحضور أعتى طاغية حكم باسم الدين، فزلزلت عمود حكمه وهدمت بنيان حكومته.

شاء الله أن يراهن سبابا

لقد كان محمد بن الحنفية في طليعة أولئك الذين حاولوا منع الحسين عليه السلام أن لا يستجيب لأهل الكوفة، وأن يبقى بعيداً عنهم، وقد ذكره - مع من ذكره - بمواقف الكوفيين مع أبيه الإمام علي عليه السلام وأخيه الإمام الحسن عليه السلام، إذ قال له : (يا أخي ! إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، قد خفت أن يكون حالك حال من مضى، فإن أردت أن تقيم في الحرم فإنك أعز من في الحرم، وامنعهم)^(١).

فشكر له الإمام الحسين نصحه، وقال له : (خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت)^(٢). وكان محمد بن الحنفية قد أشار عليه أن يذهب إلى اليمن أو بعض نواحي البر ولا يذهب إلى الكوفة، قائلاً : (فان خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فانك امنع الناس به، ولا يقدر عليك احد). فوعده الحسين عليه السلام أن ينظر في الأمر^(٣).

وفي مطلع الفجر من تلك الليلة أخبر ابن الحنفية إن الحسين عليه السلام قد تهيأ للخروج مع إخوته وبني عمومته ونسائه إلى العراق، وكان يتوضأ، فبكى حتى سمعت وكف دموعه في الطست^(٤). فأقبل عليه وقد اشرف موكب الأمام عليه السلام على المسير، فأخذ بزمام ناقته، وهو يبكي. وقال له : ألم تعدني النظر فيما سألتك، فما حداك على الخروج عاجلاً ؟

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٤ / ٣٦٤.

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) - تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ : ٣ / ٣٠١.

فرد عليه الحسين قائلاً : لقد جاءني رسول الله بعد ما فارقتك، وقال لي : لقد شاء الله أن يراك قتيلاً. فقال محمد ابن الحنفية : إنا لله وإنا إليه راجعون، فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال ؟ قال : فقال ﴿لي صلى الله عليه واله﴾ : إن الله قد شاء أن يراهن سبايا^(١).

بهذا الجواب القصير، وبهاتين العبارتين، بما لهما من المدلول الواسع، وبدون مواربة أو تمويه أجاب الحسين أخاه محمد بن الحنفية.

ولعل الإمام عليه السلام أراد أن يوصل لأخيه ابن الحنفية إن الأمر ليس بيده، وإنما هو من مقتضيات الحكمة الإلهية التي لا بد منها.. وهكذا اختصر الإمام عليه السلام الموقف مع محمد بن الحنفية.

وأظن إن محمد بن الحنفية سكت واستسلم لدموعه وعاطفته الجياشه تجاه أخيه وأهل بيته لأحد ثلاثة محتملات على الأقل :

الأول/ أن محمد بن الحنفية قد استوعب الحكمة الإلهية من ذلك الموقف للإمام الحسين عليه السلام، وإلا فإن السؤال يبقى قائماً : ولماذا شاء الله أن يراهن سبايا ؟! إذ أن في اعتقاد المعتقدين بإمامة الإمام الحسين عليه السلام انه يعلم بجميع حيثيات مشروعه الإصلاحية هذا بما ألهمه الله تعالى من العلم وبما أخبره به جده ﷺ وأبوه عليه السلام، إذ من غير المتصور أن يقوم شخص بمثل ذلك الأمر دون أن يعلم بجميع حيثياته.

نعم، لا يحتمل ذلك العلم إلا من محض الإيمان محضاً - وقليل ما هم - لذا لم يخبر به الإمام عليه السلام من لم يكن مدركاً لذلك المشروع العظيم.

الثاني / يحتمل - أيضاً - إن الإمام قد أشفق على أخيه محمد بن الحنفية بعد أن رأى أن الأمر قد أحدث أذى بالغاً بأخيه، فلم يرد أن يطيل الحديث معه.

الثالث/ يُحتمل أن الإمام أراد أن يبين إن في علم الله تعالى بأن حمل النساء معه هو الجزء المتمم لقيامه، مضافاً إلى استشهاده وأهل بيته وأصحابه، ولولا ذلك لما كان هناك أية فائدة من القيام، فخروجه وحمل النساء معه من قبيل الكل المكون من أجزاء الذي ينتفي بانتفاء أحد أجزائه. وبتعبير آخر : إن احدهما يكمل الآخر ولن يتحقق الهدف والغاية إلا بهما معاً (شاء الله أن يراني قتيلاً، وشاء الله أن يراهن سبايا).

ونفس الكلام يقال فيما يتعلق بجواب الإمام الحسين عليه السلام لعبد الله بن عباس حين نصحه - هو الآخر - بعدم حمل النساء معه، فأجابه بنفس الجواب (شاء الله أن يراهن سبايا).

وهكذا كان، وكما قال أبو عبد الله عليه السلام، لقد شاء الله أن يراهن سبايا.

ولكن ! هل كانت زينب عليها السلام مختارة في حضورها كربلاء أم مضطرة ؟
قد يتوهم البعض أن قول الإمام الحسين عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية ولعبد الله بن عباس (شاء الله أن يراهن سبايا) يوحي بأن زينب كانت مضطرة مجبورة في تواجدتها في واقعة الطف دون اختيار منها، وعليه لم تكن مدركة أو مستوعبة للدور الذي قامت به، فلا يكون لها عليها السلام أي فضل في ذلك.

وقبل الإجابة عن ذلك لابد من الإشارة إلى أن منشأ هذا التوهم هو عدم إدراك المعنى المراد من المشيئة المقصودة في كلام الإمام الحسين (شاء الله أن يراهن سبايا). لذا سنبين - باختصار - المقصود من المشيئة الإلهية :

فالمشيئة قد تكون مشيئة حتمية، لابد من وقوعها، كمشيئة الله تعالى للصفات الجارية على الإنسان عند خلقه له، فقد خلق الإنسان كما شاء الله له أن يكون من حيث الصفات والخصائص التكوينية. وقد تكون المشيئة الإلهية لا بمعنى المشيئة الحتمية، وإنما بمعنى تخلت العبد بينه وبين فعله، أي أن الإنسان يكون مختاراً في

تصرفاته بين الفعل والترك، كما في كون الإنسان مخيراً بين فعل الخير وتركه، وكذلك بين فعل الشر وتركه.

والمعنى الثاني للمشیئة هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وبه تقوم الحجة لله على الناس.. وهو المعنى الذي قصده الإمام الحسين عليه السلام في كلامه.

أما المعنى الأول للمشیئة فهو ما أسس له الفكر الأموي من عقيدة روج لها بين أوساط المسلمين، لأن من أهم نتائجه عقيدة (الجبر)، وذلك لتبرير أفعالهم وتصرفاتهم، بل وتسلطهم على رقاب الناس أيضاً^(١). وقد ظهر ذلك جلياً في السؤال الذي وجهه ابن زياد لزينب عليها السلام حينما قال لها : كيف رأيت صنع الله بأخيك ؟ فهو ينسب قتل الحسين عليه السلام إلى الله تعالى، وإنهم إنما امثلوا لإرادة الله تعالى. وهكذا فعل يزيد (لعنه الله) حينما سئل عن أحد الأسارى، فقبل له : علي بن الحسين. فقال : ألم يقتل الله علياً ؟ فهو ينسب القتل إلى الله تعالى^(٢).. وسيأتي بيان ذلك خلال الشرح بإذن الله.

(١) - روى في صحاحهم وأشهر كتبهم عن حذيفة بن اليمان : قلت يا رسول الله ! إنا كنا بشر، فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر ؟ قال : نعم. قلت : هل من وراء ذلك الشر خير ؟ قال : نعم. قلت : فهل من وراء ذلك الخير شر ؟ قال : نعم. قلت : كيف ؟ قال : يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال، قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع. (يُنظر : صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة).

(٢) - هذا احد الاحتمالين المتصورين في المقام. أما الاحتمال الثاني فهو : قد يكون عبيد الله ويزيد يقصدان من كلامهما أنهما كانا في فعلهما هذا بقتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه مختارين، لأنهما على الحق بحيث أنهما امثلا إرادة الله في قتل شخص خارجي.. وإن كان هذا الاحتمال بعيد معرفتهما التامة بالإمام الحسين عليه السلام وأحقيته بالأمر.

وتتضمن عقيدة (الجبر) هذه، نفي الفعل أو الترك حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى، أي هو حمل الإنسان على الفعل أو الترك والاضطرار إليه بالقهر وأنه مغلوب على أمره في فعله وتركه لأنه في الحقيقة فعل الله سبحانه من غير أن يكون للإنسان قدرة على دفعه والامتناع من وجوده فيه.
ويترتب على هذا الاعتقاد عدة نتائج، كلها باطلة، منها :

الأولى/ بطلان الثواب والعقاب، بمعنى أن الإنسان إذا فعل خيراً فإنه لا يستحق الثواب، لأنه مجبور على فعل الخير، وكذلك فيما يتعلق بفعل الشر والعقاب عليه لنفس السبب.

الثانية/ لا يبقى دور للإخلاص في النية والتنافس بين الناس على فعل الخير والابتعاد عن المعاصي والمحرمات، إذ أن ذلك - حسب الفرض - ليس بيد الإنسان، بل هو خاضع لما يجبره الله تعالى عليه.

الثالثة/ إن الحجة ستكون للناس على الله سبحانه، فالذين سيدخلون النار يوم القيامة سيحتجون على الله تعالى بأنك أنت الذي قهرتنا على فعل الشر وترك فعل الخير، بل إن الذين سيدخلون الجنة لا يستحقون ذلك لأنهم مجبورون أيضاً على فعل الخير، وسيحتج أهل النار على الله تعالى بذلك أيضاً بأن الله سبحانه قد أجبر أهل الجنة على دخول الجنة وأجبرهم هم على دخول النار بسبب الجبر الذي تعرض له الطرفان في الدنيا، وسيقولون لله تعالى : بماذا استحق أهل الجنة ذلك، ولماذا لم تجبرنا نحن أيضاً على فعل الخير بدلاً من فعل الشر..

وهذا خلاف صريح القرآن الكريم الذي ينص على : { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ

الْبَالِغَةُ... }^(١).

الرابعة/ نسبة الشرور من الجور والظلم وما شابه إلى الله تعالى، وهذا خلاف ما يعتقد المسلمون من أن الله تعالى خير محض لا شرور في أفعاله، وإنه عادل لا يجور ولا يظلم.

فإذا اتضح بطلان هذا الاعتقاد، فإنه يتضح بطلان هذا الإشكال من الأساس. هذا أولاً.

وثانياً : إن سياق الأحداث وما رافقها من تصريحات لها عليها السلام يفند ذلك أيضاً، وأنها عليها السلام كانت مختارة مدركة لموقفها هذا، إذ أن أهم ما يميز شخصية السيدة زينب عليها السلام هو استقلاليتها في الرأي فيما لا يتعارض مع تكليفها الشرعي، لاسيما إذا ما علمنا إن هذه العائلة المباركة كانت كل تصرفاتها من أجل جعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد تجلت هذه الاستقلالية في مرافقتها لأخيها الحسين عليه السلام في ثورته الإصلاحية بعد موافقة زوجها عبد الله بن جعفر الذي لم يتردد في السماح لها بذلك، وبعدما أعلن الإمام رفضه الكامل لبيعة الطاغية يزيد وعزمه على مغادرة المدينة والتوجه إلى مكة المشرفة، وقد دعا أخته العقيلة السيدة زينب عليها السلام وعرفها بعزمه وما سيجري عليه من الأحداث، وطلب منها أن تشاركه في مشروعه، فاستجابت له عن وعي وإدراك وتصميم وإرادة، كما دعا أولاده وزوجاته وأخوته وبني عمومته إلى مصاحبته فلبوا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد إلا لعذر قاهر.

وقد عبرت عليها السلام عن موقفها هذا عندما حاول البعض ثني الإمام الحسين عن قراره اصطحاب النساء والأطفال معه فيما رواه بعض الرواة : إن السيدة زينب قالت لإبن عباس وهي باكية العين : (يا ابن عباس، تشير على شيخنا وسيدنا أن يخلفنا هاهنا ويمضي وحده، لا والله، بل نحيا معه ونموت معه، وهل أبقى لنا الزمان غيره)^(١).

(١) - زينب الكبرى، جعفر النقدي : ٩٤. وينظر أيضاً : د. ماجدة حمود (وهي من أتباع المذهب

السنّي)، دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الحسين عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام : ق ٣ / ٩٦.

الحكمة من حمل النساء والأطفال مع الإمام عليه السلام

يغفل أغلبنا عن إدراك جميع مهام الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، ومن ذلك مهمته العظيمة التي قام بأعبائها بأفضل صورة ؛ كانت تلك المهمة تتلخص في بعث روح الشهادة في ضمير الأمة لكي يدافعوا عن قيم الدين أمام السلطات الجائرة الظالمة على مدى الزمان، ويضحوا بأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الحق. وكأن الإمام عليه السلام يقول بلسان الحال للمسلم : إذا كان دم سبط رسول الله رخيصاً في سبيل الله، فأى دم يبقى غالياً، وإذا كانت حُرَم رسول الله تسبى من أجل فضح الباطل، فأى حرمة لنساء باقي الرجال ؟

ومن مهامه الأخرى ما لا يمكن أن يكون لولا حملة عقيلة بني هاشم وسائر مخدرات الرسالة معه إلى العراق، وكان ذلك أيضاً مما يدل على حكمة الإمام الحسين عليه السلام، بل أنه من أروع ما خطط له الإمام عليه السلام في ثورته الكبرى، فهو عليه السلام كان على علم بما يجري عليهن من النكبات والخطوب، وما يقمن به من دور مشرف في إكمال نهضته، وإيضاح أسباب توضيحته، وإشاعة مبادئه وأهدافه، وقد قمن حرائر النبوة بإيقاظ المجتمع من سباته، وأسقطن هيبة الحكم الأموي الجائر، وفتحن باب الثورة عليه، فقد ألقين من الخطب الحماسية ما زعزع كيان الدولة الغاصبة.

لقد كان خروج العقيلة وسائر بنات رسول الله صلى الله عليه وآله ضرورة ملحة لا غنى عنها، فقد كن من أهم أسباب نجاح الثورة واستمرارها وخلودها.

يقول الشيخ كاشف العطاء في ذلك : وهل تشك وترتاب في أن الحسين لو قتل هو وولده، ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات لذهب قتله جباراً، ولم يطلب به أحد ثأراً، ولضاع دمه هدراً .. فكان الحسين يعلم أن هذا

عمل لابد منه، وأنه لا يقوم به إلا تلك العقائل، فوجب عليه حتماً^(١) أن يحملهن معه، لا لأجل المظلومية بسببهن فقط، بل لنظر سياسي وفكر عميق، وهو تكميل الغرض، وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أن تقضي على الإسلام، ويعود الناس إلى جاهليتهم الأولى^(٢).

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي : ثم رفض - يعني الحسين - إلا أن يصحب معه أهله ليشهد الناس على ما يقترفه أعداؤه مما لا يبرره دين، ولا وازع من إنسانية، فلا تضيع قضيتته مع دمه المراق في الصحراء، فيفتري عليه أشد الافتراء حين يعدم الشاهد العادل على ما جرى بينه وبين أعدائه^(٣).

وتقول الدكتورة بنت الشاطي : أفسدت زينب أخت الحسين على ابن زياد وبني أمية لذة النصر، وسكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس الظافرين، وأن كل الأحداث السياسية التي ترتبت بعد ذلك من خروج المختار وثورة ابن الزبير وسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ثم تأصل مذهب الشيعة إنما كانت زينب هي باعثة ذلك ومثيرته^(٤).

يتبين مما تقدم إن قتل الحسين وأهل بيته وأصحابه دون وجود الدور المكمل للنساء والأطفال سيجعل من تلك الثورة واحدة من المواجهات العسكرية الكثيرة التي حدثت عبر التاريخ، وسيفهما الناس المعاصرون والقادمون عبر الأجيال من وجهة النظر الأموية فقط.. مما يعني ضياع تلك الجهود وتلك الدماء والتضحيات.

(١) - الوجوب الحتمي هنا بمعنى كونه السبب والعللة في نجاح الثورة وتحقيق أهدافها. وبتعبير آخر : لو أراد الحسين ﷺ نجاح ثورته وتحقيق الهدف منها فيجب عليه - عقلاً - حمل النساء والأطفال معه، لأن ذلك هو سبب النجاح، ومن أراد النتيجة يجب عليه - عقلاً - تحقيق سببها.

(٢) - السيدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام، الشيخ باقر شريف القرشي : ١١ / ٢.

(٣) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) - المصدر نفسه.

من هنا تظهر بوضوح الحكمة البالغة من حمل النساء والأطفال إلى العراق، وهو الأمر الذي لم يدركه (الناصحون) للإمام عليه السلام بعدم اصطحابهم معه. إن من أهم الأسباب في خلود، بل وتحقيق أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام واستمرار فعاليتها في نشر الإصلاح الديني الاجتماعي هو الدور الذي قامت به عقيلة بني هاشم وبنات الرسول ﷺ اللاتي حملهن الإمام معه، فقد قمن ببلورة الرأي العام، ونشرن مبادئ الإمام الحسين وأسباب نهضته الكبرى، وهدمن ما توهم يزيد وأعوانه أنهم بنوه من مجد وما حققوه من انتصارات عسكرية، وألحقن به الهزيمة والعار إلى يوم القيامة.

وهكذا كان (القرار التاريخي) للإمام الحسين عليه السلام بحمل النساء والأطفال معه بمشيئة الله وقضائه وقدره، لتكتمل بذلك مقدمات النجاح وتحقيق الغرض والغاية، فرافقت عقيلة بني هاشم أخاها الحسين في مسيرته الخالدة لتكون معه في خندق واحد، وتشاركه في جهوده وجهاده لإنقاذ الإسلام والمسلمين من جور الأمويين وظلمهم. فلما دعاها أخوها الإمام الحسين للخروج معه، وقبل أن تغادر العقيلة الحجاز استأذنت من زوجها عبد الله بن جعفر أن يسمح لها بالسفر مع شقيقها سيد الشهداء، فأذن لها في ذلك. وقد حاول العديد من غير المستوعبين للهدف الإلهي من حركة الإمام عليه السلام والمشفقين، بل والحاسدين والمنافقين^(١)، ثني الإمام عليه السلام عن الخروج إلى العراق أو عن عدم حمله النساء والأطفال معه على الأقل، وقد تقدم الكلام عن ذلك آنفاً.

ولم يكن سبي العائلة الكريمة من بلد إلى بلد بأقل أثرٍ على تلك الدولة الجائرة وعلى تلك الأسرة التي تكيد للإسلام جهاراً نهاراً دون خجل أو وجل.

(١) - ومنهم عبد الله بن عمر الذي (نصح) الإمام الحسين عليه السلام بعدم الخروج من مكة ظناً منه إن الإمام عليه السلام ينافسه على سلطة أو منصب، لأن ابن عمر كان من الطامعين في السلطة والإمرة، فيبدو إن نصيحته للإمام كانت حسداً أن يحصل الحسين عليه السلام على السلطة في حال انتصاره على الأمويين.

لقد كان لسبي النساء والأطفال والطواف بهن من بلد إلى بلد أثر كبير كان من أسوأ الآثار على دولة الأمويين وحكمهم، وكان الجزء المتمم للهدف الذي أراده الإمام الحسين من نهضته، فلقد أثار فضح آل أمية وكشف حقيقتهم وواقعهم السيء لدى جميع المسلمين، وأظهر قبائحهم ومخازيهم للقاصي والداني، وأوضح للمسلمين والمخدوعين بهم في كل مكان وزمان أنهم لم يدخلوا الإسلام إيماناً به، بل عداً له، إذ كانوا يطنون الكفر والإلحاد ويظهرون الإسلام رياءً ودجلاً ونفاقاً.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام عند حمله النساء والأطفال على يقين بأن الأمويين سيطوفون بهم في البلدان والأمصار، وسيراهم كل إنسان مكشفات الوجوه وفي أيديهم الأغلال والسلاسل، وقد أشارت السيدة زينب عليها السلام إلى هذا المعنى في خطبتها في الشام - كما سيأتي بإذن الله -، وإن أكثر الناس سيقابلون ذلك بالنقمة على الأمويين والأسف والحزن لآل بيت نبيهم الذي أمر الله تعالى بأن يكون أجر تبليغه الرسالة وما تحمله في سبيل ذلك هي مودة قرباه وأهل بيته : { ... قُلْ لَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ... } ^(١)، فقد مروا بهم بمدينة تكريت، وكان أغلب أهلها من النصاري، فلما اقتربوا منها وأرادوا دخولها اجتمع القسيسون والرهبان في الكنائس وضربوا النواقيس حزناً على الحسين، وقالوا : إنا نبرأ من قوم قتلوا ابن بنت نبيهم، فلم يجرأوا - أي حملة الرؤوس - على دخول البلدة وباتوا ليلتهم خارجها في البرية ^(٢).

وهكذا كانوا يقابلون بالجفاء والإعراض والتوبيخ كلما مروا بدير من الأديرة أو بلد من بلاد النصارى، وحينما دخلوا مدينة (لنيما)، وكانت عامرة يومذاك، تظاهر أهلها رجالاً ونساءً وشيياً وشباناً، وهتفوا بالصلاة والسلام على الحسين وجده وأبيه ولعن الأمويين وأشياعهم وأتباعهم وأخرجوهم من المدينة، وتعالى

(١) - الشورى : ٢٣.

(٢) - من وحي الثورة الحسينية، هاشم معروف الحسني، دار القلم، بيروت - لبنان : ٤ / ٤٩.

الصراخ من كل جانب، وأرادوا الدخول إلى جهينة من بلاد سوريا فتجمع أهلها لقتالهم فعدلوا عنها، واستقبلتهم معرة النعمان بالترحاب، بلدة المعري الذي يقول :
أليس قريشكم قتلت حسيناً وصار على خلافتكم يزيد
وقال :

وعلى الأفق من دماء الشهيد علي ونجلاه شاهدان

وحينما اشرفوا على مدينة (كفر طاب) أغلق أهلها الأبواب في وجوههم، فطلبوا منهم الماء ليشربوا، فقالوا لهم : والله لا نسقيكم قطرة من الماء بعد أن منعتم الحسين وأصحابه منه. واشتبكوا مع أهالي حمص، وكان أهلها يهتفون قائلين : اكفراً بعد إيمان، وضلالاً بعد هدى ؟، ورشقوهم بالحجارة فقتلوا منهم ستة وعشرين فارساً. ولم تستقبلهم سوى مدينة بعلبك، كما جاء في (الدمعة الساكبة)، فدقت الطبول وقدموا لهم الطعام والشراب^(١).

وقد أدخل النساء والسبايا بالنهار مكشفات الوجوه، فقال أهل الشام الجفأة : ما رأينا سبايا أحسن من هؤلاء، فمن أنتم ؟ فقالت سكينه بنت الحسين : نحن سبايا آل محمد صلى الله عليه وآله، فأقيموا على درج المسجد حيث يقام السبايا، وفيهم علي بن الحسين عليهما السلام، وهو يومئذ فتى شاب^(٢).

وهكذا توالى الأحداث على آل الرسول خلال السبي حتى حدث ما لا يتوقعه أكثر المسلمين تشاؤماً من يزيد، فليس العجب أن يقتل يزيد حسيناً، بل العجب أن يكون القاتل من أبناء الطلقاء الأرجاس الأنجاس، والمقتول هو من الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ! ومع ذلك تجد من يؤيد ويدافع عن الطلقاء وأبنائهم ويتهم المطهرين وأتباعهم.. وإلى ذلك أشارت السيدة زينب

(١) - المصدر نفسه : ٥٠.

(٢) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ١٥٥.

عليه السلام بقولها : إلا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء.

إن كل ما فعله يزيد بالحسين وأهل بيته ونسائه وأطفاله عجب في عجب، فقد رأى الناس في ما حل بالسبايا من الفجيعة أعظم مما رأوه في قتل الحسين، وقد كان هذا ضمن المخطط الذي أراده الإمام عليه السلام من حمل النساء والأطفال، ولولا حملهم لما تحقق السبي الذي كان له دوره الفعال في تحقيق الهدف الذي أراده الحسين من نهضته وساهم في انهيار دولة الظلم والظالمين، فزينب عليه السلام لن تستطيع ممارسة هذا الدور لو لم تكن حاضرة في كربلاء، بل أنها مهما فعلت - لو أنها بقيت في المدينة - لن تستطيع أن تلفت انتباه الناس إلى تلك الحقائق التي أشارت إليها في الكوفة والشام، إذ كيف سيتسنى لها الدخول على ابن مرجانة لتقول له بحضور حشد من الناس ما قالت له من خلال تواجدها في الكوفة مع السبايا، وهل كان بإمكانها أن تدخل مجلس الطاغية يزيد في الشام، وهو يعيش زهو الانتصار المزيف، وتلقي ذلك الكلام الذي أعلنت فيه وبصورة أربكت كل طغيانه وفسقه وفجوره، ولعنت فيه آبائه وأجداده الطلقاء، وبينت أنه فعل ببنات الرسالة ما لا يقبل أن يفعله بناته ونسائه عندما صكت سمعه بقولها : أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك إماءك وحرائك وسوقك بنات رسول الله من بلد إلى بلد. ثم أعلنت احتقارها له ولتصرفاته حينما قالت : ولئن جرت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لاستصغر قدرك وأستعظم تقريعتك.. إلى غير ذلك من كلماتها التي كانت تنهال عليه كالصواعق المحرقة، وغيّرت اتجاه الرأي العام نحوه ونحو منهجه مما اضطره لأن يتصل من تلك الجريمة ويلعن ابن مرجانة ويحاول أن يحمله مسؤوليتها بعد أن بلغته آثار تلك المأساة في المدن والقرى التي مر بها موكب السبايا واللعنات التي كانت تنهال عليه وعلى أهل بيته.

وبعد أن رأى الطاغية إن الوجوه قد تغيرت بعد أن أصبح كل شيء مكشوفاً بسبب تلك الوقفة التاريخية للسيدة زينب عليها السلام وما حدث بموكب السبايا الذي أثر في نفوس الناس وقلوبهم، فقد كان الكثير من الناس لا يعلمون بأن موكب السبي هذا هو لآل الرسول ﷺ بسبب التضليل الإعلامي الذي مارسه الأمويون مع الناس.. ما كان منه إلا محاولة الحفاظ على ماء الوجه بأن يتصل من تلك الجريمة، وأنى له ذلك بعد أن فضحته السيدة زينب على رؤوس الأشهاد.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بما أعلمه به جده رسول الله ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى وأبوه أمير المؤمنين عليه السلام بأن شهادته وحدها لا تعطي النتائج المطلوبة ولا تحقق له جميع أهدافه ما لم تقترن بسبي النساء والأطفال والطواف بهن من بلد إلى بلد، ليتاح لشقيقته العقيلة ومن كان معها من آل الرسول ﷺ أن يؤديوا دورهم ورسالتهم.

بهذا الأسلوب قابل وريث الدولة الأموية وحامل رايها يزيد بن ميسون ما فعله جد زينب والحسين مع أبي سفيان وزوجته هند بنت عتبة، التي مثلت بعمه الحمزة، وحاولت أن تلوك كبده، وكيف أنه ﷺ عاملهما بالعفو والصفح، وجعل لهما ما لم يجعله لأحد من مشركي مكة وطواغيتها، ورحم الله بعض الشعراء الذي ذهب يعاتب الأمويين بقوله^(١) :

وعليك خزي يا أمية دائم	يقي كما في النار دام بقاءك
فلقد حملت من الآثام جهالة	ما عنه ضاق لمن دعاك دعاك
هلا صفحت عن الحسين ورهطه	صفح الوصي أيه عن أباك
وعففت يوم الطف عفة جده	المبعوث يوم الفتح عن طلقاك

(١) - ينظر : من وحي الثورة الحسينية، مصدر سابق : ٤ / ٥٢.

أفهل يد سلبت إماءك مثلما سلبت كريمات الطفوف يداك
أم هل برزن بفتح مكة حُسرا كنسائه يوم الطفوف نساك

لقد كانت تلك حكمة حمل الإمام الحسين عليه السلام نساءه وأطفاله معه، ولأن أكثر الناس لم يكونوا مستوعبين لتلك الغايات والأهداف فقد عبر لهم الإمام عليه السلام عن حمله النساء والأطفال بما أخبره به الرسول ﷺ في رؤياه الصادقة قبيل خروجه من المدينة : لقد شاء الله أن يراهن سبايا.

وبذلك أبطل الإمام الحسين عليه السلام ما قد خطط له بنو أمية من أن الطواف بآل الرسول أسارى في البلاد برفقة رأس السبط الشهيد ورؤوس أصحابه رضوان الله تعالى عليهم سيثير الرهبة في نفوس معارضيها، وبالتالي يثبت سلطانهم، لعدم معرفتهم بأن الذي خطط لتلك الثورة العظيمة قد أخذ بنظر الاعتبار كل ما يؤدي إلى نجاحها، بل وخلودها أيضاً. فكانت تلك الرؤوس المرفوعة على أسنة الرماح وموكب العزة والشرف لآل الرسول ﷺ الشاهد الأكبر على فضح الطاغية وحكومته، وعلى عظيم تضحية أهل البيت عليهم السلام في سبيل الدين، وأنهم حماة والمدافع الأول عنه.. وكانت كلمات التقرير والتحدي التي فاضت بها خطب السيدة زينب وأختها وابن أخيها عليهم السلام، وبهذا الأسلوب من الاستهزاء بالطغيان الأموي والسخرية من سلطانهم، أكبر ثورة أعادت الأمور إلى نصابها، وأعلنت انتصار الإسلام على أعدائه الكفار والمنافقين مرة أخرى، وإلى ذلك أشار الإمام السجاد عليه السلام عندما سأله إبراهيم بن طلحة بعد شهادة أبيه الحسين عليه السلام :

يا علي بن الحسين ! من غلب ؟

فيجيبه الإمام : إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة، فأذن ثم أتم^(١).

(١) - الصديقة زينب، مصدر سابق : ١١.

مما تقدم يمكن أن نذكر بعض ما يمكن استنتاجه فيما يتعلق بالغرض والحكمة من حمل النساء والأطفال مع الإمام عليه السلام إلى العراق بالرغم من أنه عليه السلام يعلم بما سيحل به وبهم :

أولاً/ إن ذلك كان بأمر الله تعالى ومشيتته، وهذا مما لا يمكن مخالفته من قبل الإمام الحسين عليه السلام، وقد ورد إن عبد الله بن عباس دخل عليه ليعدله عن السفر إلى العراق، فقال له الإمام : (يا بن عباس، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت نبيهم من وطنه وداره وقراره وحرم جدّه، وتركوه خائفاً مرعوباً، لا يستقر في قرار ولا يأوي إلى جوار، يريدون بذلك قتله وسفك دمه، ولم يشرك بالله شيئاً، ولم يرتكب منكراً ولا إثماً.. ؟).

فأجابه ابن عباس بصوت حزين النبرات قائلاً : جعلت فداك يا حسين، إن كان لا بد لك من المسير إلى الكوفة فلا تسري بأهلك ونسائك.

فقال له الإمام الحسين : (يا بن العم، إنني رأيت رسول الله ﷺ في منامي، وقد أمرني بأمر لا أقدر على خلافه.. إنه أمرني بأخذهن معي. يا بن العم، إنهن ودائع رسول الله، ولا آمن عليهن أحداً^(١)).

ثانياً/ إن الإمام عليه السلام - كما في ذيل كلامه أعلاه مع ابن عباس - لا يأمن على نسائه وأطفاله فيما لو لم يحملهم معه، وهذا هو ديدن الظالمين والطغاة، فأنهم لا يراعون لمؤمن ذمة ولا حرمة، مع الأخذ بنظر الاعتبار الخصوصية التي أشار إليها الإمام عليه السلام بالنسبة لهؤلاء النسوة : (إنهن ودائع رسول الله)، فهتك حرمتهم لا يقارن بغيرهن، لذا كان يجب منع حدوث ذلك لأنه لا يكون إلا إذا كان في سبيل الله سبحانه، ولو حدث ذلك وهن في بيوتهن لما تحقق ما تحقق بسبب وجودهن في كربلاء مع الإمام الحسين عليه السلام من فضح الطغاة الظالمين، والحفاظ على الثورة وديمومتها.

(١) - السيدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام، مصدر سابق : ١١.

ثالثاً/ إن الإمام عليه السلام أراد أن يكشف للرأي العام، ولا سيما المخدوعين ببني أمية، حقيقة هذه الزمرة الظالمة من أنهم لا يراعون حرمة للنساء ولا للأطفال الذين كان الرسول ﷺ يحذر المسلمين من الاعتداء عليهم خلال حروبه وغزواته، وإن هؤلاء ليس لهم عهد بالقرآن ولا بالرسول ولا يستنون بسنته ﷺ.

رابعاً/ القيام بالأدوار التي لو قام بها الرجال في مثل تلك الظروف لفقدوا حياتهم، ككشف الحقائق المتعلقة بالحاكم نفسه ورجالات دولته وسائر الحقائق التي حاول الطغاة إخفاؤها عن الناس وتعريتهم وفضحهم أمام الملأ، وقد كان لها عليها السلام أسوة بأمها الزهراء عليها السلام في ذلك المجال.

خامساً/ المحافظة على الإمامة كعقيدة وأصل من أصول الدين، وعلى شخص الإمام المعصوم المتمثل بالإمام السجاد عليه السلام، فلو أن الإمام السجاد عليه السلام تكلم بما تكلمت به السيدة زينب عليها السلام لكان مصيره القتل لا محالة، ولا يخفى مما لذلك من نقض للغرض الإلهي في عالم التكوين فيما لو قتل إمام الزمان، فقد ورد (إن الأرض لا تخلو من حجة، إما ظاهراً، وإما مغموراً)^(١). ولم يكن الحفاظ على حياة الإمام بالأمر السهل، وقد قمن نساء الحسين عليه السلام بفعل ذلك أكثر من مرة، إحداها: عندما بقي الحسين وحيداً فريداً في ساحة المعركة، بعد أن تهاوى كل أصحابه وأهل بيته شهداء مخرجين بدمائهم، وهو يرى خلفه النساء والأطفال ويسمع صيحاتهم تتعالى وبكاؤهم، وأمامه الأعداء يشرعون سيوفهم للإنتقاض عليه، وهنا رفع الحسين صوته مستنصراً يطلب من ينصره ويعينه في ذلك الموقف الصعب الأليم، قائلاً: (هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله ؟ هل من موحد يخاف الله فينا ؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا ؟)^(٢). واخترق نداء الحسين أستار خيام عيالاته ونسائه، فاستشعروا المصيبة والفاجعة، وارتفع بكاءهم ونحيبهم. وكان لنداء

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ١٩١/٥٣.

(٢) - المصدر نفسه : ٤٦ / ٤٥.

الإستتصار هذا وقع كبير على قلب الإمام زين العابدين، فقد آله وأحزنه أن يكون مريضاً مقعداً لا يقدر على حمل السيف وقاتل الأعداء، لكنه مع ذلك تحمل على مرضه، ووثب من فراشه، ومشى خطوات يتوكأ على عصا وهو يجر سيفه، فرمقه الحسين عليه السلام، وتأثر لمنظره وهيئته، ونادى بأخته أم كلثوم^(١) : خذيه واحبسيه لئلا تخلو الأرض من نسل آل محمد.

فأرجعته إلى الخيمة، وهو يقول : يا عمتاه ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول الله^(٢).

وبروح محملة بالحق والعداء لآل الرسول ﷺ هجموا على خيمة الإمام زين العابدين عليه السلام، وسحبوه من على فراش مرضه، وجرّد اللعين شمر بن ذي الجوشن سيفه يريد قتل الإمام ! فنهره حميد بن مسلم، قائلاً : يا سبحان الله ! أتقتل الصبيان؟ إنما هو صبي مريض !.

فأجابه شمر بروح الحق الدفين : إن ابن زياد أمر بقتل أولاد الحسين. وكاد السيف أن ينهي حياة الإمام عليه السلام، لولا تدخل السيدة زينب هذه المرة، حيث تعلقت به لتحمية وتدفع عنه القتل صارخة بالطغاة الظالمين : (لا يُقتل حتى أقتل دونه)^(٣).

ولما رأوا إن السيدة زينب مستميتة في الدفاع عن الإمام السجاد، وأن لا سبيل لقتله إلا عن طريق قتلها تراجعوا عن ذلك.

وفي عشية عاشوراء وبعد أن أحرق الأمويون خيام أهل البيت عليهم السلام، جاءت زينب إلى الإمام زين العابدين وكان قد اشتد به المرض، فسألته - فهو الإمام المفترض الطاعة بعد الإمام الحسين عليه السلام - عن واجبها في هذا الظرف،

(١) - يرى السيد المكرم أن أم كلثوم هذه هي السيدة زينب : ينظر (مقتل الحسين) للمكرم : ٣١٦.

(٢) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ٤٦.

(٣) - حياة الإمام الحسين، باقر شريف القرشي : ٣ / ٣٠٢.

فأمرها والنسوة معها بالفرار. فلما انتشر بقايا آل الرسول في أطراف وادي كربلاء، عادت زينب إلى خيمة الإمام وأنقذته من وسط النيران واطمأنت على سلامته، ثم أخذت هي وأختها أم كلثوم بالتفتيش عن النساء والأطفال وجمعتهن تحت خباء لم تبقى منه النيران إلا القليل.

وعادت السيدة زينب عليها السلام لتدافع عن حياة إمام زمانها الإمام السجاد عليه السلام عندما أنقذته من بطش ابن مرجانة في الكوفة، إذ أدار عبيد الله بن مرجانة بصره يتصفح وجوه السبايا وبقية أهل البيت حينما أوقفوا أمامه في قصره بالكوفة، فرأى الإمام زين العابدين وقد أنهكته العلة فسأله :
من أنت ؟.

قال : أنا علي بن الحسين.

فقال ابن زياد : أولم يقتل الله علي بن الحسين ^(١) ؟.

أجابه الإمام عليه السلام : كان لي أخ أكبر مني يسمى علياً، قتله الناس.
فرد ابن زياد غاضباً : الله قتله.

أجابه الإمام بروح الإنسان العالم : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} ^(٢) ، {وَمَا

كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} ^(٣) .

(١) - كان جواب ابن زياد هذا وفق ما رَوَّج له الإسلام الأموي من عقائد ومنها عقيدة الجبر والتي تكلمنا عنها باختصار في الإجابة عن تساؤل : (هل كانت زينب عليها السلام مضطرة في حضورها كربلاء أم مختارة ؟)، فراجع. فكان جواب الإمام عليه السلام تصحيحاً لذلك المسار العقائدي المنحرف عندما قال : (قتله الناس)، ثم قال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها)، أي أن الله تعالى لا يقتل الناس، بل انه يتوفى الأنفس حينما يصلها الموت الذي كان بسبب الناس.. وبتعبير آخر : إن القتل ليس هو الموت، بل انه سبب للموت، والموت هي النتيجة، والفرق واضح بين السبب ونتيجته.

(٢) - الزمر : ٤٢.

(٣) - آل عمران : ١٤٥.

ولم يتحمل ابن زياد أن يرد عليه الإمام رداً قرآنياً يفحمه ويكشف جهله بكتاب الله ومخالفته له وهو في هذا الموقع من المسلمين، فصاح منفلاً :
وبك جرأة على رد جوابي ؟ ! وفيك بقية للرد علي ؟ !
ونادى بأحد جلاديه : خذ هذا الغلام واضرب عنقه.

فتسابق الجلاوزة لأخذ الإمام للقتل، وأصبحت حياة الإمام في خطر حقيقي مرة أخرى، وهنا تدخلت السيدة زينب لتمارس دورها في حماية الإمام وإنقاذ حياته، حيث أخذت الإمام واعتنقته لتمنع الجلاوزة من أخذه، ثم التفتت إلى ابن زياد قائلة : حسبك يا ابن زياد من دمائنا ما سفكت، وهل أبقيت أحداً غير هذا ؟ فإن أردت قتله فاقتلني معه.

فأحبطت عليها السلام محاولة ابن زياد، حيث اضطر للتراجع عن قرار قتل الإمام، وقال متعجباً : دعوه لها، يا للرحم ! ودّت أنها تقتل معه^(١).
ولو لم يكن لها عليها السلام دور في واقعة الطف إلا هذا لكفى.

وهكذا، فقد كان دور زينب عليها السلام مكماً ليد المشيئة الإلهية التي تدخلت قبل ذلك في حفظ حياة الإمام عليه السلام أثناء المعركة وبعدها كونه مريضاً، فأسقط الله تعالى عنه التكليف، إذ كان مرضه من الشدة بحيث جعله عاجزاً عن حمل السلاح والنزول إلى ساحة المعركة، بل من النهوض والوقوف على قدميه، ليكون هو الخلف والبقية ولتستمر به الإمامة والزعامة الدينية في ذرية الحسين عليه السلام.

سادساً/ الدور الإعلامي : وهذا الدور من أهم الأدوار التي قام به نساء الحسين عليه السلام، وقد أولى الإمام هذا الدور اهتماماً بالغاً، فقد واكب الإمام الحسين معركة أبيه الإمام علي عليه السلام ضد التسلط الأموي المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان، وقد عايش الإمام كيف بالغ معاوية واجتهد في استخدام أساليب التضليل الإعلامي والفكري ليربح المعركة. ومع أن الإمام علي عليه السلام يمثل الخلافة الشرعية للمسلمين، ومع ما

لشخصيته من مميزات وتاريخ عظيم لا يمكن إنكاره، ومع أن معاوية كان في موقع المنشق والمتمرد على جماعة المسلمين.. مع كل ذلك إلا أنه استطاع التأثير على قطاع واسع من أبناء الأمة ليقفوا إلى جانبه ويدعموه في صراعه ضد الشرعية واستمراره في الولاية على الشام رغم عزله من قبل الخليفة الشرعي، بل وتمكنه من تحشيد الجيوش لمحاربة الإمام علي عليه السلام في صفين، وبعد ذلك اتساع رقعة سيطرته ونفوذه في العديد من الأقطار، وحسم الموقف مع الإمام الحسن لصالح استثنائه بالسلطة، الأمر الذي أعطاه انطباعاً بأنه المسيطر على مقدرات المسلمين بحيث عهد به (الخليفة) إلى ابنه يزيد عليه اللعنة.

كل ذلك نتيجة لنجاح وتأثير الأساليب والخطط والممارسات التي قام بها معاوية بن أبي سفيان، ومن أبرزها محاولات الخداع والتضليل الإعلامي، فقد شجع طبقة من الوضّاعين وصنّاع الأحاديث الملفقة الكاذبة في مدح معاوية وبني أمية وسلطتهم، وذم الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام، وبذل لهم الأموال على ذلك. وقد أورد بعضُ كتابنا^(١) ما نقله المؤرخون والشرّاح ممن هم على غير مذهب أهل البيت عليهم السلام، ومنهم ابن أبي الحديد المعتزلي عن شيخه (أبو جعفر الإسكافي ت : ٢٤٠ هـ) : أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه. منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير^(٢).

وقال أيضاً : وقد صح أن بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام، وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتى إن الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله

(١) - للإطلاع على بعض ما ذكره المؤرخون في هذا الخصوص، يُنظر : المرأة العظيمة، الشيخ حسن الصفار.

(٢) - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي : ٤ / ٦٣.

بل بشرائع الدين لا يتجاسر عن ذكر اسمه - أي اسم علي - فيقول : عن أبي زينب^(١).

ثم كتب إلى عماله : أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب - يعني الإمام علي عليه السلام - إلا وتأتونني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى روه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله^(٢).

والى جانب الأحاديث الملفقة الموضوعة فقد استخدم معاوية وسيلة إعلامية أخرى هي توظيف القصاصين الذين يحدثون الناس بالقضايا والوقائع التي تريد السلطة الترويج لها.

يقول أحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) : وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية، ولّى رجلاً على القصص، فإذا سلّم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجّده وصلى على النبي ﷺ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة^(٣).

(١) - المصدر نفسه : ٧٣ / ٤.

(٢) - المصدر نفسه : ٢٢٧ / ٣.

(٣) - فجر الإسلام، أحمد أمين : ١٥٩.

كما أحاط معاوية سلطته بمجموعة من الشعراء المرتزقة كالأخطل ومسكين الدارمي.

يقول (بروكلمان) : وكان معاوية أبداً قادراً على أن يفيد مما كان لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام بسبيل مصالحه العائلية^(١).

ولمعرفة الإمام الحسين بهذه السياسة الأموية في تضليل الناس وخداعهم كان لابد له من التفكير في مستقبل ثورته المقدسة، وكيفية حمايتها وصيانتها من تأثير الإعلام الأموي الحاكم، بل وجعل إعلام مضاد يفوق الإعلام الأموي المضلل من جميع الحيشات، فالإمام يعلم بأن الأمويين لن يكتفوا بقتله، بل سيلجأون لتشويه ثورته وإسقاط شخصيته بمختلف وسائلهم وأساليبهم الماكرة كما صنعوا مع أبيه الإمام علي وأخيه الإمام الحسن عليهما السلام من قبل.

كيف يُفشَل الإمام الحسين مخططهم الإعلامي المضاد بعد استشهاده ؟، وكيف يجهض محاولاتهم في تشويه صورة الثائرين إذا فارق هو الحياة ؟، وكيف تصل أهداف ثورته ومنطلقاتها إلى أسماع الجمهور المسلم عبر العصور والأجيال؟.

وكانت إجابة الإمام الحسين عن هذه التساؤلات إجابة حكيمة قوية تمثلت بحمله النساء والأطفال معه ليقوموا بذلك الدور العظيم، ولتكتمل بذلك كل مقومات نجاح ثورته الإصلاحية العظيمة.

فالحسين عليه السلام قد تصدى بنفسه للقيام بالمهمة الإعلامية يوم كان في المدينة المنورة وحين انتقل إلى مكة المكرمة والتقى بمجموع الحجيج، وأثناء سيره إلى العراق، وفي أرض كربلاء وحتى قبيل شهادته بلحظات كان يخاطب الجيش الأموي محرضاً وموجهاً، كان يوضح للأمة أسباب ثورته وأهداف حركته بنفسه، وكان يكشف

(١) - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان : ١٢٤.

لناس انحرافات الحكم الأموي وفساده، ويؤكد على المسؤولية الملقاة على كاهل المسلمين للتصدي لهذا الجور والظلم.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فهناك مرحلة إعلامية أخرى، قد تكون هي الأهم من حيث الحفاظ على نتائج المرحلة الأولى، إذ لابد من حماية هذه الجهود والتضحيات من أن تذهب أدراج الرياح، وحينها لن تقوم للإسلام قائمة. وهنا برزت حاجة الثورة الفعلية إلى الإعلام الواعي والمدرّك لكل أبعاد ذلك المشروع الإصلاحى العظيم بعد شهادته ﷺ، لأنه يدرك أن التحديات حينئذ ستكون أشد وأكبر، إذ أن الأمويين ستأخذهم نشوة الانتصار العسكري، وسيجعلون من سحق المعسكر الحسيني مثلاً وعبرة لإرهاب من يفكر في معارضتهم والوقوف أمام بغيهم وفسادهم.

لذا، فقد أفرزت أحداث كربلاء نتيجة مهمة تمثلت في إن الإعلام بعد الشهادة لا يقل أهمية منه قبلها، لأنه هو المحافظ على ما تحقق قبلها ولولاه لضاعت جهود الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ولضاع بذلك الدين كله.

ولكن ! مَنْ هو الشخص المناسب الذي أدرك حقيقة ذلك المشروع الإصلاحى العظيم وأهدافه ووعاه كما ينبغي ليقوم بهذا الدور الخطير ؟.

إن الشخص المناسب لابد أن تتوفر فيه جملة من الشروط، من أهمها أن يكون مدركاً لجوهر ذلك المشروع وأهدافه لكي لا يساهم هو في تشويهها من حيث يشعر أو لا يشعر، فالمسألة من الدقة والحساسية بحيث لا تقبل الخطأ. وإن يكون مؤمناً بها، مدافعاً عن مكتسباتها بكل ما يملك، مخلصاً في الدفاع عنها. وإن لا تأخذه في سبيل ذلك لومة لائم، صبوراً شجاعاً..

ولم يتأخر الجواب عند الإمام الحسين عليه السلام، إنها أخته السيدة زينب عليه السلام، ومن سواها يجيد القيام بهذا الدور العظيم ؟.. أليست هي التي تواردت على إعدادها لتلك المهمة جهود ستة من المعصومين عليه السلام، ابتداءً من رسول الله ﷺ

ومروراً بأبيها وأُمها وأخويها الحسن والحسين وابن أخيها الإمام السجاد عليهم السلام من أجل الهدف الاسمي وهو الدفاع عن حياض الدين الحنيف من خطر الطلقاء وأبناء الطلقاء.

سابعاً/ إثارة العاطفة لدى الناس لتبقى قضية كربلاء غضة طرية على مر العصور والأزمان. وهنا لابد من الإشارة إلى أن صاحب المشروع - أي مشروع - يعتمد جميع الأساليب والآليات التي تؤدي إلى نجاح مشروعه، بل واستمرار ذلك النجاح أطول فترة ممكنة. والإنسان بطبيعته يمتلك عاطفة جياشة تتأثر بسهولة بمجريات الأحداث بما تقتضيه الفطرة السليمة لذلك الإنسان، فيكون لها تأثير ملحوظ على تغيير أفكاره وقناعاته، ومن الطبيعي أن تستخدم في مشروع بهذه الضخامة - كمشروع الإمام الحسين عليه السلام في التغيير والإصلاح - جميع الأساليب الممكنة ما دامت مشروعة، ومنها استثارة العاطفة لدى الناس من أجل التأثير فيهم وإيصال أهداف ذلك المشروع المهم إليهم، بل وإلى الأجيال القادمة ما دامت تلك الأجيال تمتلك عاطفة نقية أيضاً. ولم لا؟ ما دام من المنطقي أن تتناسب آليات أي مشروع مع ضخامة ذلك المشروع، وهل هناك مشروع في تاريخ الإسلام بعد نزول الوحي على النبي الأكرم ﷺ أضخم وأهم من مشروع الإمامة والدفاع عنها وفضح من يريد تزيف الحقائق؟، إذ أن إنكارها يموت الدين ويأحيائها يحيا الدين، وقد كانت ثورة الإمام الحسين الإصلاحية بهذا الاتجاه.

ومن الواضح إن أكثر ما يثير العاطفة لما يتعرض له شخص من الأذى والظلم طائفتان، هما : النساء والأطفال، وهذا واضح لما تختص به هاتين الطائفتين من الناس بالضعف وقلة الحيلة في قبال الظالمين، وكلما وقع الظلم على من هو ضعيف ولا يملك حول ولا قوة كانت ردود الفعل من الانتقاد والاستهجان تجاه الظالم أكبر، وكان ذلك أكثر بياناً للرأي العام على خسة ودناءة هذا الظالم، إذ إن احترام هاتين الطائفتين مما أقرته الفطرة السليمة للإنسان بما هو إنسان بغض النظر عن ديانته

ومعتقده، لذا نرى إن جميع الناس من مختلف الديانات وغير المنتمين لديانة معينة يستهجنون فعل يزيد لعنه الله.

وثمة فائدة أخرى تحققت لصالح الثورة تمثلت في إثارة عاطفة المنخدعين بيزيد وأعدائه وإعلامه المضلل، إذ أثبت بسببه لنساء آل الرسول وأطفالهم تنكره للنواميس التي حافظ عليها العرب والأحرار في العالم عبر تاريخهم الطويل، وكما قال سيد الشهداء : (إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم)^(١).

ولكن ! هل كان إيجاد مواقف تثير العاطفة في كربلاء مقصوداً للإمام الحسين عليه السلام ؟

لقد حفلت أحداث كربلاء بالعديد من المواقف التي تثير عاطفة الناس عبر الأجيال لصالح قضية الحسين عليه السلام، فمثلاً : ورد أن الإمام الحسين قد طلب أن يُحظروا له ولده الرضيع، ثم توجه به نحو معسكر الأعداء ليستسقي له ماءً، فرموه بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، وكيف كانت ردة فعل الرضيع الذي اخرج يديه من القمط من حرارة السهم، ثم ردة فعل الإمام الحسين عليه السلام، ثم العودة به إلى المخيم وردة فعل أمه وزينب وسكينة وباقي النسوة إلى آخر ذلك المشهد الفظيع. أو موقف السيدة فاطمة بنت الحسين في خربة الشام بأنها رأت أباه في المنام، ثم انتبعت فرعة مرعوبة فعلا بكاءها وبكاء النسوة معها، فأمر الطاغية يزيد - بعد أن علم بالأمر - أن يبعثوا لها برأس أبيها، وبعد أن وضعوه أمامها لم تتحمل الموقف فماتت على الرأس الشريف.. وما إلى ذلك من تلك المشاهد التي لا تصمد أمامها عاطفة أكثر الناس قسوة وهمجية..

فهل كان إيجاد مثل تلك المواقف مقصوداً للإمام الحسين عليه السلام عندما حمل معه النساء والأطفال ؟

قد لا يكون الجواب عن هذا التساؤل ذا أهمية كبيرة بعد أن عرفنا إن لحمل الإمام الحسين عليه السلام النساء والأطفال معه أهداف وغايات كان لها من الأهمية ما لا يمكن لمشروعه النجاح والاستمرار لولاه، هذا أولاً.

وثانياً : إذا ثبت أن ذلك كان مقصوداً للإمام عليه السلام فان معنى هذا انه كان ضمن التخطيط الإلهي مادام ذلك بمشيئة الله تعالى (شاء الله أن يراهن سبايا)، أي أن الله تعالى يريد تكويناً، وما أراد الله تعالى تكويناً كائن لا محالة، لأنه مرتبط بنظام التكوين.

وبالجملة، فإن الإمام الحسين عليه السلام قائد محنك، يعرف كيف يوظف الظروف لصالحه، فإن كان ذلك مقصوداً له عليه السلام فقد كان له دور مؤثر في نجاح ثورته واستمراريتها، وان لم يكن كذلك، فإن ذلك واقع حال لا يمكن إنكاره، فنحن نجد من أنفسنا أننا جميعاً نتأثر كثيراً ونفعل لما نسمع ونقرأ مما جرى على النساء والأطفال خلال واقعة الطف وأحداث السبي..

وعلى العموم، فإن النتيجة واحدة، وهي إن لوجود النساء والأطفال مع الركب الحسيني دور مهم ومؤثر في نجاح الثورة واستمرارها من الناحية العاطفية أيضاً.

وفي ظني أن هذا كافياً لاحتمال جعل وجود مثل هذه المشاهد المأساوية مقصوداً للإمام عليه السلام.

ثامناً/ كان حمل النساء والأطفال معه عليه السلام من وسائل نشر الدعوة للممثلين الحقيقيين لخلافة الرسول عليه السلام وهم أهل البيت عليهم السلام، وإعادة الدين المحمدي إلى نصابه عند المسلمين، حتى قيل : (الإسلام محمدي الوجود حسيني البقاء).

أقول : إذا كان الأمر كذلك فإنه يصح أن نقول : (ثورة الطف حسينية الوجود زينية البقاء)، وهذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها.. فلقد كانت أحداث السبي من جملة الوسائل لنشر الدعوة إلى العلويين ومبدأ التشيع لأهل البيت، ولعن من شايع

وتابع وباع على قتل الحسين عليه السلام، وقد أشارت إلى ذلك السيدة زينب في قولها ليزيد بن ميسون في مجلسه بقصر الخضراء : فوالله ما فريت إلا جلدك وما حزرت إلا لحملك. أي أنك عجلت على ملكك وعلى نفسك بالفناء بسبب قتلك الحسين وسبيك نسائه وعياله، وهو احد المعاني المحتملة لكلامها عليها السلام - كما سيأتي في محله بإذن الله -.

تاسعاً/ لو لم يكن للنساء والأطفال وجود مع الإمام الحسين عليه السلام في ثورته لكان باستطاعة يزيد وحزبه أن يغيروا الحقائق ويموهوا على الناس، بأن يقول لهم لقد نازعني الحسين ملكي وقاتلني فقتلته، بعد وضوح قوة وتأثير الإعلام الأموي بين الناس، إلا أن ما فعله بالنساء والأطفال من السبي والامتهان قطع عليه الطريق وضيع عليه الحجة، فضاقت عليه الحجج والذرائع ولم يعد أمامه إلا أن يتنصل منها ويضع مسؤوليتها على غيره، فألقى باللائمة على عبيد الله بن مرجانة وجيشه، وقد ظهر واضحاً لجميع الناس انه في عمله هذا كان معبراً عن الحقد الأموي على الرسول وآله الكرام، ولو أن القرآن الكريم والرسول ﷺ قد أوصوا يزيد وحزبه بمعادة أهل البيت ومحاربتهم لما فعلوا بهم أكثر مما فعلوا ! فإنّا لله وإنا إليه راجعون. وبهذا قطع الإمام الحسين عليه السلام الطريق على يزيد وأعوانه بحمله النساء والأطفال معه.

في الطريق إلى العراق

تلك هي السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام، سليلة النبوة، ومثال التضحية والفداء، وهالة النور المشعة، وبقية آل الرسول بين المسلمين.. في طريقها إلى أرض الجهاد والنضال، بعد أن توالى عليها المصائب والفجائع، فقد خسرت أبوة هي أزهى الأبوات في تاريخ الإنسانية، وأفيضها حناناً، وأكثرها إشفاقاً، وأوفرها بركة..

والمتمثلة بجدها الرسول الأكرم ﷺ، ثم لم تقف الحوادث المرة عند هذا الحد، بل عرضت زينب لخطب آخر لا يقل تأثيراً في نفسها الطهور، وإيقاداً لحزنها، وإذكاءً لأسأها عن الفاجعة الأولى، وهي خسارتها المجد الفرد الذي منحه السماء لامرأة واحدة على طول التاريخ، وأعني بهذا المجد العظيم سيادة نساء العالمين الذي فُجعت زينب بخسارتها وخسارة الأمة الإسلامية له، وذلك عندما حلقت روح أمها الطاهرة إلى روح وريحان ورضوان من الله اكبر. ثم كان عليها أن تستعد لمصيبة امتد أثرها ليهز أركان الدولة الإسلامية قبل أن يهز أركان قلبها الذي خيمت عليه مآسي الزمان، لقد كان عليها أن تفقد أنفاس الوصي وامتداد الرسالة في العالمين، انه أباه أمير المؤمنين عليه السلام، ثم كانت سلبية النبوة على موعد مع مأساة تتصدع منها الجبال، إنها مأساة أخيها الحسن عليه السلام التي عاشتها معه بكل ألماها وآهاتها.

وها هي الآن في طريقها إلى العراق، إلى حيث القادم من الآلام والمصائب من قتل سبط النبي وأهل بيته وصحبه وسبي النسوة والأطفال وما يرافق كل ذلك من مصائب عظام لا يصمد أمامها إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، ثم عليها أن تتحمل على كل ذلك وتتناساه وتقوم بدور إكمال المهمة العظيمة وكأن شيئاً لم يكن!! يا لله.. أي حياة تلك التي عاشتها ابنة النبوة؟! وأي عبارات يمكن أن تصف ذلك الموقف الفضيع؟.

انه المنهج الواضح الذي تتوالى خطواته صوب الاتجاه الصحيح، والعقيدة الراسخة التي ستصمد أمام العقائد الفاسدة لتصحيح جميع المسارات المنحرفة التي تبنتها وروجت لها الرئاسات والزعامات الفاسدة. تحدث السيدة زينب كل تلك الصعوبات بنفسها المطوقة بأفاق من الحزن والأسى وهي ناظرة إلى الآتي من المعارك التي ستخوضها، فهي تدرك أنها ستخوض المعركة القادمة من خلال وجودها في ساحتها، ومن خلال الدور الذي ستأديه، ولسان حالها يقول : اللهم وفقني أن أكون ممن تنتصر به لدينك. فكل شيء يهون في سبيل الله والذود عن شريعة سيد

رسله وآله الطاهرين. وبعد معرفة كل ذلك، لابد من الإشارة إلى الحقيقة التي لا شك فيها، وهي إن أحداً ممن يؤمن بعقيدتها ومبدئها ونهضتها لم يكن ليتمكن أن يقف موقفها، ويستبسل استبسالها في الجهاد، إلا وأن يكون لقمة سائغة، وطعمة رخيصة لجبروت وطغيان وتجبر السلطة الحاكمة التي كانت قد بلغت يومذاك أوج جبروتها وطغيانها وتجبرها، فعلى الإشارة عتاب، وعلى القول حساب، وعلى الفعل عقاب.. فكيف إذا كان الواقف بوجه كل ذلك الجبروت والطغيان والتجبر هي ابنة محمد وعلي، خصوم الماضي والحاضر والمستقبل؟! بأي نوع من العداء والحق سيتعامل معها هؤلاء الأوباش الأرجاس يا ترى؟

هذا ما ستجيب عنه الأحداث والوقائع عملياً بعد أن تصل قافلة الثورة إلى العراق وتستقر في كربلاء ثم الكوفة والشام والمدينة مرة أخرى.

بين الماضي والحاضر

ودفعت أفكارها في وقفها تلك إلى سنوات عمرها الأولى، يوم كانت تعيش أيامها السعيدة في أحضان الرسالة، ويوم كانت أنفاس جدها وأبيها تصعد وتنزل. وكان بيت جدها قطب الدولة العتيد، ودعامة المجد الراسخة المهيمنة على الزمن الخاشع المطيع.

ولعل أفكارها هذه ساقتها إلى تصور أبيها عليه السلام - عندما تمت أن يكون حاضراً في كربلاء - وهو يضمها إلى صدره الرحيب، ويحوطها بحنانه الدافئ، ويطبع على رأسها الطاهر قبلاته التي اعتادتها منه، وكانت غذاؤها صباحاً ومساءً.. فعاشت لحظات بين تلك الأمنيات التي تجاوزها الزمن. ثم وصلت إلى حيث بلغت سلسلة الأحداث، وها هي تواجه الواقع المرير، وإذا بالزمان غير الزمان، وها هو أخوها، سليل المجد التليد، ومشكاة النور، والدليل على النبوة، والإشعاع المتألقة، مهدد بالقتل ولا يمكنها أن تدفع عنه، ها هو الرجل الأول في دنيا الإسلام يومذاك،

وحاميه المخلص، والمدافع عنه، الذي لم يكن لينفصل ببدائته الطاهرة عن بداية إشارة إلى الحديث المشهور : (حسين مني وأنا من حسين)^(١). إنها العلاقة المتبادلة والتكاملية بين النبوة والإمامة، فهو ناصرها وأملها الكبير..

ولكن ! وبهذا السيناريو العفن، الذي أعده الطلقاء وأبناؤهم، تخسر الأمة قائدها والمحامي عن عقيدتها أمام من لا يستحق أن يعيش. وهنا بكت بكاءً شقيماً ما شاء الله لها أن تبكي - فهي امرأة -، ولم يكن بكاءً بمعناه الذي يظهر على الأسارير، ويخيم على المظاهر، بل كان لوعة الضمير، وارتياح النفس، وانتفاضة الحسرات في أعماق القلب.. وختمت طوافها الأليم هذا بعبرتين ندتاً من مقلتيها، ثم لم تطل وقفتها، بل اندفعت كالشرارة الملتهبة وحولها صويجاتها حتى وصلت إلى ميدان الصراع، فوقفت وقفتها الخالدة، وأثارت حربها التي استعملت فيها ما يمكن مباشرته للمرأة في الإسلام.. وهكذا استطاعت ثورتها أن تلتهم الخلافة الزائفة بعد أن تناثرت أمامها العقبات.

قربان آل محمد ﷺ

تخجل الكلمات - أحياناً - وهي تحاول أن تصف موقفاً من المواقف التي سطرها عظماء تاريخنا الإسلامي، مضحين بما يملكون في سبيل الدين الخفيف والذود عن حياضه.. وكيف أصف بكلمات موقفاً عظيماً، اكتملت عظمته بأنه صدر من عظمة من عظماء التاريخ؟! ذلك يوم وقفت ابنة علي والزهراء لا يخالجهما شك في موقفها، ولا يطفح عليها ما حدث أمام ناظريها من أحداث رهيبية بشيء من خوف أو ذعر، ولم يخطر في ذهنها تردد فيما صممت عليه، ولم تساورها هواجس القلق والارتباك..

في لحظة بلغت ابنة علي القمة من استعدادها النبيل لصناعة مجد التدين والقرب من الله تعالى.. تقدمت السيدة زينب عليها السلام بخطوات ثابتة، شجاعة، طموحة، واثقة من أنها أصبحت جزء من منظومة الدفاع عن جهود مائة وأربعة وعشرين ألف نبي.. ذلك بعد أن سقط ريحانة رسول البشرية صلى الله عليه وآله عن جواده صريعاً، إذ أسرع إلى مصرعه وصاحت تستغيث بجدها وأبيها، وأوشكت الصرخة أن تنطلق من حشاها اللاهب عندما رأت رأسه الشريف مفصولاً عن بدنه الطاهر، والسيوف والسهام قد عبثت بجسده وقلبه.. ورأت إخوتها وبنيتها وأبناء عمومتها من حوله مجزرين كالأضاحي، ومعها قافلة من النساء والأطفال، وأمامها صفوف الأعداء تملأ صحراء كربلاء، فانبرت ابنة الزهراء عليها السلام إلى جثمان أخيها، وقد رأت - ويا لهول ما رأت - الجثمان المقدس وقد مزقته سيوف البغاة ورماحهم، وقد مثل به كأفطع وأقسى ما يكون التمثيل.

لقد كان منظرًا تلجم منه الألسن، وتجمد منه الدماء، وتهلع منه القلوب.. لقد وقفت العقيلة أمامه بجلال وحشمة، وقد أحاط بها الأعداء، فرمقت السماء بطرفها، وقالت هذه الكلمات التي ارتسمت مع الفلك ثم دارت فيه، وهي تشع بروح الإيمان والإخلاص إلى الله تعالى لتند عن فمها عبقة من فيض النبوة والخلود، تناجي ربها وتتضرع إليه لتقول كلمة لا يقولها الإنسان إلا في حالة التآني والثبات والاطمئنان :

(اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا هَذَا الْقَرْبَانَ) ^(١)

ترى !! أي قربان هذا الذي تتحدث عنه ابنة علي وفاطمة عليهما السلام !؟

(١) - حياة الإمام الحسين، مصدر سابق: ٢ / ٣٠١. وينظر: سيرة الأئمة الإثني عشر، هاشم معروف الحسيني: ٢ / ٨٧.

إنه سبط الرسول الأعظم وريحانته من الدنيا، هو الذي قال عنه جده المصطفى حسين مني وأنا من حسين، هو سيد شباب أهل الجنة، وهو إمام الأمة في زمانه، المفترض الطاعة والمسئول عنه الناس يوم القيامة، وهو.. وهو..، إنه الحسين بن علي بن أبي طالب.

لقد كانت أخت الحسين عليه السلام بين خيارين لم يجد التردد في اختيار أحدهما مكاناً له في قرارها، بل لم يحتج الأمر لدراسة ما تتخذه من قرار، فالمسألة بالنسبة لمثل السيدة زينب محسومة لصالح نصرة الدين والتضحية في سبيله، وقد توجت ذلك عملياً عندما صكت أسماع السامعين إلى يوم القيامة بقولها هذا.

و (القربان) : هو كل ما يتقرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها، مثلما قدم ابنا آدم قربانيهما لله، إذ قدم أحدهما كبشاً والآخر باقة سنابل حنطة : { إذ قربا قرباناً }^(١)، وأمر إبراهيم من قبل الله بذبح ابنه الشاب إسماعيل تقرباً لله تعالى، فأنزل الله عوضاً عنه كبشاً { وفديناه بذبح عظيم ... }^(٢)، وقد عبرت الأحاديث المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام، والزيارات، عن هذا الشهيد المظلوم بصفة (الذبيح)، أي إسماعيل عليه السلام، الذي قدم ضحية في منى لضمان وديمومة الدين، وألهم بني الإنسان درس الشرف والعزة، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه التضحية من الابن والأب سنة، وصار الحجيج يقدمون يوم العيد قرباناً في منى.

وقد شهدت ساحة كربلاء أيضاً موقف التضحية باثنين وسبعين شهيداً على عتبة القرب الإلهي إذ ضحى الحسين بنفسه وأنصاره فداءً للدين.

إن تقديم التضحية هو رمز للانتصار والعزة.. والأمم التي خطت وتخطو على طريق الحرية تقدم الكثير من الشهداء على مذبح الحرية، وإذا لم تكن هناك فئة مستعدة للتضحية فلن يتسنى لها بلوغ هدفها، ومن الطبيعي أن تكون العبادة لله

(١) - المائدة : ٢٧.

(٢) - الصافات : ١٠٧.

وحده في الأرض، والدين والحقيقة والحياة الكريمة على درجة من الرفعة والسمو بحيث تستحق أن تُقدّم لها قرابين من أمثال إسماعيل والحسين عليهما السلام.
ومن خلال إدراك عظمة الضحية يمكن أن تُستشف عظمة الشيء الذي يُضحّي من أجله أشخاص كهؤلاء العظماء الأجلاء.

لقد رضيت بما عانته ابنة محمد وعلي وفاطمة عليها السلام من أهوال هذه الكارثة التي تذوب من هولها الجبال، لأنها في ذات الله تعالى، الذي هامت في الإنابة إليه، وتجلّت بذلك معاني الوراثة النبوية في واحدة من سيّدات التاريخ، وبرزت في شخصيتها معالم شخصية جدّها الرسول ﷺ ووصيّه أبيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأما سيدة نساء العالمين الزهراء عليها السلام البتول عليها السلام.

إن موقفها هذا يدلّنا على تبوّئها عرش الإخلاص لله تعالى، وأنها المأخوذ عليها الميثاق بتلك النهضة المقدّسة كأخيها الحسين عليه السلام، وإن كان التفاوت محفوظاً بينهما، حتّى إنّ أحدهما لمّا أتمّ النهوض بالعهد وخرج عن العدة بإزهاق نفسه المطهّرة، نهض الآخر بما وجب عليه، ومنه تقديم (الذبيح) إلى ساحة الجلال الربوبي والتعريف به..

فأيّ إيمان يماثل هذا الإيمان؟!

وأيّ تبّتل إلى الله يضارع هذا التبتّل؟!

لقد أظهرت ابنة الرسول بهذه الكلمات الخالدة معاني الوراثة النبوية، وأظهرت الواقع الإسلامي، وأنارت السبيل أمام كلّ المصلحين، وأنّ كلّ تضحية تُؤدّى للأمة يجب أن تكون خالصة لوجه الله غير مشفوعة بأيّ غرض من أغراض الدنيا الزائلة.

ليلة الحادي عشر

ومن عظيم إيمانها ﷺ الذي يبهر العقول، ويحير الألباب أنها أدت صلواتها المستحبة ليلة الحادي عشر من المحرم تقرباً وشكراً إلى الله تعالى على ما وفق أخاها ووفقها لخدمة الإسلام ورفع كلمة الله تعالى^(١).

لقد أدت صلواتها في أقصى ليلة وأفجعها، والتي لم تمر مثلها على أي أحد من بني الإنسان، فقد أحاطت بها المآسي، فالجثث الزواكي من أبناء الرسول وأصحابهم أمامها لا مغسلين ولا مكفنين، وخيام العلويات قد أحرقتها الطغاة اللئام، وسلبوا ما عند بنات رسول الله ﷺ وليس لهن سلاح إلا البكاء والدموع. وهكذا، فسوف تدول الدول وتفنى الحضارات وهذا الإيمان العلوي أحق بالبقاء، وأجدر بالخلود من كل ما في هذا الكوكب الذي نعيش فيه.

ومعروف أن المرأة تمتاز برقة المشاعر، وشفافية العواطف، مما يساعدها على القيام بدور الأمومة الحانية، لذلك يكون تأثيرها العاطفي أسرع وأعمق من الرجل غالباً. وإذا كانت تلك الحالة تمثل الاستعداد الأولي في نفس المرأة، فلا يعني ذلك إن تلك الحالة تأسر المرأة وتقعدها عن درجات الصمود والصبر العالية. فبإمكان المرأة حينما تمتلك قوة الإرادة ونفاذ الوعي وسمو الهدف أن تضرب أروع الأمثلة في

(١) - وهنا ينبغي الالتفات إلى نكتة تربوية، مفادها : إن للمصائب والابتلاءات والنوائب التي تصيب الإنسان آثاراً كثيرة، قد ينظر أغلبنا إلى أنها سلبية، إلا أنه يمكن أن يستخلص منها المبتلى بها ثماراً إيجابية لصالحه، ومن أهم تلك الآثار أنها تجعل الشخص يعود إلى الله تعالى وينيب إليه إن كان فاسقاً، وتقوي ارتباط من كان مؤمناً، فتجد أن المبتلى بها يتوجه إلى الله تعالى بإخلاص عن طريق الدعاء أو التوبة والاستغفار وغيرها، وقد لا يجد ذلك الإخلاص والتوجه من نفسه في أوقات الرخاء، وهذا ارتباط مهم ناتج عن تلك المصائب والابتلاءات ينبغي للشخص الذكي أن يسخره لصالح عودته إلى الله تعالى وتقوية الارتباط به. وتعبير آخر : إن من أهم إيجابيات المصائب والابتلاءات هو التعلق بالله سبحانه والإخلاص له في ذلك الحال، فعلينا أن نستفيد من هذه الجنبه الايجابية كأفضل ما يمكن.

الصبر والشجاعة أمام المواقف الصعبة القاسية. بل وتمارس دور القيادة الفذة المتضمنة لأعلى درجات الحنكة والتعقل، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم فيما نقله لنا من قصص الفضليات من المؤمنات كمریم عليها السلام وزوجة فرعون، وما أخبرنا به المعصومون عليهم السلام من مواقف للسيدة الجليلة خديجة الكبرى (رض) وابتها الزهراء عليها السلام.

الصبر الفريد

ثم جاء دور السيدة زينب الذي أبدت فيه تجلداً وصبراً قياسيًّا في واقعة كربلاء وما أعقبها من مصائب، وإلا فكيف استطاعت أن تنظر إلى أخيها الحسين ممزق الأشلاء، يسبح في بركة من الدماء، وحوله بقية رجالات وشباب أسرتها من أخوتها وأبناء إخوتها وأبناء عمومتها وأبنائها، ثم تحتفظ بكامل السيطرة على أعصابها وعواطفها. وأكثر من ذلك فهي تواسي ابن أخيها الإمام زين العابدين حينما رآته متأثراً بالغ التأثير عند مروره على جثث القتلى، والبقية الباقية من آل الرسول ﷺ.

ويعبر الشيخ جعفر النقدي عن فظيع مصائب السيدة زينب وعظيم تحملها لها بقوله : وبالجمل، فإن مصائب هذه الحرة الطاهرة زادت على مصائب أخيها الحسين الشهيد أضعافاً مضاعفة، فإنها شاركته في جميع مصائبه، وانفردت عنه عليها السلام بالمصائب التي رآتها بعد قتله من النهب والسلب والضرب وحرق الخيام، والأسر، وشماتة الأعداء. أما القتل فان الحسين قتل ومضى شهيداً إلى روح وريحان، وجنة ورضوان، وكانت زينب في كل لحظة من لحظاتها تُقتل قتلاً معنوياً بين أولئك الظالمين، وتذري دماء القلب من جفونها القريحة^(١).

(١) - زينب الكبرى، مصدر سابق : ٩٧.

فأيُّ مستوى من الصبر عند السيدة زينب حينما تصف ما رآته من مصائب بأنه شيء جميل ما دام في عين الله سبحانه (والله، ما رأيت إلا جميلاً) رداً على سؤال ابن مرجانة لها : كيف رأيت صنع الله بأخيك ؟ !
 إن للصبر حدوداً - كما يعبرون - ولكن يبدو إن صبر الصديقين لا حدود له، لأنه يستمد قدرته من التوكل على الله والاحتساب عنده، وكل شيء عند المؤمن هين عندما يذكر ربه العظيم.

وهنا لابد من القول بأن التاريخ لم يشهد امرأة أعظم صبراً من زينب عليها السلام.. لقد ذبح أبناها أمام ناظرها وعلى مشهد منها فلم تجزع، ثم استشهد عبر ساعات وأمام عينيها أيضاً إمامها الحسين وإخوتها وأبناء إخوتها وبني عمومتها والثلة الطيبة من أنصار الدين، فصبرت وكانت مثلاً في رباطة الجأش والحكمة في تدبير الأمور، وقيادة الموقف الصعب.

ثم صارت أسيرة، وربما مكبله، وكانت قد أنهكتها المصائب والمتاعب الروحية والجسدية، ولكنها كانت تقود المعارضة من موقع الأسر، كما تدير شؤون الأسارى.. فيا له من صبر عظيم لا يمكن أن يناله بشر إلا بفضل الله وحسن التوكل عليه.. وبقيناً إن مثل هذا العمل العظيم لا يصدر من امرأة مفجوعة بعشرات المصائب العظيمة، إلا إذا كانت في قمة الصبر، وما هذا الصبر إلا بالله العظيم {وَمَا

يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} ^(١).

وعشية يوم عاشوراء نظرت زينب إلى أرض الطف فإذا بها مشخنة بالجلث الطواهر، وهي تتناثر فوق مساحة واسعة كالأضاحي، وقد فصلت الرؤوس، وسلبت الأجساد الطاهرة، وفي جانب آخر رمقت بقايا خيم محترقة، وثلة من

الأطفال المذعورين والنساء المفجوعات يتراکضون على غير هدى وأصواتهم ترتفع تارة بالبكاء على ذويهم وأخرى ينادون العطش العطش..

وقد أحاط بهذا الوادي جيش لجب، انتشى بالنصر وتشبع بروح الهمجية.
إن مجرد تصور هذه الصورة الفجيعة تجعل أكثر الناس حلاًماً ينفار، ولكن السيدة زينب عليها السلام حمدت الله تعالى وبقيت صامدة.

ترى ! ماذا فعلت ؟

للمت السيدة زينب الأطفال، وهذأت النساء وصبرتهم، ثم قامت لربها تصلي، ولعلها كانت تدعوا الله بضراعة كي يمنحها الصبر والاستقامة، وان يتقبل من آل محمد عليهم السلام وآله ذلك القربان، كما كان دعاء أخيها الإمام الحسين في اللحظات الأخيرة من حياته الكريمة، إذ قال :

(اللهم أنت متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلايق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، ومدرك ما طلبت، وشكور إذا شكرت وذکور إذا ذُکرت. ادعوك محتاجاً، وارغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي إليك مكروباً، واستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً. أحکم بيننا وبين قومنا بالحق، فإنهم غرونا وخذعونا وخذلونا وغرروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد بن عبد الله الذي اصطفيته بالرسالة واثمنته على وحيك، فاجعل لنا من امرنا فرجاً ومخرجاً، برحمتك يا ارحم الراحمين)^(١).

ثم قال عليه السلام: (صبراً على قضائك يا رب، لا اله سواك، يا غياث المستغيثين)^(٢).

١ - الصديقة زينب، مصدر سابق : ١٢.

٢ - كلمات الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ الشريفي، دار المعروف للطباعة والنشر : ٢ / ٦.

وعندما نودي بآل الرسول بالرحيل من وادي كربلاء ومروا بالأسرى على أجساد ذويهم، نكاية بهم، ألقى الإمام زين العابدين نظرة وداع أليمة على جسد أبيه المقطع، فاستبد به الحزن، ورمقته الحوراء زينب، وأحست أن حجة الله وإمام زمانها علي بن الحسين في خطر، إذ يكاد الحزن يقضي عليه، فأدركت الموقف وتوجهت إليه قائلة :

مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وأخوتي ؟
يا له من صبر وتجلد ! إذ كيف يواسي الآخرين من هو بأمس الحاجة إلى من يواسيه ؟!

نعم، لقد كانت السيدة زينب ذات صبر عظيم.. كانت عند كل المصائب شاهدة رائدة، فهي التي افتتحت باكورة حياتها بفاجعة فقد جدها رسول الله ﷺ، ويا لها من مصيبة عظيمة، ثم شفعتها بعد فترة قصيرة بفاجعة فقد الصديقة الطاهرة، أمها الزهراء البتول، وهي التي عاشت المحنة العظمى التي نالت أباها ليلة التاسع عشر من شهر رمضان التي فلقت فيها هامته المقدسة في محراب الكوفة. وهي التي عاشت مصيبة أخيها الإمام الحسن (عليه السلام) عندما كان يقذف قطع الدم من جوفه بعد أن دس معاوية إليه السم عبر زوجته جعدة بنت الأشعث التي قتلتها بعد أن منّاها معاوية بالأموال وبأن يزوجه من يزيد.. وهاهي تعيش مأساة جديدة وهي تنظر إلى سيد شباب أهل الجنة بلا ناصر ولا معين، وأجنحة الموت تخفق عند رأسه دون أن تستطع أن تدفع عنه، ولم تجد إلا أن تلطم وجهها قبل أن تخر إلى الأرض مغشياً عليها.

من يدري، فلعل القدر كان يهيء هذه السيدة الطاهرة ليوم عظيم، لتصبح مثلاً في الصبر الإلهي.

ولكن ! هل ارتكبت زينب عليها السلام معصية بلطم وجهها ؟

قبل أيام من ذلك اليوم الرهيب، يوم العاشر من المحرم، حينما نزلت قافلة سيد شباب أهل الجنة في أرض الطف، جلس الإمام الحسين أمام خيمته وأخذ يعالج سيفه وهو يتمثل بأبيات كانت العرب تنشدها عندما يشعر أحدهم بالخطر الداهم، وهو يقول :

يا دهر أف لك من خليل	كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وطالب قتيل	والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل	وكل حي سالك سيلي

فلما سمعت أخته السيدة زينب ذلك صاحت : واثكلاه، ليت الموت أعدمني.
ثم تجمعت في ذاكرتها مصائبها، فقالت : اليوم ماتت أمي فاطمة، وأبي علي، وأخي الحسن. يا خليفة الماضين، وثمان الباقيين.

فتنظر إليها الحسين عليه السلام، وقال لها : يا أختاه ! لا يذهبن بحلمك الشيطان.
وترقرقت عيناه بالدموع، وقال : لو ترك القطا لنام.
فقالت عليها السلام : يا ويلتاه ! أفغتصب نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أقرح لقلبي، وأشد على نفسي.

ثم لطمت وجهها، وهوت إلى جيبها فشقتة، وخرت مغشياً عليها.
فقال لها الإمام الحسين عليه السلام، بعد أن أفاقت : يا أختاه ! اتقي الله، وتعزي بعزاء الله، واعلمي إن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وإن كل شيء هالك إلا وجه الله تعالى الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون وهو فرد وحده.

ثم قال لها : يا أختاه ! إني أقسمت عليك فأبري قسمي، لا تشقي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت^(١).
وقد استغل المناوئون لإتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ما ورد في هذه الرواية من ردة فعل السيدة زينب عليها السلام للتقليل من شأن ثورة الإمام الحسين وموقفها فيها، لاسيما جانب التقرب إلى الله تعالى، أو أنها كانت امتثالاً للمشيمة الإلهية، إذ أن لطم الوجه وشق الجيب من المحرمات بقريظة نهى الإمام الحسين نفسه عنه.
ويمكن الإجابة عن ذلك سنداً ودلالة. فمن ناحية السند فالرواية مرسلة، فهي ساقطة عن الاعتبار من هذه الجهة.
وأما من ناحية الدلالة، فإنها مخدوشة أيضاً، ويمكن تقريب ذلك بعدة محتملات، كلها صحيحة، وذلك من خلال بيان أمور، منها :

١/ كان فعلها هذا قبل طلب الإمام الحسين عليه السلام ذلك منها، ولم تفعله بعده، ومنذ تلك اللحظة، حين عرفت زينب إن مسؤوليتها توجب عليها الصبر جلدت، واحتسبت الله تعالى في صبرها.

٢/ إن النهي قسمان : تكليفي وإرشادي، ومخالفة النهي التكليفي هي التي يترتب عليها المعصية واستحقاق العقاب دون النهي الإرشادي الذي هو مجرد إرشاد ونصح، ولا يترتب العقاب على مخالفته.

٣/ يُحتمل أن يكون نهى الإمام الحسين لها إشفافاً عليها بعد ما رآه منها، وعلمه بما سيحل عليها، فأراد عليه السلام أن يقويها على الصبر والتحمل.

٤/ إن هناك استثناءات وردت في القرآن الكريم والسنة الشريفة على الجزع^(١) المنهي عنه، فعلى سبيل المثال، قال تعالى في وصف جزع يعقوب على ابنه يوسف عليه السلام : {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} ^(٢)، فالآية تبين بوضوح مدى الجزع الذي عاشه النبي يعقوب عليه السلام حزناً على غياب ولده يوسف مع علمه بأنه حيّ وأنه سيلتقي به.

وما ورد في أحاديث المعصومين عليهم السلام في ذلك أكثر، ومن ذلك جزع آدم على ابنه هابيل، وجزع نوح عليه السلام لما رأى عظام الموتى ^(٣).

وأما فيما يتعلق بالحزن والجزع على سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، فقد وردت في التأكيد على ذلك العديد من الروايات، منها : ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، قال : كلّ الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين صلوات الله عليه ^(٤). بل ورد إن الجازع على مصيبة أبي عبد الله عليه السلام مأجور فضلاً عن الجواز، فعن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً أنه قال : إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع ما خلا البكاء على الحسين بن علي عليهم السلام فإنه فيه مأجور ^(٥).

لا يقال إن كلام الإمام الصادق عليه السلام كان بعد صدور هذا الفعل منها عليه السلام ! لان المهم هو أن الفعل كان مشروعاً ولو كُشف عن تلك الصحة فيما بعد، هذا من

(١) - الجزعُ : نقيض الصبر. أنظر : كتاب العين، أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال، تحقيق : د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي : ١ / ٤٩. أما الحزنُ : خلاف السرور. أنظر : الصحاح في اللغة، الجوهري : ١ / ١٢٧.

(٢) - يوسف : ٨٤.

(٣) - ينظر : مستدرک سفينة البحار، الشيخ علي النمازي : ٢ / ٦٤.

(٤) .. المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) - الفصول المهمة في أصول الأئمة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق : محمد بن محمد الحسين القائني، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام، ط ١ - ١٤١٨ هـ. ق. نكين قم : ٤ / ٤١٣.

جهة.. ومن جهة أخرى، فإن ما يقوله الإمام الصادق عليه السلام لا يخالف التشريع، كما لو كان قاله الرسول ﷺ أو أمير المؤمنين أو أي من المعصومين الآخرين عليهم السلام، فقد يقول الإمام الصادق عليه السلام قولاً لم يقله من كان قبله من المعصومين عليهم السلام، لا لأنه تشريع جديد، بل لسبب آخر، كأن يكون أن مورده وموضوعه لم يتحقق سابقاً مثلاً.

بل أن الجزع على غير الأنبياء والمعصومين عليهم السلام من الأولياء والصالحين جائز أيضاً، فقد ورد : لما بلغ علياً قتل محمد بن أبي بكر والأشتر، جزع عليهما جزعاً شديداً، وتفجع، وقال علي : على مثلك فلتبك البواكي يا مالك، وأنى مثل مالك^(١).

ونقل صاحب موسوعة الإمام علي عليه السلام عن (الكامل في التاريخ، لابن الأثير) : لما سمع أمير المؤمنين بقتلهما - ابني عبيد الله بن عباس - جزع جزعاً شديداً، ودعا على بسر، فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله. فأصابه ذلك، وفقد عقله، فكان يهذي بالسيف، ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب، ويجعل بين يديه زقّ منفوخ، فلا يزال يضربه. ولم يزل كذلك حتى مات^(٢).

وورد أيضاً : لما حضرت إسماعيل بن أبي عبد الله الوفاة جزع أبو عبد الله عليه السلام جزعاً شديداً^(٣).

٥/ إن زينب عليها السلام امرأة، والمرأة تتميز بعدة خصائص تكوينية تفترق بها عن الرجل وبما يتناسب مع دورها في الحياة الذي يصب في النهاية في مصب تحقيق

(١) - تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي : ٥٩ / ٧.

(٢) - موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، محمد الري شهري وآخرون، التحقيق : مركز بحوث دار الحديث، الناشر : دار الحديث للطباعة والنشر، ط ٢، ١٤٢٥ هـ : ١٥ / ٤٥.

(٣) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٧ / ٢٤٩.

الغرض الإلهي من إيجاد هذا الكون، ومن أهم تلك الخصائص قوة العاطفة ورقة الشاعر.. ولعل الإمام السجاد عليه السلام قد أشار إلى هذا المعنى في نفس الرواية، إذ قال عليه السلام : (... فأعادها مرتين، أو ثلاثاً - يعني الأبيات التي قالها الإمام الحسين عليه السلام وهو يعالج سيفه - حتى فهمتها وعلمت ما أراد فخفقتني العبرة، فرددتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأما عمتي فلما سمعت ما سمعت - وهي امرأة - ومن شأن النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجربتها وهي حاسرة حتى انتهت إليه، وقالت : واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة، ...) ^(١).

ظاهرة سبي النساء والأطفال

نقرأ في التاريخ الإسلامي كثيراً عن سبي النساء والأطفال الذين يأتون بهم من البلاد التي يفتحها جيش المسلمين ..

ولكن السؤال هنا : هل أن ظاهرة سبي النساء والأطفال واستخدامهم ظاهرة دينية إسلامية أم أنها ظاهرة الموروثة ؟

لو تتبعنا مسار الأحداث لوجدنا أن تلك الظاهرة كانت متفشية جداً في المجتمعات الجاهلية جميعاً ولم تختص بمجتمع دون آخر ، فقد كان الغزو والحروب من أهم ما يميز تلك المجتمعات ، وكانت النساء وكذلك الأطفال من ضمن الغنائم التي يغنمها المنتصر . وبعد إشراقة نور الإسلام واضطرار الرسول ﷺ إلى الدخول في حروب مع الكفرة والمشركين ، فإنه ﷺ كان يوصي بهاتين الطائفتين - أعني النساء والأطفال - وعدم استهدافهما أثناء الحرب . وقد تقدم انه كان يفادي الأسرى من الرجال بتعليمهم القراءة والكتابة للمسلمين ولم يسترقهم . بل إن التشريع الإسلامي قد حرص كثيراً على تحرير الناس وعدم استرقاقهم من خلال

الحث عليه دائماً ، بل جعل ذلك احد أفراد العديد من الكفارات ، فجعل عتق الرقبة فرداً من أفرادها ، بل أوجبه في بعضها ، كما في ما يوجب الجمع بين خصال الكفارة .

ولم يرد - في حدود اطلاعي - انه ﷺ قد قام خلال حروبه وغزواته مع المشركين واليهود التي قادها بنفسه ، بسبي النساء والأطفال ، إلا ما ورد في مصادر بعض المذاهب الإسلامية ، كما في سنن الترمذي مثلاً : (حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الضُّبَيْعِيُّ عَنْ يَزِيدَ الرَّشَكِيِّ عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَيْشًا وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَمَضَى فِي السَّرِّيَةِ فَأَصَابَ جَارِيَةً فَأَنكَرُوا عَلَيْهِ وَتَعَاقَدَ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالُوا إِذَا لَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَرْنَاهُ بِمَا صَنَعَ عَلِيٌّ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا رَجَعُوا مِنَ السَّفَرِ بَدَّعُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا إِلَى رِحَالِهِمْ فَلَمَّا قَدِمَتِ السَّرِّيَةُ سَلَّمُوا عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَامَ أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَمْ تَر إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَنَعَ كَذَا وَكَذَا. فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ قَامَ الثَّانِي فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ الثَّالِثُ فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ قَامَ الرَّابِعُ فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالُوا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْغَضَبُ يَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ . فَقَالَ : مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ إِنَّ عَلِيًّا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَهُوَ وَلِيٌّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي^(١) . وهي ساقطة عن الاعتبار عندنا . وكذلك ما ورد بشأن سفانة بنت حاتم الطائي فهي أيضاً لم ترد من مصادر موثوقة .. وعلى العموم إن ما ورد من الروايات بهذا الشأن مخدوش سنداً أو دلالة .

(١) - سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك ، الترمذي : ١٣ / ٣١٧ .

نعم ، ورد في سورة الأحزاب قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ..} ^(١) . ولم أجد من تعمق من المفسرين في توضيح المراد من قوله تعالى : {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ} ، بل اكتفوا ببيان ظاهرها ، وأن بعض زوجات النبي ﷺ كن من السبي ، إلا أنهم لم يبينوا هل انه هو ﷺ سباهن خلال حروبه وغزواته أم كن سبياً قبل ذلك .

ومعنى (الفيء) لغة هو (الرجوع) ، قال في تهذيب اللغة : وأما قول الله تعالى : {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ..} ^(٢) . فإن " الفيء " : ما رد الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالف أهل دينه بلا قتال ، إما بأن يجلوها عن أوطانهم ويخلوها للمسلمين ، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم ، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفك دمائهم . فهذا المال ، هو " الفيء " في كتاب الله . قال الله تعالى : {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ..} ^(٣) ، أي : لم توجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً . نزلت في أموال بني النضير حين نقضوا العهد وجلووا عن أوطانهم إلى الشام ، فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم من النخيل وغيرها في الوجوه التي أراه الله أن يقسمها فيها . وقسمة الفيء غير قسمة الغنيمة ، التي أوجف الله عليها بالخييل والركاب ^(٤) .

(١) - الأحزاب : ٥٠ .

(٢) - الحشر ٧ .

(٣) - الحشر ٦ .

(٤) - تهذيب اللغة ، الأزهري : ٥ / ٢٤٦ .

وعلى المعنى اللغوي للفيء لا تكون الآية ناظرة إلى السبي الذي يأتون به خلال الحروب ، لان الحرب تستلزم القتال ، والفيء ما يرده الله تعالى على أهل دينه بلا قتال . ولم يرد أن أياً من أهل القرى قد صالحوا الرسول ﷺ على أن يكون من ضمن الجزية التي يؤدونها نساء أو أطفال ! .

وعلى العموم ، إن كانت ظاهرة السبي ظاهرة إسلامية قام بها النبي ﷺ ، فإن يزيد بسبي لبنات الرسول وأطفاله يكون قد جاء بجرمة مركبة ، جريمة سبي مسلمين ، وأن هؤلاء المسلمين هم عيال النبي ﷺ ، وإن لم تكن تلك الظاهرة إسلامية ، فإن يزيد يكون - مضافاً لجرمته المركبة - قد جاء بجرمة أخرى في الإسلام وهي إحياء ظاهرة السبي الجاهلية والتي مارسها الحكام بعد وفاة الرسول ﷺ بكثرة ، فبالمتبع لتاريخ الإسلام ، نجد إن هذه الظاهرة انتشرت في المجتمع الإسلامي في فترة (الفتوحات الإسلامية) ، إذ كان حكام المسلمين يأتون بسبايا البلدان التي يفتحونها من نساء وأطفال ثم يتخذون بعضهم لأنفسهم ويبيعون البعض الآخر في أسواق خصصت لذلك تسمى أسواق الرقيق أو النخاسة . لذا قُورن حال سبايا آل الرسول بحال (سبايا الترك أو الديلم أو كابل) ، إشارة إلى معاملتهم لأل الرسول معاملة الأقوام الكافرة ، متناسين أنهم من المسلمين ، بل من آل الرسول ، وهذا ما يعطي لتلك الجريمة أبعاداً كارثية . وهذا ما دعانا إلى طرح هذا التساؤل .

ولعل هذا المعنى هو احد المحتملات لكلام السيدة زينب مع الطاغية ابن ميسون في مجلسه عندما خاطبته : (إلا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا) ، عندما طلب أحد الأمراء منه فاطمة بنت علي عليه السلام وكانت وضيئة^(١) ، وقال : يا يزيد هب لي هذه الجارية . فتعلقت بأختها زينب ، فدافعت السيدة زينب عليه السلام عنها ،

(١) - الوضاعة : وهي الحسن والنظافة . (أنظر : معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس : ٦ / ١١٩) .

وتوجهت إلى ذلك الشامي ، وقالت : كذبت والله ولعنت ، ما ذاك لك ولا له .
فغضب يزيد وقال : بل كذبت ، والله لو شئت لفعلته .

قالت : لا والله ، ما جعل الله ذلك لك ، إلا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .

بتقريب : إن الذي يسبي النساء او النساء المسلمات ويستعملهن ليس من ملتنا وديننا ، وهو الدين الإسلامي الخفيف .

مرتكزات الثورة

لكل مشروع يراد له النجاح والاستمرار مرتكزات ومناهج لا يحيد عنها، تمثل بمجموعها عوامل النجاح والاستمرار لذلك المشروع، وهكذا تزداد أهمية تلك المرتكزات كلما ازدادت أهمية المشروع وضخامته.

ولا يسعنا - هنا - الكلام عن جميع تلك المرتكزات، إنما سنركز بعض الشيء على ما يتصل بموضوعنا فقط والمتعلق بدور السيدة زينب عليها السلام في نجاح واستمرارية ذلك المشروع الإصلاحى الضخم.

لقد كانت السيدة زينب عليها السلام تدرك جيداً إن عليها أن تنجح في دورها القادم، وتدرك جيداً أيضاً أن ذلك النجاح لابد له من تهيئة مقدماته، إنها المقاتل الذي سيوازي دوره كل الأدوار التي سيقوم بها أنصار الحسين عليه السلام، كيف لا! والحفاظ على مكتسبات تضحية الحسين وأصحابه البررة مرهونة بنجاحها في أداء دورها كما هو مطلوب منها ؟.

لقد كان عليها أن ترافق الركب الثائر لتقوم بدورها التوجيهي للنساء والصبيان فيه، وكان عليها أن تتحمل على نفسها وهي ترى الجيوش تتوافد لتقطع رأس أخيها الحسين، سيد شباب أهل الجنة وريحانة النبي وسليل المجد المؤثر ومن

معه من أقمار البيت الهاشمي والبررة ممن جادت بهم أرحام الصالحات.. وكان عليها أن تسمع أخاها الحسين ينعى نفسه وتصبر، وكان عليها أن تدافع عن الإمامة وتحمي حياة الإمام، وكان عليها أن ترى رؤوس الصالحين ترفع على أسنة الحراب، وكان عليها أن تعطي من صبرها صبراً لمن نفذ صبره من النساء والأطفال، وكان عليها أن تجمع النساء والأطفال وتحافظ عليهم وتحرسهم، وكان عليها أن تترك أخاها الحسين والطيبين الذين كانوا معه على رمضاء الهجير، وكان عليها أن تقبل بأن تكون مسبية مكشوفة الوجه يحدو قافلته قتل إختوها وبنيتهم ومحبيهم، وكان عليها أن تنظر إلى إمام زمانها بين العلة وقيود السبي، وكان عليها أن تزلزل عروش الطغاة والظالمين بلسانها المحمدي العلوي الفاطمي، وكان عليها أن تقوم بكل ذلك بإخلاص ونية صادقة لله العلي العظيم... وكان عليها.. وكان عليها.. وكان عليها... ثم كان عليها أن تبقى على قيد الحياة!!!.

كل ذلك كان على السيدة زينب عليها السلام أن تستجمعه في عقلها وقلبها وتحافظ عليه حتى النهاية، فخطورة الأمر وضخامة المشروع تريد كل تلك التضحيات.. إنها مستمسكات الثورة وأسباب انتصارها وخلودها، وقد أخذ العهد على السيدة زينب بأن تقوم بهذا الدور، وقد علمت بذلك مذ علمت أنها ابنة الزهراء التي أعادت الحق إلى نصابه من قبل.

عندما تكون الكلمات جنود الثورة

لقد وقفت السيدة زينب عليها السلام موقفاً يشق سلوكه على المرأة بطبيعتها الضعيفة لما يكتنف ذلك الموقف العصيب من شدائد ومصاعب تتطلب جرأة أدبية، وملكة بيانية مؤثرة، وقدرة على صب معاني الثورة كلها في مجموعة من الكلمات، وبراعة فنية في تصوير الأسباب والغايات والنتائج، ونقد الأوضاع القائمة تصويراً ونقداً

يجعلان من الألفاظ جنوداً يرتكز عليها نجاح الثورة وديمومتها وخلودها، لتكون تلك الكلمات جنود الثورة الفريدة، وسندها الخالد في تاريخ العقيدة.

إنه الأيمان والاستبسال في سبيل الحق الذي يبعث في النفوس الضعيفة القوة والعزم والإصرار على التحدي في سبيل الله، ويفجر في النفوس المخدولة طاقة لا تتخاذل أمام الضعف والتردد. ولذا، كان اختيارها عليها السلام لهذا الطريق مما يوافق طبيعتها الثائرة في سبيل الله تعالى، ويلتئم مع شخصيتها الطامحة للانتصار للحق، والاندفاع في سبيله، ولكن كان عليها أن تختار السلاح الذي ستستخدمه في معركتها الحاسمة بدقة متناهية لا تقبل التردد والتراجع، وكان عليها أن تأخذ بنظر الاعتبار التعامل مع شركائها في تلك الثورة، فمضافاً إلى الإمام السجاد عليه السلام كانت حولها نسوة من العلويات ومن نساء أنصار الإمام عليه السلام وهن يلتفن بها بغير انتظام كالنجوم المتناثرة، وكأنها ملاذهم الأخير، وهن جميعاً سواسية في هذا الشعور.. فلا بد من أن تمارس دور القائد بينهن، ولا بد أن تكون الكلمات التي تخرج من فمها تعطي لما ستقدم عليه من وثبة كريمة تهبُّ لها العدة والذخيرة، وتزداد بها رباطة جأش، وقوة جنان، وتضاعف قوة الحق التي تعمل في نفسها، وتشتد بها صلابة في الحركة، وانبعاثاً نحو الدفاع عن الحقوق المسلوبة، ونشاطاً في الاندفاع، وبسالة في الموقف الرهيب، كأنها قد استعارت في لحظتها هذه لسان رجل عظيم، ولا أراه إلا لسان أبيها أمير المؤمنين عليه السلام، لتواجه به ظروفها القاسية وما قدر لها المقدر الحكيم من مأساة مروعة تزلزل الصعب الشامخ.

لقد كانت في لحظتها الرهيبة التي قامت فيها بدور الجندي المتوشح بسلاح الكلمات التي تمثل كل عبارة منها قذيفة تخرق أسوار الباطل المظلمة لتفضح أباطيلاً ظن صانعوها أنها ستدوم إلى الأبد، ولكن { ... يَا بَنِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }^(١).

لقد تمثلت لهم كلمات السيدة زينب عليها السلام شبحاً قائماً لوّن سياستهم بألوان شاحبة عابسة، بالرغم من أنها عليها السلام مفجوعة القلب، كاسفة البال، منهدة العمدة، ضعيفة الجانب.. ولكن كان في صميم نفسها، وعميق فكرها، إشعاعه بهجة، وإثارة طمأنينة، تتمثل بانتصار الحق على الباطل، وفضح الدعي ابن الدعي وأعوانه، وإعادة الدين إلى ما جاء به النبي ﷺ، وما أقدمه من هدف، ولم يكن ذلك استعذاباً لأمل منتظر، أو سكوناً إلى حلم لذيذ، بل هو الإيمان المطلق بهذا المشروع الإصلاحى الضخم، ورضاً بالفكرة التي اختمرت لديها مذ زحزحوها عن مكانها الذي رتبها الله تعالى فيه، إنه الاستبشار بالنصر الذي وعد الله المؤمنين، والاطمئنان بنجاح عظيم قد يؤجل إلى حين.

وهكذا كان، فقد أطلقت السيدة زينب من لسانها رصاصات الرحمة على من أراد السوء بشريعة سيد المرسلين، فوظفت كلماتها أحسن توظيف لتجعل منها جنوداً تقود الثورة النيرة، جنوداً سيقون يدافعون عن تلك الثورة، ترددها ألسن الناس بمختلف اللغات واللهجات، ومن مختلف الديانات والقوميات، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن ! ما الذي جعل كلمات السيدة زينب تنجح هذا النجاح الباهر في نصره الثورة ؟

لابد لتحقيق النجاح من توفر جميع مقدماته، وسنقتصر في كلامنا الآتي على أهم المحاور التي اتبعتها السيدة زينب عليها السلام في دورها المهم في مشروع أخيها الحسين عليه السلام من خلال إثارات سريعة نمهد من خلالها للدخول في شرح خطبها عليها السلام.

فمضافاً إلى محاور أخرى كالنياحة وإقامة المجالس وإلقاء المحاضرات التي أوضحت فيها كل ما يتعلق بثورة أخيها الحسين عليه السلام، قامت السيدة زينب بهذا الدور عبر محورين رئيسيين، وهذان المحوران هما اللذان سيكونان موضوعاً لكتابتنا هذا، وهما :

الأول/ الخطاب الجماهيري.

ومن أهم تلك الخطابات الجماهيرية هو خطابها عليها السلام مع أهل الكوفة. وسوف نستعرض، بإذن الله، خطابات السيدة زينب عليها السلام الجماهيرية، والتي كانت ميثاق النهضة في تلك الثورة المباركة، ومنهج عملي لرفض الباطل، وقد ساهمت هذه الخطابات كثيراً في إشاعة أدب الشهادة، وثقافة التحدي في الأمة.

الثاني/ اللقاء المباشر.

قامت السيدة زينب عليها السلام بلقاءات مباشرة، والتحدث إلى الناس، وتحريضهم على السلطة الأموية، وبيان ما جرى عليهم في الطف، وفلسفة قيام السبط الشهيد في مقاومة السلطة الغاصبة، ومن أشهر خطاباتها المباشرة مع أشخاص معينين هو خطابها مع ابن مرجانة في الكوفة، وخطابها مع ابن ميسون في الشام. بل كان لها عليها السلام - مضافاً لحواراتها مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام - حوارات مع قادة جيش أخيها الحسين عليه السلام لبعث الهممة فيهم وتحريضهم على الدفاع عن العقيدة والاستماتة دون ذلك، لان زينب شريكة منذ بداية القيام الحسيني في التعبئة من أجل تحقيق الهدف المنشود. وسيكون في الآتي من هذا الكتاب - بإذن الله - شرحاً لأهم تلك الخطابات.

ولقد حفظ لنا التاريخ بعض هذه الحوارات، كحوارها مع حبيب بن مظاهر الاسدي، ومع برير، وحوارها مع أخيها العباس بن علي عليه السلام نذكر أحدها كمحل شاهد.

فمثلاً، يروي البعض انه في ليلة عاشوراء، وحيث أوكّل الإمام الحسين مهمة المحافظة على المخيم إلى أخيه العباس عليه السلام، وقد كان العباس يراقب الوضع بكل حذر، فإذا به يرى سواداً بين الخيم فنأدى من أنت ؟ فإذا به أخته زينب.

قال العباس : ما أخرجك في سواد هذا الليل يا أختاه ؟!

قالت : جئت لكي أحدثك بحديث.

قال : الآن حلّى وقت الحديث.

ثم قصت زينب للعباس كيف إن أباهما بعد وفاة أمها الصديقة الزهراء عليها السلام سأل أخاه عقيلاً بأن يدلّه على بنت ولدتها الفحولة من العرب، فلما سأله ما تصنع بها، قال لتلد لي شبلاً ينصر ابني الحسين.

ثم أضافت زينب قائلة : يا أخي الحرم حرمك.

وهناك انتفض العرق الهاشمي بين عيني العباس، وقال : أوتشجعيني يا أختاه، لا نعمن لك عيناً^(١).

مدخل إلى شرح خطبة

السيدة زينب عليها السلام في الكوفة

بعد أن أدت أحد أهم أدوارها في المشروع الحسيني الكبير، غادرت السيدة زينب عليها السلام أرض كربلاء بعد ظهر اليوم الحادي عشر من المحرم، تاركة خلفها جثث ممزقة، مقطوعة الرؤوس لسبعة عشر بطلاً من أهلها ما على وجه الأرض لهم شبيه، إضافة إلى أكثر من سبعين من أنصارهم والمدافعين عنهم، بعد أن شاهدت بعينها مصارعهم على رمال كربلاء بتلك الصورة المفجعة.. غادرت ومعها هموم نساء ثواكل وأحلام مذبوحة لأكثر من ثمانين طفل وطفلة.. غادرت وهي مثقلة بما لا يُطاق حمله من الهموم والآلام والأحزان.. كيف لا وهي تخرج لأول مرة في سنوات حياتها التي بلغت ستة وخمسين سنة يحيط بها رجال أوباش أوغاد، حاقدين شامتين.. دون أن يكون معها من حمايتها حمي ولا من ولايتها ولي، على جمال غير مهياة لإراحة راعيها، وفي حال مأساوي فظيع.

دخلت السيدة زينب الكوفة صباح اليوم الثاني عشر من المحرم، تحيط بها كل تلك الهموم والآلام، وتثقل كاهلها تلك المصائب والأحزان.. دخلتها في غمرة أجواءٍ خطط لها حاكم الكوفة عبيد الله بن مرجانة أن تكون مُسخرة للاستفادة من وصول السبايا في إظهار قوة السلطة وتصميمها على سحق أي محاولة تمرد أو معارضة، وأن يجعل من قدومهم تظاهرة لإدانة مشروع الإمام الحسين وثورته، وللاحتفاء بانتصاره الزائف على ثورة الحق والعدل.. في هذه الأجواء الملبدة بكل ما هو مأساوي دخلت السيدة زينب الكوفة مع السبايا.

والكوفة ليست بالمدينة التي تدخلها السيدة زينب عليها السلام لأول مرة، فلها فيها تاريخ وذاكرات، فقد كانت سيدتها الأولى أيام خلافة أبيها أمير المؤمنين عليه السلام قبل عشرين سنة من دخولها الآن.. ولا بد أنها قد استعادت في ذاكرتها صوراً لتلك

الأيام، ففي تلك المدينة كانت تعيش مع والدها وإخوتها، وذاك محراب أبيها علي، ومنبره في مسجد الكوفة.. وهذه الأزقة التي كان يسلكها علي أمير المؤمنين.. وهذا باب دارها الذي كان يقصده القاصدون من كل حدب وصوب.. وتتوالى الصور والذكريات في مخيلتها، لكن سياط الواقع الأليم تنتزعها من تلك الذكريات انتزاعاً.

في ذلك المنظر الرهيب، الذي تهلع منه القلوب، دخلت عقائل النبوة وحرائر الوحي، سبايا إلى الكوفة، ومعهن الأيتام، وقد ربطوا بالحبال، وحملوا على جمال بغير وطاء، وقد عُرِفت أبواق الجيش، وخفقت راياتهم.. بهذا الحال دخلت ابنة الطيبين الكوفة، تلك المدينة التي كانت تعيش فيها الزمن الرغيد في ظل أبيها وأخويها عليه السلام.. وقد وصف مسلم الجصاص ذلك المنظر يقول :

دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة، فبينما أنا أجصص الأبواب وإذا أنا بالزعقات قد ارتفعت من جنبات الكوفة، فأقبلتُ على خادم كان معنا، فقلت : مالي أرى الكوفة تضج ؟

قال : الساعة أتوا برأس خارجي خرج على يزيد.

فقلت : من هذا الخارجي ؟

فقال : الحسين بن علي.

قال : فتركت الخادم حتى خرج ولطمت وجهي حتى خشيت على عيني أن تذهباً، وغسلت يدي من الجص وخرجت من ظهر القصر، وأتيت إلى الكناس، فبينما أنا واقف والناس يتوقعون وصول السبايا والرؤوس، إذ قد أقبلت نحو أربعون شقة، تحمل على أربعين جملاً، فيها الحرم والنساء وأولاد فاطمة عليها السلام، وإذا بعلي بن الحسين عليه السلام على بعير بغير وطاء، وأوداجه تشخب دماً، وهو مع ذلك يبكي ويقول :

يا امة السوء لا سقيا لربعكم
لو أننا ورسول الله يجمعنا
تسيرونا على الأقتاب عارية
بني أمية ما هذا الوقوف على
تصفقون علينا كفكم فرحاً
أليس جدي رسول الله ! ويلكم
يا وقعة الطف قد أورثتني حزناً

يا امة لم تراع جدنا فينا
يوم القيامة ما كنتم تقولونا
كأننا لم نشيد فيكم ديناً
تلك المصائب لا تلبون داعين
وأنتم في فجاج الأرض تسبوننا
أهدى البرية من سبل المضلينا
والله يهتك أستار المسيئينا

قال : وصار أهل الكوفة يناولون الأطفال الذين على المحامل بعض التمر
والخبز والجوز، فصاحت بهم أم كلثوم، وقالت : يا أهل الكوفة، إن الصدقة علينا
حرام.

وصارت تأخذ ذلك من أيدي الأطفال وأفواههم وترمي به إلى الأرض^(١).
وتحدث حذيم بن شريك الأسدي عن ذلك المنظر المؤلم، يقول :
لما أتى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام بالنسوة من كربلاء، وكان مريضاً،
وإذا نساء أهل الكوفة يتندين مشققات الجيوب، والرجال معهن يكون، فقال زين
العابدين بصوت ضئيل وقد نهكته العلة : إن هؤلاء سيكون، فمن قتلنا غيرهم؟^(٢).
وأشرفت امرأة من الكوفيات فقالت : من أي الأسارى أنتن ؟
فقلن : نحن أسارى آل محمد.
فنزلت من سطحها وجمعت ملاء^(٣) وأزرأ^(٤) ومقانعاً^(٥) فأعطتهن، فتغطين.

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ١١٤ / ٤٥.

(٢) - المصدر نفسه : ١٦٢ / ٤٥.

(٣) - ملاء : جمع ملاءة، وهى الربطة ذات لفقين.

(٤) - أزر : جمع إزار، وهو ثوب يلبس على الفخذين.

(٥) - مقانع : جمع مقنع - بالكسر - ما تقنع به المرأة رأسها وتغويه به.

قال : وكان مع النساء علي بن الحسين عليه السلام، قد نهكته العلة، والحسن بن الحسن المثنى وكان قد واسى عمه وإمامه في الصبر على الرماح، وإنما ارتث^(١) وقد أثخن بالجراح^(٢).

وكان معهم أيضا زيد وعمرو ولدا الحسن السبط عليه السلام، فجعل أهل الكوفة ينوحون ويبيكون. فقال علي بن الحسين عليه السلام : أتنوحون وتبكون من أجلنا ؟ فمن قتلنا ؟^(٣).

ولما انتهى موكب السبايا إلى الكوفة، وعلمن النساء أن السبايا من أهل بيت النبوة سارعن إلى تقديم الطعام إلى الأطفال الذين ذوت أجسامهم من الجوع، فانبرت السيدة زينب مخاطبة نساء أهل الكوفة قائلة : (الصدقة حرام علينا أهل البيت)، ولما سمع أطفال أهل البيت من عمتهم ذلك ألقوا ما في أيديهم وأفواههم من الطعام، وأخذ بعضهم يقول لبعض : إن عمتنا تقول : الصدقة حرام علينا أهل البيت^(٤).

نعم، في تلك الظروف العصيبة على بنات الرسالة ومن معهن ممن بقي على قيد الحياة من الرجال والأطفال، وصل موكب سبايا آل رسول الله ﷺ إلى الكوفة، محاطاً بالحرس وعملاء بني أمية، وشر طبقات البشر، وأرجس جميع الأمم.

(١) - ارتث : أي حُمِلَ من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رَمَقَ. أنظر : لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر : دار صادر، بيروت، ط ١ : ٢ / ١٥١.

(٢) - ذكر صاحب البحار في هامش : ١٠٨ / ٤٥ : (إن في المصدر المطبوع : في الصبر على ضرب السيوف وطعن الرماح. ثم قال : وروى مصنف كتاب المصاييح أن الحسن بن الحسن المثنى قتل بين يدي عمه الحسين عليه السلام في ذلك اليوم سبعة عشر نفساً وأصابه ثمانية عشر جراحة، فوقع فأخذ خاله أسماء بن خارجة فحمله إلى الكوفة وداواه حتى برء).
(٣) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ١٠٨ / ٤٥.

(٤) - السيدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام، مصدر سابق : ٢ / ١٤.

ويستمر حذيم الاسدي في روايته^(١)، يقول :
فأومأت زينب بنت علي بن أبي طالب ﷺ إلى الناس بالسكوت.

قال: (فلم آر خفرة — والله — أنطق منها).

الخَفَرُ: شدة الحياء، وامرأة خَفِرَة : حَيَّةٌ مُتَخَفِرَةٌ^(٢). يقال خَفِرَتِ المرأةُ :
استحييت، تَخَفَرُ خَفْراً، وهي خَفِرَةٌ. قال: ❖ زَانَهُنَّ الدَّلُّ والخَفَرُ ❖^(٣).
وفي تهذيب اللغة^(٤) : قال الليث : خفير القوم : مجيرهم الذي يكونون في
ضمانه، ما داموا في بلاده وهو يخفر القوم خفارة. قال : والخفارة : الذمة. وانتهاكها
: إخفار.

وفي الحديث : (من صلى الغداة فإنه في ذمة الله فلا يخفرن الله في ذمته)^(٥).
وقال زهير :

فأنكمو وقماً أخفروكم... لكاليياج مال به العباء

والخَفَرُ بالتحريك شدة الحياء تقول منه خَفِرَ بالكسر وخَفِرَتِ المرأةُ خَفْراً
وخَفَارَةً الأخيرة عن ابن الأعرابي فهي خَفِرَةٌ على الفعل ومُتَخَفِرَةٌ وخَفِيرٌ من نسوة

(١) - على ما نقله صاحب البحار : ٤٥ / ١٦٢ وما بعدها.

(٢) - العين، مصدر سابق : ١ / ٣٢٠.

(٣) - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق : عبد السلام محمد هارون،

دار الفكر، الطبعة : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م : ٢ / ٢٠٣.

(٤) - تهذيب اللغة، الأزهرى : ٢ / ٤٨٢.

(٥) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٨٥ / ١٣.

خَفَائِرَ وَمِخْفَارٍ عَلَى النَّسَبِ أَوْ الْكَثْرَةِ قَالَ : دَارٌ لِحَمَاءِ الْعِظَامِ مِخْفَارٌ . وَتَخَفَّرَتْ : اشْتَدَّ حَيَاؤُهَا^(١).

ولعل المعنى : احد احتمالين أو كلاهما، لانسجامهما مع واقع الحال :
الأول : أن يكون المقصود : (فلم أرَ امرأةً شديدة الحياء أنطق منها).
الثاني : أن يكون المقصود : (فلم أرَ مجيراً وحامياً لقوم أنطق منها).
إلا أن المعنى الأول هو الأرجح لقول الراوي بعد ذلك (كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين ..). وهنا عدة نتائج، منها :

الأولى/ أن المرأة الحفزة - على ما ورد في المعاني اللغوية - يمنعها حياؤها من أن يظهر صوتها فيسمعه أجنبي، فضلاً عن أن تخطب في مكان مزدحم بالأجانب..
فأي موقف مهول هذا الذي عاشته سليلة الدوحة الحمدية؟!،

الثانية/ إن الخطابة فن لا يقوى على أدائه إلا من مارسه وعرف أسرارها بحيث يؤثر في السامع ويؤدي غرضه، ومن لم يمارسه فإنه لا يقوى على التكلم كما ينبغي من الفصاحة والبلاغة، إلا أن راوي هذه الخطبة يقسم على أنه : (لم أرَ خفزة - والله - أنطق منها) أي : لم أرَ أقدر منها على التكلم ببلاغة وفصاحة، مع ما كانت عليه من شدة الحياء، والمعاناة، ولم تمارس الخطابة سابقاً. مما يؤكد أن أهل هذا البيت علمهم ليس كعلم غيرهم، ولعل هذا المعنى من ضمن المعاني التي أشار إليها الإمام السجاد عليه السلام عندما أراد من عمته أن تنهي خطبتها بعد أن حققت أغراضها وأهدافها بقوله : (اسكتي يا عمّة، فأنت بحمد الله عالمة غير معلّمة، وفهمّة غير مفهمّة).

الثالثة/ إن مما يزيد الأمر صعوبة إنها عليه السلام كانت تتكلم مع الأعداء والشامتين الذين يشعرون بزهو الانتصار والغلبة، وفي نفس الوقت ينظرون إليها بأنها الخاسر المغلوب. إلا أنها عليه السلام عرفت بحمكتها وحنكتها كيف تتعامل مع الموقف بحيث

(١) - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر، بيروت، ط ١ : ٤ / ٢٥٣.

جعلتهم من البداية يشعرون بالهزيمة في داخلهم، والندم على ما أقدموا عليه. فقد كانت عليها السلام تقف أمام سيل بشري، وفي جو مملوء بالهتافات والأصوات المرتفعة من الناس، وأصوات الأجراس المعلقة في أعناق الإبل، في بلدة إنتشر في جميع طرقها الآلاف من الشرطة كي يخنقوا كل صوت يرتفع ضد السلطة، ويراقبوا حركات الناس وسكناتهم بكل دقة، ويقضوا على كل إنتفاضة متوقعة.

وأكمل الراوي وصفه للسيدة زينب عليها السلام في ذلك الظرف العصيب، فقال :

(كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) .

ومن ذلك ندرك مدى البلاغة والفصاحة وقوة الإرادة والمنطق السليم الذي كانت تتمتع به السيدة زينب عليها السلام ، كما كان أبوها أمير المؤمنين عليه السلام .

ويمكن أن نضيف هنا بعض النتائج الأخرى، منها :

الأولى/ إن أهل هذا البيت يتوارثون العلم أبَّ عن جد، وأن نساءهم – في ذلك – كرجالهم، وصغارهم ككبارهم.

الثانية/ مضافاً إلى الفهم المشهور لكلام الراوي من أنها عليها السلام كانت في خطابها بليغة فصيحة تمتلك الحجة والبرهان كأبيها عليها السلام .. فإنه يمكن أن نحتمل أنها كانت كأبيها عندما يعبر عن غضبه لله من خلال كلامه، ولذلك شواهد كثيرة تضمنتها خطبه عليه السلام المنقولة عنه في نهج البلاغة، فهي كذلك في غضبها لله وانتقادها للطغاة والظالمين وأنها لا تأخذها – في ذلك – لومة لائم كأبيها عليه السلام .

وإجمالاً، فإن راوي هذه الخطبة كان ممن رأى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وسمع كلامه، وها هو الآن يستمع إلى كلام السيدة زينب عليها السلام ، وبالمقارنة بين الكلامين يظهر له أن خطبة السيدة زينب صورة طبق الأصل لكلام أبيها، من ناحية الأسلوب والبيان والمستوى والغلظة على أعداء الدين وفضحهم .. وغير ذلك.

الثالثة/ إنها عليها السلام كانت من أفصح العرب وأبلغهم بحيث قارنها الراوي مع فصاحة وبلاغة أبيها عليه السلام. وتجدر الإشارة إلى انه لا يقاس ببلاغة الإمام علي عليه السلام وفصاحته إلا من كان يصح فيه ذلك، ولم نرَ غير أهل بيته عليه السلام - ومنهم السيدة زينب عليها السلام - قد قيست بلاغته وفصاحته ببلاغة أمير المؤمنين عليه السلام وفصاحته عليه السلام، وهذا يقودنا إلى أمرين :

١/ إن أهل البيت عليه السلام هم أفصح وأبلغ العرب على الإطلاق. إذ لا يختلف اثنان على فصاحة وبلاغة أمير المؤمنين عليه السلام وشهرتها بين العرب، وإذا قيس به غيره يعني انه من الفصحاء والبلغاء أيضاً.. وكما ذكرنا انه لم يقس به احد غير أهل بيته.

٢/ إعادة النظر في معنى (أمية النبي - ص -) التي يرى أصحابها أنها بمعنى انه لا يعرف القراءة والكتابة، فمضافاً لما تقدم في الأمر الأول، كان عليه السلام حريصاً على أن يتعلم الذين لا يقرأون ولا يكتبون من المسلمين القراءة والكتابة حتى جعل فداء أسارى بدر من المشركين أن يعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، مع الحاجة الماسة إلى المال والسلاح في مثل تلك الظروف.. فكيف يمكن أن يكون هو عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب.

وفي ظني، أن أحد الاحتمالات التي يمكن احتمالها في المقام هو أن الأمية المقصودة - هنا - هي أميته عليه السلام في تفاصيل ما بُعث به، فيقال للجاهل بالشيء (أمي)، أي انه على علمه الأول في ذلك الشيء، والعلم الأول هو العلم الفطري الذي يكون عليه الشخص بعد خروجه من بطن أمه، فيقال (أمي) نسبة إلى أمه، لان الأم هي الأصل الذي يرجع إليه. ولو كان قد علمه شخص آخر لكان الذي علمه أفضل منه عليه السلام، وهذا باطل بالضرورة من جهتين :

الأولى/ إن ذلك يستلزم أن يكون الفاضل مفضولاً، وهذا جمع للنقيضين، وهو باطل بالضرورة.

الثانية/ إن ذلك يستلزم النقص فيه ﷺ، وهو باطل أيضاً، كما ثبت في محله.
كما إن القرآن الكريم قد شجب مثل هذا الاعتقاد بقوله تعالى : {وَلَقَدْ نَعْلَمُ
أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ
مُّبِينٌ} ^(١).

، وهو ﷺ كان يعلم به - أي القرآن الكريم - إجمالاً في مرحلة النزول
الدفعي للقران الكريم، إلا أن العلم التفصيلي كان في مرحلة النزول التدريجي. لذا
كان ﷺ لا يصدر الحكم إلا بعد انتظار ما ينزل من القران، ويتضح ذلك من التأمل
في أسباب النزول.

ويشهد لذلك قوله تعالى : {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ} ^(٢)، فالآية الكريمة تشير إلى أن الإتيان المطلوب منهم له يتعلق بما يبينه لهم
من الأحكام التي ينزلها المولى في الذكر الحكيم وقد اقترن ذلك بصفته ك (أمي).

وقوله تعالى : {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

(١) - النحل : ١٠٣.

(٢) - الأعراف : ١٥٧.

مُسْتَقِيمٍ^(١)، إذ يبدو من سياق الآية المباركة إن عدم علم النبي كان في خصوص ما أوحاه إليه ربه من الكتاب، وهو القرآن الكريم.
وقوله تعالى : { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }^(٢). وما شابهها من الآيات.

كما أن النبي قد محى بنفسه عبارة (رسول الله) من صحيفة صلح الحديبية وكتب بدلها (محمد بن عبد الله)^(٣)، وقد كان وصيه قارئاً كاتباً، أفلا يكون النبي كذلك ؟ والقول بخلاف ذلك يعني أفضلية المفضول وهو تناقض واضح.

مضافاً إلى أن الأمي بهذا المعنى – عدم القراءة والكتابة – لا ينسجم مع تحقق الإعجاز من خلال الفصاحة والبلاغة، لأن الأمية بهذا المعنى كانت متفشية في مجتمع المدينة على الأقل، لذا طلب النبي من أسارى المشركين أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين – كما تقدم –، ومع ذلك كانت الصفة العامة للمجتمع هي الفصاحة والبلاغة، فلو جاء شخص منهم بكلام فصيح بليغ فإن ذلك لا يعدّ إعجازاً من حيثية انه لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك تكلم بكلام فصيح بليغ.

وبتعبير آخر : إن الأمية – بهذا المعنى – ليس لها مدخلية بأن النبي ﷺ قد جاء بمعجزة القرآن الكريم كونه كلاماً فصيحاً بليغاً، فليس هو وحده ﷺ كان متصفاً بصفة الفصاحة والبلاغة مع كونه أمياً – بهذا المعنى – لكي يكون ميزة إعجازية له. وعليه : لا يكون الأمي، بهذا المعنى، قد جاء بمعجزة لو انه جاء بكلام بليغ فصيح، لأن الفصاحة والبلاغة كانت الصفة العامة للمجتمع رغم أنهم كانوا أميين { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ... }^(٤).

(١) - الشورى : ٥٢.

(٢) - طه : ١١٤.

(٣) - ينظر : الكامل في التاريخ، ابن الأثير : ١ / ٣١٣.

(٤) - الجمعة : ٢.

فإذا قيل : إن مجتمع المدينة المنورة وحده كان يتميز بصفة تفشي الأمية والجهل دون المجتمع المكي، وإن بداية نزول القرآن الكريم كانت في مكة ولسنوات عديدة. قلنا : يجاب عن ذلك بجوابين :

الأول : إن القرآن الكريم قد تحدى فصحاء وبلغاء العرب أينما كانوا، سواء في مكة أو المدينة أو في غيرهما، فالقرآن معجز في بلاغته وفصاحته سواء في نظر أهل المدينة أم أهل مكة، فعلى قولهم هذا يكون القرآن معجز في نظر المجتمع المكي دون المدني. وهذا مما لا يقول به أحد.

الثاني : إن الذين طلب النبي ﷺ من أسارى المشركين أن يعلموهم القراءة والكتابة هم من المهاجرين والأنصار، والمهاجرون كانوا من مكة وكانوا أميين من حيث القراءة والكتابة، وهذا يدل على أن الأمية - بهذا المعنى - كانت من صفات المجتمع المكي أيضاً، بل أن الله تعالى يؤكد هذه الحالة بقوله {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} ^(١). ومع ذلك كانت الصفة العامة للمجتمع هي البلاغة والفصاحة.

فإن قيل : إن الإعجاز في فصاحة القرآن وبلاغته كان مختصاً بمن كان متمتعاً بالفصاحة والبلاغة من العرب رغم قلتهم، ولم يكن تحدياً للمجتمع ككل. قلنا : إن هنا جوابين أيضاً :

الأول : إن ذلك مما لم يقل به أحد، بل أن الثابت أن الصفة العامة للمجتمع آنذاك هي الفصاحة والبلاغة.

الثاني : إن السنن فيما يتعلق بمعاجز الأنبياء هي أنها تكون متعلقة بالصفة البارزة في المجتمع بحيث تلفت انتباه الأغلب - إن لم يكن الكل - إليها ، فقد كانت

معجزة النبي موسى السحر ومعجزة النبي عيسى الطب، وهاتان الظاهرتان كانتا البارزتين في مجتمع كل منهما.

قال الراوي :

(وقد أشارت إلى الناس بأن أنصتوا، فارتدت الأنفاس، وسكنت الأجراس).

هذه الحالة تستحق التوقف والتأمل، فليس من الطبيعي أن يسيطر شخص على حركات وسكنات عشرات الآلاف بمجرد أن يقول لهم اسكتوا، ولوقت إلى أن ينهي المتكلم كلامه، إلا إذا قلنا بثبوت الولاية التكوينية لها ﷺ حينها - كما هو المشهور عن أهل الاختصاص -، فقد تصرف ﷺ في طبيعة متأصلة لدى الناس، بل وتصرفت في الحيوان والجماد أيضاً^(١)، لاسيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن المجتمعين كانوا من الأعداء والخونة والشامتين، وكان من الطبيعي أن يكثّر اللغظ حتى يمنعوها من الكلام وان يحتفلوا بالنصر ويشنعوا عليها.. إلا أن الذي حدث أن الأنفاس قد احتبست في صدور الناس، ووقفت الإبل وسكنت عن الحركة، وسكنت الأجراس المعلقة فوق الإبل.

نعم، كل ذلك كان بإشارة واحدة منها ﷺ، وهذا ما يدعوا إلى القول بأن مجرى الأحداث لم يكن طبيعياً، ومعنى هذا ثبوت الولاية التكوينية لها ﷺ. لذا اقتضى الأمر توضيح معنى الولاية التكوينية مختصراً.

(١) - فقد هدأت أصوات الإبل والخيول، وكذلك الأجراس المعلقة عليها.

الولاية التكوينية

لقد ورد في الذكر الحكيم أن رسل الله وأوليائه يستطيعون، بإذن الله تعالى، وبأمره ومشيئته - إذا اقتضى الأمر دفع مفسدة أو جلب مصلحة تنسجم مع تحقيق الهدف الإلهي من التكوين - أن يتدخلوا في عالم الخلق والتكوين، وأن يحدثوا ما يُعد خارقاً لما هو مألوف ضمن القوانين الطبيعية التي تحكم حياة الكون.

ولكي يدفع القرآن الكريم شبهة الشرك بالله تعالى، فقد أشار سبحانه إلى أن ذلك لا يعني أنهم يتصرفون في الكون بصورة مستقلة عنه وعن إرادته وعلمه وقدرته سبحانه، بل إنهم إنما يفعلون ذلك بأذنه ومشيئته، وبذلك يصح أن نقول إنه فعل الله تعالى ولكن بواسطتهم.

لذا نجد إن الأنبياء يكررون كلمة (بإذن الله) عندما يقومون بمثل هذه الأفعال، كما ينقل القرآن الكريم عن النبي عيسى عليه السلام، قال تعالى : { وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ }^(١)، كما انه تعالى قد كرر كلمة (بإذني) في الآيات المتعلقة بذلك أيضاً، ومنها قوله تعالى { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمُهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ^(١)، وذلك لكي يدفع شبهة أنهم يقومون بذلك على نحو الاستقلال عن الله تعالى فيكون شركاً. فيصح أن نسب صدور الفعل عنهم ﷺ كما يصح نسبته إليه تعالى لأنها تتم بإذنه وبالإستعانة بقدرته. وإنما وصل هؤلاء إلى هذا المقام بسبب مقدماتهم التي أهلتهم لذلك.

قال في تفسير الأمثل : (وما الولاية التكوينية إلا القول بأن الأنبياء والأئمة يستطيعون - إذا لزم الأمر - أن يتصرفوا في عالم الخلق بإذن الله. وهذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أي إدارة الناس وحكمهم ونشر قوانين الشريعة بينهم ودعوتهم إلى الله وهدايتهم إلى الصراط المستقيم. وبذلك يتضح جواب الذين ينكرون ولاية أهل الله التكوينية ويعتبرونها ضرباً من الشرك. فما من أحد يقول بأن للأنبياء والأئمة جهازاً للخلق مستقلاً في قبال الله. إنما هم يفعلون ما يفعلون بإذن الله وبأمر منه)^(٢).

وقد يقال : إن أكثر ما يمكن أن يقوم به الأنبياء هو الدعاء والتوسل إلى الله تعالى، وإن الفعل يصدر منه تعالى استجابة لدعائهم وليس لهم دور أكثر من ذلك. وجوابه : إن ظاهر الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع تشير بوضوح إلى أن الفعل نفسه يصدر عن الأنبياء، لا أنه يصدر عنه تعالى استجابة لدعائهم، وذلك واضح في قول عيسى ﷺ : (أَنْيَ أَخْلَقُ) لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ (فَأَنْفُخُ) فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً (وَأُبْرِئُ) الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ (وَأُحْيِي) الْمَوْتَى (وَأُنَبِّئُكُمْ) بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ.. فالملحوظ أن النبي عيسى ﷺ يعبر عن ذلك بضمير المتكلم. إلا أن ذلك لا يكون إلا بأذن الله تعالى.

(١) - المائدة : ١١٠.

(٢) - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٢ / ٥٠٨.

وبالجملة، فانه لا محذور من ثبوت الولاية التكوينية لبعض الناس إذا توفروا على مقدمات معينة وكان ذلك لضرورة معينة، بأذن الله تعالى، وما روي عن الوضع في الكوفة حين قالت السيدة زينب للناس أن أنصتوا فارتدت الأنفاس وسكنت الأجراس هو من هذا القبيل.

وقد يقال بأن ما ورد في الآيات السالفة يخص الأنبياء دون غيرهم. قلنا : إن إثبات ذلك للأنبياء لا ينفي ثبوته لغيرهم إذا ما كان تحقيق الهدف والغاية منوطاً بذلك - لاسيما للأئمة المعصومين عليهم السلام -.

نعم، ثبوتها للأنبياء هو القدر المتيقن من النصوص القرآنية، والهدف والغاية للأنبياء هو تبليغ الدين ونشره والدفاع عنه، فلا مانع من صدورهما من غيرهم إذا ما توفرت لديهم المؤهلات لذلك، وكانوا هم المكلفون بذلك، وكان تحقيق الهدف منوطاً بصدورها عنهم.

وبتعبير آخر: إن ثبوتها لغير الأنبياء والأئمة عليهم السلام يحتاج إلى إثبات توفر شروطها لديهم.

وعلى هذا ! هل كان هذا الأمر غير الطبيعي (الولاية التكوينية) صادراً عن السيدة زينب عليها السلام ، أم عن الإمام السجاد عليه السلام ؟

ذكرنا فيما سبق أنه يمكن ثبوت الولاية التكوينية للمخلصين من الناس إذا توفرت لديهم مقدماتها، مع وجود ضرورة دينية لذلك. ولكن القدر المتيقن من البعض الذين ثبتت لهم الولاية التكوينية كانوا من الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وهذا هو المستفاد مما ذكره صاحب تفسير الأمثل، كما نقلنا أعلاه.

لذا، أقول : يُحتمل إن الذي مارس الولاية التكوينية بعد أن أمرت السيدة زينب عليها السلام الناس الإنصات والسكوت هو الإمام السجاد عليه السلام الذي كان حاضراً في نفس الموقف.

وذلك يحدث كثيراً في زمن الأنبياء والمعصومين عليهم السلام بأن يفعل شخص فعلاً وبواسطة المعصوم يتحقق ما لا يمكن تحقيقه لو بقي الشخص وقدرته. ثم نقل الراوي خطبتها عليها السلام في أهل الكوفة، وهذا نصها على ما أورده صاحب البحار :

خطبة السيدة زينب عليها السلام في أهل الكوفة

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ عَلَى جَدِّي مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ. وفي رواية (على أبي).

أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهل الخثر والغدر والحدل. - وفي بعض الروايات وردت (أتبكون)^(١) - ألا فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الزفرة، إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلا الصلف ﴿والعجب﴾، والصدر الشنف [والكذب] وملق الإماء وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو [كفضة على ملحودة] كقصه على ملحودة ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون؟! أجل والله، فابكوا كثيراً وضحكوا قليلاً ﴿فإنكم والله أحق بالبكاء فابكوا كثيراً وضحكوا قليلاً﴾، فلقد ذهبتم [بليتم] بعارها، ومنيتم بشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ خيرتكم ﴿حربكم﴾، ومعاذ حزبكم، ومقر سلمكم، وأسي كلمكم، ومفزع نازلتكم،

والمرجع إليه عند مقاتلتكم، ومدره حججكم، ومنار محجتكم، ﴿ومدرة سنتكم﴾
 ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم وساء ما تزرون ليوم بعثكم فتعساً وتعساً ونكساً
 نكساً ﴿وبعداً لكم وسحقاً﴾، لقد خاب السعي، وتبت الأيدي وخسرت
 الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ﴿ويلكم يا أهل
 الكوفة﴾ أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟ وأي عهد نكثتم؟ وأي كريمة له
 أبرزتم؟ وأي حرمة له هتكتكم؟ وأي دم له سفكتكم؟ لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد
 السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، لقد جئتم بها شوهاء
 صلعاء عنقاء فقماء خرقاء، طلاع الأرض وملء السماء، أفعجبتكم [أن مطرت
 السماء دماً] أن لم تمطر السماء دماً؟ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون،
 فلا يستخفنكم المهل فإنه عز وجل من لا يحفزه البدار، ولا يخشى عليه فوت
 الثأر، كلا إن ربك لبالمرصاد.

ثم أنشأت تقول :

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم	ماذا صنعتكم وأنتم آخر الأمم؟
بأهل بيتي وأولادي ومكرمتي	منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان ذاك جزائي إذ نصحت	أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي
إني لأخشى عليكم أن يحل بكم	مثل العذاب الذي أودى على

ثم ولّت عنهم^(١).

وفيما يلي توضيح لما نوفق لتوضيحه من خطبتها العصماء عليها السلام :
 افتتحت السيدة زينب عليها السلام خطابها بقولها :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ).

وهنا نبين أمرين يتعلقان بما اعتاد عليه المؤمنون عند افتتاح كلامهم وخطاباتهم، وهو الحمد لله سبحانه، والصلاة على رسوله الكريم وآله الطاهرين عليهم السلام :

ف (الحمد) هو المدح مضافاً إلى المحبة والتعظيم، وبتعبير آخر هو وصف يوصف به المحمود بالكمال في الذات والوصف والفعل مع المحبة والتعظيم ؛ وبعبارة أخرى : إن المحمود بـ (الحمد) كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله ؛ ولا بد من قيد، وهو (المحبة والتعظيم) ؛ لذا فإن من يصف شخصاً بصفات جليلة تملقاً له لمصلحة معينة لا محبة فيه فهو يمدحه لا يحمده.

قال أهل العلم : لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم لا يسمى حمداً ؛ وإنما يسمى مدحاً ؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح ؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً ؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم ؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم ؛ ولكن حمداً لربنا عز وجل حمد محبة، وتعظيم ؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمد أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم^(١).

وحمد العبد لربه يدل على الاعتراف من العبد بعودة كل نعمة ورعاية إلى الله تعالى، وإلفات إلى حقيقة إنطلاق كل ما لدى الإنسان من المواهب من ذات الله تعالى، وأنه تعالى هو الدافع لكل النقم عنه. فقد ورد في الحديث الشريف : (...). فإذا قال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ : حَمَدَنِي عَبْدِي وَعَلِمَ أَنَّ

النعمَ التي له من عندي، وأنَّ البَلَايَا التي دَفَعْتُ عَنْهُ فَبِتَطَوُّلِي، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أَضِيفُ لَهُ إِلَى نِعَمِ الدُّنْيَا نِعَمَ الْآخِرَةِ، وَادْفَعُ عَنْهُ بَلَايَا الْآخِرَةِ كَمَا دَفَعْتُ عَنْهُ بَلَايَا الدُّنْيَا^(١).
والألف واللام في (الحمد) للاستغراق : أي استغراق جميع المحامد التي يتعسر أو يتعذر عدها، ومنه يُعلم انه تعالى محل جميع المحامد وأهل لها.

وقولها عَلَيْهَا : (الله) : (اللام) للاختصاص والاستحقاق ؛ ولفظ الجلالة (الله) اسم ربنا عز وجل ؛ لا يسمى به غيره ؛ ومعناه : المألوه. أي المعبود حباً، وتعظيماً^(٢)..

وقال في الكشف : " الحمد والمدح إخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها.

تقول : حمدت الرجل. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح^(٣)، قال :

أَفَادْتُكُمْ النِّعَمَاءَ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا
والحمد باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده)^(٤) ، وإنما جعله رأس

(١) - مسند الإمام الرضا عليه السلام، الشيخ عزيز الله عطاردي، الناشر : المؤتمر العالمي للإمام الرضا

عليه السلام، مؤسسة طبع ونشر آستان قدس الرضوي، ربيع الآخر ١٤٠٦ هـ : ٣ / ٣٠.

(٢) - تفسير القرآن، مصدر سابق : ٥ / ٢.

(٣) - يفتقر الحمد عن الشكر والامتنان بأن الشكر مقابل الكفران، وهو لا يكون إلا للإنعام والإحسان. والمدح يقابل الذم، ولا يعتبر أن يكون على الفعل الاختياري فضلاً عن كونه إحساناً. و (الحمد) : الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أي حينما يؤدي شخص عملاً طيباً عن وعي، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإننا نحمده ونثني عليه. و (المدح) هو الثناء بشكل عام، سواء كان لأمر اختياري أو غير اختياري، كمدحنا جوهرة ثمينة جميلة. ومفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص. أمّا مفهوم (الشكر) فأخص من الاثنين، ويقتصر على ما نبديه تجاه نعمة تغدق علينا من منعم عن اختيار.

(٤) - مجموعة ورام، ورام بن أبي فراس، مكتبة الفقيه، قم : ٢ / ١١٦.

الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخشاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبّه. والحمد نقيضه الذم والشكر نقيضه الكفران^(١).

وقال في الميزان : الحمد - على ما قيل - هو الثناء على الجميل الاختياري، والمدح أعم منه، يقال : حمدت فلاناً أو مدحته لكرمه. ويقال : مدحت اللؤلؤ على صفائه، ولا يقال : حمدته على صفائه. واللام فيه للجنس أو الاستغراق، والمآل هاهنا واحد. فهو تعالى جميل في أسمائه وجميل في أفعاله، وكل جميل منه. فقد بان أنه تعالى محمود على جميل أسمائه ومحمود على جميل أفعاله، وأنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان لله سبحانه حقيقة، لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه، فله سبحانه جنس الحمد وله سبحانه كل حمد^(٢).

وفي تفسير البيان : الحمد ضد اللوم، وهو لا يكون إلا على الفعل الاختياري الحسن، سواء أكان إحساناً للحامد أم لم يكن.. والألف واللام في كلمة الحمد للجنس، إذ لا عهد^(٣).

وينبغي الإشارة إلى أن طبيعة الحمد وجنسه تختص به تعالى^(٤)، وذلك لأن حسن الفعل وكماله ينشأ من حسن الفاعل وكماله، والله سبحانه هو الكامل المطلق الذي لا نقص فيه من جهة أبدأ، ففعله هو الفعل الكامل الذي لا نقص فيه أبدأ : {قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ..}^(٥). وأما غيره فلا يخلو عن نقيصة ذاتية، بل نقائص،

(١) - تفسير الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري : ١ / ٤.

(٢) - الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي : ١ / ٩.

(٣) - البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي : ٤٥٣.

(٤) - ينظر : المصدر نفسه : ٤٥٤.

(٥) - الإسراء : ٨٤.

فأفعاله لا محالة تكون كذلك. والفعل الحسن المحض يختص به سبحانه، ويمتنع صدوره من سواه، فهو المختص بالحمد ويمتنع أن يستحقه أحد سواه. وقد أشير إلى هذا بقوله : { الْحَمْدُ لِلَّهِ } ^(١).. وكلمة (الله) علم للذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال ^(٢).

وعلى هذا، يكون اكتفاء السيدة زينب عليها السلام في افتتاح خطبتها بقولها (الحمد لله) مستجمع لكل معاني الحمد، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : (فُقد لأبي بغلة، فقال : لئن ردها الله عليّ لأحمدنّه بمحامدٍ يرضاها، فما لبث أن جئ بها بسرجهما ولجامها، ولما استوى وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال : الحمد لله، ولم يزد، ثم قال : ما تركت ولا أبقيت شيئاً، جعلتُ جميع أنواع المحامد لله عز وجل، فما من حمد إلا وهو داخل فيما قلت) ^(٣). وعنه عليه السلام : (ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال : الحمد لله، إلا أدى شكرها) ^(٤).

ثم إن الثناء على الفعل الجميل قد يكون ناشئاً عن إدراك الحامد حسن ذات الفاعل وصفاته من دون نظر إلى إنعامه، أو الرغبة فيه، أو الرهبة منه. وقد يكون ناشئاً عن النظر إلى أحد هذه الأمور الثلاثة، فقد أشير إلى المنشأ الأول بجملة (الحمد لله)، فالحامد يحمده تعالى بما أنه مستحق للحمد في ذاته، وبما أنه مستجمع لجميع صفات الكمال منزّه عن جميع جهات النقص. وقد يكون الوجه هو بيان إن يوم الدين هو يوم ظهور العدل والفضل الإلهيين، وكلاهما جميل لا بد من حمده تعالى لأجله، فكما أن أفعاله في الدنيا من الخلق والتربية والإحسان كلها أفعال

(١) - الفاتحة : ٢.

(٢) - البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق : ٤٥٥.

(٣) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٢٨٩ / ٤٦.

(٤) - المصدر نفسه : ٣٢ / ٦٨.

جميلة يستحق عليها الحمد فكذلك أفعاله في الآخرة من العفو والغفران وإثابة المطيعين، وعقاب العاصين كلها أفعال جميلة يستوجب الحمد بها^(١).

وعلى ما تقدم، فإن السيدة زينب عليها السلام بافتتاحها كلامها بالحمد لربها قد عبرت عن علميتها بمضامين (الحمد) لله سبحانه بما لا يفقهه الطلقاء وأبناء الطلقاء. وهنا يمكن الإشارة إلى أن الحمد لرب العالمين يلفت النظر إلى أن نعم الله سبحانه محيطة بالإنسان، وهذا الأمر يبعث فينا حكم العقل من وجوب الشكر والثناء للمنعم، بل ويدفعنا إلى معرفة ذلك المنعم، لان الشكر له يتضمن معرفته لكي نؤدي له الشكر، وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف على ذاته المقدسة. وهذا ما يعتمد عليه علماء علم الكلام والعقائد تحت عنوان (وجوب شكر المنعم) في ذكر الأدلة على وجوب معرفة الخالق.

لقد حمدت السيدة زينب عليها السلام ربها فأجملت الثناء عليه، وصلت على النبي فأحسن ذكره، وكانت تلك البداية الرائعة بنبرات صوتها الواثق، إذ أثارت انتباه الجميع.

ثم أردفت (الحمد) بقولها عليها السلام :

وَالصَّلَاةَ عَلَى جَدِّي مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَطْهَارِ [الْأَخْيَارِ].
وفي رواية (على أبي).

أما فيما يتعلق بالصلاة على جدها رسول الله ﷺ، فهنا تشير مولاتنا السيدة زينب عليها السلام في هذا المحور من خطبتها إلى جزء من المسائل المهمة المتعلقة بشخص رسول الله ﷺ، منها :

إنها عليها السلام تشير بوصفها الرائع للنبي وآله الطيبين الأطهار إلى ميزة مهمة لهم عليهم الصلاة والسلام تتمثل بتطهيرهم عن الرجس، كما قال تعالى : { ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } ^(١)، ولتضع في اعتبار الذين قاموا بهذا الفعل الشنيع من آل أمية وأنصارهم هذه الحقيقة التي طالما حاولوا تشويهها وسترها بأكاذيبهم وتظليلهم.

ومنها : إن فضيلة الصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين في بداية الكلام وبعد الحمد والثناء على الله تعالى مباشرة، من الأمور التي أشير إليها في الكثير من الأحاديث الإسلامية. ويمكن أن نشير - هنا - إلى ملاحظتين جديرتين بالبيان :

الأولى/ إن ذلك أيضاً مما درج عليه المؤمنون - أعني الصلاة على نبينا وآله الأطهار عليهم السلام -، وقد ورد في فضل هذه الصلاة على النبي وآله الكرام عليهم السلام ما لا يتسع له المقام، إلا أننا سنشير باختصار إلى ما يتعلق بموضوع كلامنا، وهو افتتاح السيدة زينب عليها السلام خطابها - والخطاب عموماً - بالصلاة على محمد وآله الأطهار عليهم السلام، نذكر منه :

١/ إن الصلاة على محمد وآله تدفع عن قائلها العقاب والعذاب، وهي عليها السلام كانت في مقام احتمال تعرضها للعقاب والعذاب، فهو أمر وارد جداً وهي تفضح حقائق القوم وحكامهم بما لم يجرؤ عليه أحد غيرها.

فقد ورد : (وكان من عذابهم الشديد أنه كان فرعون يكلفهم عمل البناء والطين ويخاف أن يهربوا عن العمل، فأمر بتقييدهم، فكانوا ينقلون ذلك الطين على السلالم إلى السطوح، فربما سقط الواحد منهم فمات أو زمن ^(٢) ولا يحفلون بهم ^(٣))، إلى أن أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام، قل لهم : لا يبتدئون عملاً إلا بالصلاة

(١) - الأحزاب : ٣٣.

(٢) - زمن - بالميم المكسورة - : أصابته الزمانة وهي العاهة.

(٣) - لا يحفل : لا يبالى.

على محمد وآله الطيبين، ليخف عليهم، فكانوا يفعلون ذلك، فيخف عليهم. وأمر كل من سقط وزمن ممن نسي الصلاة على محمد وآله الطيبين أن يقولها على نفسه إن أمكنه - أي الصلاة على محمد وآله - أو يقال عليه إن لم يمكنه، فانه يقوم ولا يضره ذلك، ففعلوها، فسلموا^(١).

٢ / إنها عليه السلام استعاضت عن التسييح والتهليل والتكبير بالصلاة على النبي وآله، لان المقام لا يتسع للتطويل مخافة أن يقطعوا عليها كلامها، مضافاً إلى أن البلاغة تقتضي إيصال المعنى بأقصر الألفاظ وأجزئها. فقد ورد عن مولانا الرضا عليه السلام، قال : الصلاة على محمد وآله تعدل عند الله عز وجل التسييح والتهليل والتكبير^(٢).

٣ / إن الصلاة على محمد وآله تعصمها من النسيان كي تتمكن من قول ما تريد قوله، فقد ورد : (إن من نسي شيئاً إذا صلى على محمد وآله يذكره)^(٣). وورد : (فيما سأل الخضر الحسن بن علي عليه السلام : أخبرني عن الرجل كيف يذكر وينسى ؟ قال : إن قلب الرجل في حق، وعلى الحق طبق، فان صلى الرجل عند ذلك على محمد وآل محمد صلاة تامة انكشف ذلك الطبق عن ذلك الحق فأضاء القلب، وذكر الرجل ما كان نسي، وإن هو لم يصل على محمد وآل محمد أو نقص من الصلاة عليهم، انطبق ذلك الطبق على ذلك الحق فأظلم القلب، ونسي الرجل ما كان ذكره)^(٤).

(١) - التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام : ٦٤.

(٢) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٨٢ / ٩٦.

(٣) - مستدرک سفينة البحار، مصدر سابق : ٦ / ٣٦٧.

(٤) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٣٦ / ٤١٥.

٤/ إن خطابها ﷺ كان خالصاً لله تعالى، وأنها على بصيرة من أمرها، لا يداخلها شك فيما تقول، وهي تقصد ما تقول، والصلاة على محمد وآله تذهب بكل ما يخالف ذلك من النفاق وغيره، فقد ورد : (ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليّ، فإنّها تذهب بالنفاق)^(١).

هذا، مضافاً إلى الآثار العامة لتلك الصلاة والتي لا تختص بالخطيب أو المتكلم، وهي أكثر من أن تحصى.

الثانية/ إنها ﷺ ذكرت كلمة (جدي)، وهذا ما لا بد من الإشارة إليه هنا، وهو تعريفها نفسها الكريمة للسامعين من خلال تلك الصلاة، إذ قالت ﷺ : (والصلاة على جدي محمد وآله الطيبين الأطهار [الأخيار]، فعرفت نفسها لتلك الجماهير المتجمهرة بأنها بنت رسول الله ﷺ في قبال من حاربهم ونصب لهم العدا، فأرادت ﷺ بذلك أن توقض السامعين المنخدعين بالفكر الأموي من سنّتهم وتنبههم من غفلتهم.. فأبناء الأنبياء الذين تربوا في أحضان الوحي ونهلوا من مناهل الرسالة، ليسوا كأبناء الطلقاء الذين دخلوا الإسلام لا عن اعتقاد به، وإنما عن خوف ومصالح اقتضت ذلك، فراحوا يتربصون بالإسلام وأهله المكائد وينصبون لهم العدا.

والتعريف بالنفس أمر درج عليه من يكون في مقام التحدي أو طرف في نزاع أو صراع، ويظهر ذلك جلياً في ارتجاز كل من يبرز من أصحاب الحسين ﷺ إلى ساحة المعركة، فيرتجز ويعرف بنفسه. وأكثر ما يكون ذلك إذا ما كان الشخص على الحق ويمتلك الثقة العالية بإمكاناته وبنفسه، لذا لا تجد أيّاً من جيش عمر بن سعد قد ارتجز عند خروجه للقتال.

أما ما قد ورد في بعض الروايات^(١) من أنها عليها السلام قالت (أبي) بدل (جدي)، فهنا إشارة من السيدة زينب عليها السلام إلى حقيقة أخرى يؤكدتها القرآن الكريم، وهي إن الحفيدة تُعد بنتاً، كما إن الجد يُعد أباً، كما هو صريح آية المباهلة في قوله تعالى : { ... فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ... }^(٢). وفي آية أخرى صرح القرآن الكريم بأن الذرية تنسب إلى الجد من جهة الأم وإن كان بعيداً زماناً، كما نسب عيسى عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق أمه مريم العذراء عليها السلام، إذ قال تعالى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ }^(٣).

ومما يستفاد من هذا التعبير هو التأكيد على مسألة مهمة جداً، وهي مسألة بنوة أولاد السيدة فاطمة عليها السلام لرسول الله ﷺ.

فإن قيل : إنما نسب القرآن الكريم عيسى عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام من جهة أمه لعدم وجود أب له، ولو كان له أب لنسبه عن طريق أبيه.

قلنا : لو لم يصح نسبته إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق الأم لما ذكره فيمن نسبهم إليه أصلاً، وبما انه سبحانه قد نسب إليه فالنسبة صحيحة، وعدم وجود الأب لا يسوغ النسبة الخاطئة، بل يكون - حينئذٍ - عدم النسبة هو الأصح.

وثمة ملاحظة أخرى حول نسبة عيسى عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام، وهي إن الآية الكريمة نسبته إليه مع الفاصل الزمني البعيد، ووجود سلسلة طويلة من الآباء بينهما، فيكون نسبة من كان الفاصل الزمني بينهما أقصر ولم يوجد بينهما سلسلة من الآباء

(١) - ينظر : بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ١٠٩.

(٢) - آل عمران : ٦١.

(٣) - الأنعام : ٨٤ - ٨٦.

بالأولوية القطعية، فلا يوجد فاصل زمني بين الحسن والحسين وزينب عليها السلام وبين جدهم النبي ﷺ، كما لا يوجد آباء وأمهات بينهم وبين جدهم إلا أمهم الزهراء عليها السلام، فتكون صحة نسبتهم إليه ﷺ أولى.

وعلى العموم، فهي عليها السلام - بهذه الجملة - عرفت نفسها للحاضرين أنها حفيدة رسول الله سيد المرسلين ﷺ وابنته، كي يعرف الحاضرون أن هذه العائلة المسببة للأسيرة هي من ذراري رسول الله ﷺ، لا من بلاد الكفر والشرك.

ولكن ! بماذا تختلف شخصية الرسول ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام عن الآخرين ؟

الحقيقة هي أن ما يتوفر عليه الأنبياء والأئمة من ميزات ومواهب تنقسم إلى قسمين، فمنها ما هو ذاتي، ومنها ما هو مكتسب، وهذا الأمر ينفع في الإجابة عن عدة تساؤلات مهمة.

إن الله تعالى الذي أرسل رسوله الكريم وحمله أعباء تلك الرسالة العظيمة قد هيئه تهيئة خاصة وأعدّه إعداداً خاصاً ومنحه استعدادات ذاتية معينة، وهذا أمر طبيعي من أجل تحقيق الغرض من الرسالة التي أرسل بها، وإن خلاف ذلك يكون نقض للغرض، فيكون عبث وخلاف الحكمة، وقد ثبت في محله إن الله تعالى حكيم ليس في ساحته عبث، مع ملاحظة أنه ﷻ كان مستحقاً لتلك الاستعدادات الذاتية التي منحها له الله تعالى، وقادراً على تحملها.

وقد ذكر أهل الاختصاص بعض هذه الاستعدادات الذاتية التي منحها إياه الله تعالى، منها : جوهرًا ممتازًا، ذكاء متوقداً، إرادة حديدية، عزماً راسخاً، علماً وفيراً، وتشخيصاً صائباً.

ومع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً في توضيح معنى الجبر، فإن هذه الخصائص والاستعدادات الذاتية للرسول ﷺ لم تسلب منه الإرادة والاختيار، لان القول بذلك يترتب عليه النتائج الباطلة المتقدمة. بمعنى أنه ﷺ أيضاً له القدرة على فعل

المعصية أو تركها شأنه في ذلك شأن جميع الناس، ولكنه باختياره لا يرتكبها، وهذا ما يميزه عن غيره، بل لا يفكر في ارتكابها، وليس الأمر مستحيلاً كما توهم المعارضون لنظرية أتباع مدرسة أهل البيت في العصمة، لأن عدم التفكير في فعل بعض الأمور موجود عند جميع العقلاء، فمن منا - مثلاً - فكر متى سيشرب كأساً من النجاسة، أو جرعة من السم الزعاف، أو فكر انه سيعرض نفسه للدغة أفعى سامة، أو يغمس نفسه في حوض من حامض الكبريتيك (التيزاب) ليرى نتائج ذلك على جسده مثلاً؟؟

فإذا كان الجواب أن لا احد من العقلاء يفكر بذلك، فإنه سيوضح إن الأمر ليس مستحيلاً، بل هو مما درج عليه العقلاء في تصرفاتهم.

إذا اتضح ذلك، فإن النبي ﷺ يرى خطر المعصية كخطر النجاسة والسم ولدغة الأفعى، فيكون من الطبيعي جداً أن لا يفكر مجرد تفكير في فعل المعصية، وهو يتمتع بنفس هذه الحالة بالنسبة لجميع المعاصي، وما ذلك إلا نتيجة لما بلغه مثل هذا الشخص بالمعرفة بالله تعالى، وهذا هو معنى العصمة فيما يتعلق بارتكاب الذنوب والمعاصي.

وما قلناه فيما يتعلق بالنبي ﷺ يقال في شأن المعصومين من الأنبياء والأئمة الطاهرين ﷺ من إمكان توفرهم على استعدادات ذاتية معينة تنسجم مع الغرض والدور الذي سيقومون بتأديته باعتبار أن دورهم مكمل لدور النبي من حيثيات عديدة، ليس هنا محل الكلام عنها.

وعلى ما تقدم، فإن المميزات والاستعدادات الذاتية لدى الشخص تكون متناسبة ومتناسقة مع الدور الذي يؤديه الشخص وأهميته وخطورته في عالم التكوين، وبما أن الكل مكلف بأداء دوره في الدفاع عن الدين والحفاظ على جوهره، إذن.. فالكل لديه مثل تلك الاستعدادات، وإن كانت متفاوتة من شخص لآخر لسبب يتعلق بذلك الشخص نفسه.

إن الله يعلم بثقل الرسالة التي ستلقى على عاتق النبي ﷺ لذا اختار من عباده من كان جوهره بهذا المستوى العالي الرفيع.

وهكذا الأمر مع من يكمل دور النبي ومن يدافع عن مكتسبات النبي، والسيدة زينب عياها السلام منهم، فلا يخفى أهمية وخطورة الدور الذي تحملته السيدة زينب عياها السلام وأدته على أكمل وجه، مما يقودنا إلى القول أنها عياها السلام كانت تتمتع باستعدادات ذاتية على درجة عالية تتناسب مع ذلك الدور المهم والخطير، وكما قلنا بأن ذلك نتيجة لما بلغه المتصف بهذه الاستعدادات من المعرفة بالله تعالى والطاعة له، وهذا يدل على مدى معرفتها بالله تعالى وطاعتها له.

(أَمَّا بَعْدُ : يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ).

وحينما رأت ابنة الرسول ﷺ الجموع الغفيرة التي ملأت الشوارع والأزقة، وقد أحاطت بها، اندفعت إلى إكمال مشروعها الكبير لبلورة الرأي العام، وإظهار المصيبة الكبرى التي داهمت العالم الإسلامي بقتل ريحانة رسول الله ﷺ وتحميل الكوفيين مسؤولية هذه الجريمة النكراء، فهم الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه من نصرة الإمام الحسين عياها السلام والذب عنه، ولكنهم خسروا ذلك وقتلوه ثم راحوا ينوحون ويبيكون، كأنهم لم يقترفوا هذا الإثم العظيم.

إن إلقاءها عياها السلام خطابها بهذه الصيغة، وقولها : (يا أهل الكوفة) يقودنا إلى نتائج مهمة ويدفع إشكالات عديدة، ويلزمننا بيان عدة أمور، نذكر المهم منها فيما يلي :

خصائص أهل الكوفة

اشتهر أهل الكوفة تاريخياً بصفات ذميمة، كالغدر ونقض العهد، وقد ذكر الباحثون إن من جملة الخصائص النفسية والخلقية التي اتصف بها أهل الكوفة، هي: تناقض السلوك، والتحايل والتلون، والتمرد على الولاة، والانتهازية، وسوء الخلق، والحرص والطمع، وتصديق الإشاعات، والميول القبليّة، إضافة إلى أنهم يتألفون من قبائل مختلفة^(١).

وقد أدت كل هذه الأسباب إلى أن يعاني منهم الإمام علي عليه السلام الأمرين، وواجه الإمام الحسن عليه السلام منهم الغدر، وقُتل بينهم مسلم بن عقيل مظلوماً، وقتل الحسين عطشاناً في كربلاء قرب الكوفة وعلى يد جيش الكوفة.

هذا، مضافاً إلى أن التركيبة السكانية لهذه المدينة لم تكن متجانسة، فبالإضافة إلى سكانها الأصليين فقد سكنتها قبائل من اليمن مثل : قضاعة، وغسان، وبُجيلة، وخثعم، وكندة، وحضرموت، والأزد، ومذحج، وحَمير، وهمدان، والنخع.. بعد بنائها على يد سعد ابن أبي وقاص، وصارت لهم قوة ونفوذ واسع، وكان يسكنها أيضاً أقوام من فارس.

وقد أدت هذه العوامل إلى إيجاد ميول مختلفة لدى الناس المقيمين فيها، كما كان ولاة الأمويين فيها يدعون الناس لمناصرة بني أمية والانقياد لهم، مما نتج عنه تكريس سلطة الأمويين فيها.

ولم يكن جميع سكان الكوفة من الشيعة، ومن كان فيها من الشيعة كان يتسم بالعاطفة والخطب الحماسية والمشاعر الفياضة تجاه عترة الرسول ﷺ أكثر من تمسكهم بالخط العقائدي والعملي لآل البيت، والنزول إلى ساحة المواجهة والتضحية.

(١) - ينظر : حياة الإمام الحسين عليه السلام، مصدر سابق : ٢ / ٤٢٠.

كانت هذه هي الصبغة العامة لأهل الكوفة، مضافاً إلى الدور الذي لعبته قسوة الأمويين في تحجيم مناصرة شيعة الكوفة للحسين بن علي عليه السلام، ذلك الدور الذي وجد الأرضية المناسبة في نفوس هؤلاء القوم، فكان ذلك من أسباب نجاح الأمويين في السيطرة على مقدرات الناس فيها. ومع ذلك، فإنه لا يمكن التغاضي عن تخاذلهم وغدرهم بأهل البيت عليه السلام على مر الزمن، حتى أن جماعة منهم ممن كان مع جيش عمر بن سعد لعنه الله، لما رأوا الحسين وأنصاره يُقتلون الواحد تلو الآخر، كانوا سيكون ويستهلون إلى الله أن ينصره، فصاح بهم أحدهم : (هلاً تهبون لنصرته بدل هذا الدعاء)^(١).

ومما ساعد على تفاقم هذا الوضع وتأليب الناس ضد الحسين عليه السلام هو تولية ابن مرجانة على الكوفة وجعله على رأس السلطة فيها، وإحكامه القبضة عليها، وهو المعروف بحقده وبغضه ضد أهل البيت عليه السلام وأتباعهم، وقسوته على الناس، مما ساهم كثيراً في تغيير الأوضاع أثناء وجود مسلم بن عقيل فيها. وعلى كل حال فإن تاريخ الإسلام لا يحمل نظرة طيبة عن عهد والتزام أهل الكوفة^(٢).

تأثير زينب عليها السلام والسبايا في أهل الكوفة

يبدو إن الهدف الأساس للسلطة الأموية من التشهير بسبايا أهل البيت – مضافاً إلى حقدهم الدفين – هو إرهاب الناس، كي لا يفكر أحد في معارضة السلطة، وكشف زيف النهج التضليلي المتمثل بتعبئة الجمهور في الكوفة ضد الإمام الحسين وثورته باعتباره خارجي خرج على (الخليفة) قد شق عصا المسلمين طمعاً في السلطة والحكم.

(١) - المصدر نفسه : ٢ / ٤٤٢.

(٢) - لمعرفة المزيد ينظر : تاريخ الكوفة، السيد حسين البراقبي : ١٣٩.

لكن حكمة الإمام الحسين بحمله النساء والأطفال معه جعلت السحر ينقلب على الساحر - كما يعبرون - ، فالحالة المأساوية للسبايا والتي كانت تثير مشاعر التعاطف معهم ، والدور الرسالي الذي قامت به السيدة زينب من خلال الإعلام الواعي للثورة الحسينية ، وكذلك دور الإمام زين العابدين عليه السلام ، وبعض نساء العائلة الحسينية كأم كلثوم وفاطمة بنت الحسين.. كل ذلك أفشل مخطط السلطة ، بل وجعل آثاره ونتائجه معكوسة ، حيث تأججت روح الثورة والرفض في أوساط الجماهير المسلمة ضد السلطة ، وتعاطف الناس مع أهل البيت عليهم السلام .

ففي الكوفة ينقل لنا التاريخ بعض الأحداث والمشاهد الرافضة لسياسات السلطة الأموية والمتعاطفة مع أهل البيت على إثر دخول السبايا. وقد تحدث راوي خطاب السيدة زينب عن تأثير خطابها على الناس - كما سيأتي بإذن الله - .

لماذا الكوفة ؟

لاختيار الإمام الحسين عليه السلام المسير بأهل بيته وأصحابه إلى الكوفة دون غيرها من الأمصار - مع ما بذله الناصحون له من جهد عن ثنيه عن التوجه إليها والعدول إلى غيرها ، ومع ما يعرفه هو عليه السلام عن غدر أهلها وخذلانهم لأهل البيت عليهم السلام - أسبابه الظاهرة المعروفة ، ويحتمل أن تكون هناك أسباب خفية يمكن أن نختل بها وجودها باستقراء مسار الأحداث التي سبقت الواقعة .

فمن أهم الأسباب الظاهرية المعروفة لاختيار الإمام عليه السلام التوجه إلى الكوفة دون غيرها ، هو ورود الآلاف من كتب أهل الكوفة^(١) يدعون الإمام الحسين إليهم ويعدونه بالنصرة والتضحية بين يديه وخذلان الطاغية يزيد وأميره على الكوفة ، ومن هؤلاء الذين وردت أسماؤهم في الكتب كبار قواد جيش الكوفة ، فقد كتبوا

(١) - بلغ عدد كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام اثني عشر ألف كتاب : ينظر : بحار الأنوار ، مصدر سابق : (وتواترت الكتب حتى اجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب) : ٣٣٤ / ٤٤ .

إلى الإمام الحسين بأن يأتي إليهم في الكوفة، ووعدوه بالنصر حتى لو آل الأمر إلى القتل والقتال، وإلى التضحية ببذل دمائهم وأرواحهم، وختموا رسائلهم بتوقعاتهم وأسمائهم الصريحة إلى درجة أن البعض منهم أعطى لنفسه الجرأة في أن يكتب إلى الإمام الحسين عليه السلام هذه الكلمات : إن لم تأتنا فسوف نخاصمك غداً يوم القيامة عند جدك رسول الله !! وقد أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك عندما خطب في جيش عمر بن سعد يوم عاشوراء، إذ قال : (.. يا شيث بن ربعي، يا حجار بن أبحر، يا قيس بن الأشعث، يا يزيد بن الحارث ! ألم تكتبوا إلي أن قد أئبعت الثمار، واخضر الجنب، وإنما تقدم على جند لك مجندة ؟. فقال له قيس بن الأشعث : ما ندري ما تقول، ولكن انزل على حكم بني عمك، فإنهم لن يروك إلا ما تحب، فقال لهم الحسين عليه السلام : لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد..^(١)، وقوله عليه السلام : (تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أفحين استصرختمونا ولهين متحيرين فأصرختكم مؤدين مستعدين، سللتم علينا سيفاً في رقابنا، وحششتم علينا نار الفتن خباها عدوكم وعدونا..)^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن كتب أهل الكوفة لم تكن السبب في خروج الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد وحكومته الجائرة، بل إن تلك الكتب كانت احد الأسباب المهمة في اختيار الكوفة وجهة له عليه السلام، لأن أهل الكوفة كاتبوه بعد أن علموا برفضه مبايعة يزيد وإصراره على ذلك وتحمل جميع النتائج المترتبة عليه.

ولكن ! هل كان أهل الكوفة الوحيدون الذين كتبوا إلى الإمام

الحسين عليه السلام ؟

يبدو من خلال ما ذكره بعض الباحثين انه لم يكن أهل الكوفة الوحيدون الذين كتبوا إلى الإمام الحسين عليه السلام يدعونه إلى القدوم إليهم ومبايعته ونصرته، بل

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٧ / ٤٥.

(٢) - المصدر نفسه : ٨ / ٤٥.

كانت هناك كتب أخرى من بعض الأمصار الأخرى كالْبصرة واليمن، يدعو أهلها إلى القدوم إليهم، إلا أن كثرة كتب أهل الكوفة جعلت الإمام يقدمها على غيرها، مضافاً إلى الأسباب المعروفة الأخرى.

ولكن ! لماذا لم يستجب الأئمة الآخرون عليهم السلام للذين كاتبوهم كما استجاب الإمام الحسين عليه السلام ؟

لكل من الأئمة المعصومين عليهم السلام دوره في الحفاظ على مكتسبات الرسالة الإسلامية التي جاء بها النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله، فتجد أن الأدوار تختلف في فترة زمنية قصيرة، فهم حراس الدين وحماته. لذا، فليس من الضروري أن يتصرف جميع المعصومين التصرف نفسه، فلو افترضنا أن أحد المعصومين عليه السلام قد وصلته كتب من بعض المدن والأمصار فهل كان عليه أن يستجيب كما استجاب الإمام الحسين لكتب أهل الكوفة.

والذي دعانا إلى طرح مثل هذا الأمر هو بعض الشبه التي ذكرت فيما يتعلق بوصول كتب إلى الإمام الصادق عليه السلام والتي كانت تدعوه للثورة، ولكنه لم يستجب لتلك الكتب.

فلماذا لم يستجب الإمام الصادق لتلك الكتب كما استجاب الإمام الحسين لرسائل أهل الكوفة ؟

يجاب عن ذلك : إن هناك تهويلاً للموضوع، فلم تصل للإمام الصادق عليه السلام - على ما هو المعروف - سوى رسالتين فقط، الأولى من أبي مسلم الخراساني، والثانية من أبي سلمة الخلال. وكل من هذين الرجلين لا يمكن الاستجابة له من قبل الإمام، وذلك لما بينه الإمام نفسه.

أما الرسالة الأولى فأجاب عنها الإمام الصادق عليه السلام بقوله : " إنَّ أبا مسلم ليس من رجالي ولا الزمان زماني"^(١). ذلك أن أبا مسلم هو أحد قادة بني العباس وليس له تفكير جدي في نصرة الدين، وإنما كان تفكيره تفكير سياسي أو مصلحي، هذا فيما لو كان جاداً في دعوته للإمام عليه السلام. " وقد كان بعثه لهذا الشأن كل من إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور، وقد حقق لهم انتصارات كثيرة في خراسان قبل أن يبعث إلى الإمام بهذه الرسالة "^(٢). لذا، فإن دعوته لم تلق قبولاً، بل ولا اهتماماً من الإمام عليه السلام، بل إن الإمام يعلم إن هذا الأمر لن يكون في هذا الوقت حتى لو كان الذي كاتب الإمام من أصحابه وثقاته، والى ذلك أشار الإمام بقوله (ولا الزمان زماني).

" على أنه يمكن تأكيد الفقرة الأولى من جواب الإمام الصادق عليه السلام من ملاحظة سيرة الرجل الذاتية، فقد ذكر المؤرخون أنه كان رجلاً فاسقاً سفاحاً يقتل على الظنة والتهمة، وقد أحصى عليه المؤرخون ستة آلاف قتيل هذا والأمر لم يصف لهم بعد ! "^(٣).

وأما الرسالة الثانية فقد كان رفض الإمام عليه السلام لها أبلغ وأوضح، إذ قام بحرقها. ويبدو أن الإمام قد علم بأن هذه محاولة يائسة من هذا المنافق بعد أن فقد السيطرة على الوضع فراح يطلب الأنصار من هنا وهناك، إذ بعث برسائل مماثلة إلى أشخاص آخرين غير الإمام الصادق عليه السلام، وفات أبو سلمة أن الإمام الصادق ليس من هذه النماذج التي تكون تصرفاتها غير مدروسة. وبالفعل، فقد قُتل أبو سلمة خلال قبل أن تحقق له رسائله فائدة تذكر.

(١) - تساؤلات حول النهضة الحسينية، محمد صنفور : ٧

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) - المصدر نفسه : ٨.

" ومقتله كما يقول المؤرخون كان بتدبير من أبي مسلم الخراساني (صاحب الرسالة الأولى)، حيث كان بينهما تحاسد وتنافس على المناصب العسكرية والسياسية، حيث كانا من القادة العباسيين وكان لهما دور بالغ الأهمية في توطئة الأمر لبني العباس في خراسان والعراق" (١).

ويبدو أن سبب مقتله هو نفس تلك الرسائل والكتب التي بعث بها إلى الإمام الصادق عليه السلام وغيره، إذ علم به بعض الحاسدين والمنافسين له، فوشى به عند بني العباس فقتلوه.

هذا مع التأكيد على أن ما كان يمنع أهل البيت عليهم السلام من القيام والذي يمثل السبب الرئيسي هو عدم وجود الأنصار بالمعنى الذي يحقق غرض الإمام من القيام، وقد أكد الإمام الصادق عليه السلام نفسه مراراً على هذا الأمر، كما أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد أشار إليه أيضاً، وكان هذا السبب نفسه الذي أقعد الإمام الحسن عليه السلام، وهو نفسه أحد أهم أسباب الظهور المبارك للإمام الحجة محمد بن الحسن المهدي عليه السلام.

ولكن ! هل كانت كتب أهل الكوفة جزء من المخطط الأموي لقتل الإمام الحسين عليه السلام.

لقد كشفت الأحاديث الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأmir المؤمنين والإمام الحسين عليه السلام عن أن يزيد قاتله لا محالة مادام لا يبايعه، ومن الطبيعي أن يسلك يزيد مختلف السبل التي تحقق له هذه الغاية وتسهلها بأقل الخسائر وبأيسر جهد ممكن. فيحتمل أن الأمويين - وبطريقة ما - قد غرروا بأهل الكوفة، لاسيما الخوارج وأبنائهم والمؤيدين لهم، في الكتابة إلى الإمام الحسين عليه السلام، أو أنهم كتبوا تلك الكتب بواسطة جلاوزتهم دون علم أهل الكوفة بذلك من أجل تحقيق غرضهم،

وهو استقدام الإمام الحسين وأنصاره إلى العراق. لذا يُحتمل أن يكون يزيد، وبمساعدة مستشاريه قد اختاروا أن يكون قتل الإمام ومن ينصره في صحراء العراق تحديداً، إذ لو كان الحسين قد توجه إلى اليمن أو مصر أو بقي في الحجاز لكن ذلك مما يعقد الأمور عليهم.

ومما يؤيد احتمال اختيار ارض العراق من قبل يزيد ومستشاريه عدة أمور، منها :

١/ قرب أرض العراق من الشام عاصمة الخلافة الأموية، وذلك يسهل لهم متابعة الأحداث وسرعة وصول الأوامر والتعليمات إلى أتباعهم وجلاوزتهم، وتختصر عليهم الخسائر والإنفاق الذي سيكون اكبر مما لو كان في مكان أبعد. ولو علم يزيد وأتباعه إن الحسين يمكن أن يأتي إلى الشام لاستقدموه، ولكن لا يمكن ذلك بطبيعة الحال، فكانت ارض العراق هي الخيار الأمثل.

٢/ طبيعة الأرض المنبسطة التي يسهل فيها السيطرة على الجيش المقابل، ومراقبة تحركاته، بخلاف غيرها من المناطق التي يمكن أن تمنح فرصة للإمام الحسين عليه السلام بالنجاة، ما دام الأمويون قد قرروا قتل الإمام.

٣/ سهولة منع وصول الإمدادات إلى الحسين وأنصاره، وذلك لسهولة مراقبة المنطقة، على العكس مما لو كان في جبال اليمن أو الحجاز أو غيرها، وقد حدث ذلك فعلاً عندما طلب حبيب بن مظاهر من الإمام الحسين أن يذهب فيستنصر أبناء عمومته، فتمكن أنصار يزيد من منعهم من الوصول إلى الإمام الحسين عليه السلام.

٤/ الخصائص الذميمة من النفاق والجبن والضعف التي كان يتصف بها أهل الكوفة - وقد تقدم بيان ذلك -، والتركيبية غير المتجانسة لسكان الكوفة، لاسيما أن

فيهم من يطلب الثأر للخوارج، وقد علم الأمويون مواقفهم مع أمير المؤمنين عليه السلام وابنه الإمام الحسن عليه السلام. وبتعبير آخر: إنهم كانوا يعلمون بضعف التشيع عند شيعة أهل الكوفة، وقد تقدم أن جماعة منهم لما رأوا الحسين وأنصاره يقتلون الواحد تلو الآخر، كانوا ييكون ويستهلون إلى الله أن ينصره فصاح بهم أحدهم: (هلاً تهبون لنصرته بدل هذا الدعاء)^(١).

ومما يؤيد إن الأمويين قد غرروا بأهل الكوفة في الكتابة إلى الإمام الحسين عليه السلام، وأن كتب أهل الكوفة كانت مكيدة وجزء من مخطط قتل الإمام في ارض العراق أمور، منها:

١/ إن البعض من أهل الكوفة كان يعتقد بأن الإمام الحسين عليه السلام رجل خارجي، ويتضح ذلك من رواية مسلم الجصاص المتقدمة. وهذا النوع من الناس يعتقد بوجوب قتل الحسين لما تمليه عليه عقيدته، فيمكن أن يكون أصحاب مثل هذا الاعتقاد ضمن المخطط لقتل الإمام.

٢/ إن تلك الكتب كانت بعد خروج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة رافضاً بيعة يزيد، فيحتمل أن الأمويين قد استبقوا الموقف قبل أن يقرر الإمام التوجه إلى اليمن أو غيرها من المناطق الجبلية البعيدة التي تزيد الأمر صعوبة عليهم في تنفيذ مخططاتهم، لاسيما بعد أن (نصحه) البعض بعدم الخروج إلى العراق والذهاب إلى اليمن لوجود الأنصار فيها وطبيعة أرضها التي يمكن أن تحميه منهم.

٣/ كثرة كتب أهل الكوفة التي وصلت إلى الإمام الحسين عليه السلام، فيحتمل أن ذلك كان لإقناع الإمام بكثرة الأنصار له في العراق - حسب تفكيرهم - دون غيره من الأمصار، ولتمثل تلك الكثرة حجة على الإمام فلا يغض النظر عنها.

٤/ إن الإمام الحسين عليه السلام قد خاطب بعضهم فقط بذلك يوم عاشوراء، ولم يوجه الخطاب إلى أهل الكوفة كما فعل في غيره من خطابات عليه السلام، إذ قال عليه السلام :
(.. يا شعث بن ربيعي، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا يزيد بن الحارث ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار، واخضر الجنب، وإنما تقدم على جندك مجندة؟) ^(١).

لا يقال إن الإمام الحسين قد خاطب قوادهم وكبرائهم وهذا يكفي، لأن الإمام عليه السلام في مقام إلقاء الحجة على الكل، فكان الأوفق بمقتضى الحال أن يخاطبهم الإمام بعبارة (يا أهل الكوفة) أو ما يماثلها مما يدل على أن أهل الكوفة هم الذين كتبوا تلك الكتب، لا أن يخاطب أشخاص بعدد أصابع اليد الواحدة منهم.
وبتعبير آخر: إن الإمام الحسين عليه السلام لم يحتج على أهل الكوفة بتلك الكتب، بل احتج على القلة القليلة منهم، كما أن السيدة زينب عليها السلام لم تحتج بذلك أيضاً في خطبتها في الكوفة، ولا الإمام السجاد عليه السلام، ولا جميع من خطب منهم.

ولكن ! هل يعني ذلك إن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعلم بتلك المكيدة ؟

لا ينبغي الشك في أن الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم بهذه المكيدة، ولكنه عليه السلام دأب على تنقية ثورته الإصلاحية المباركة من جميع الشوائب التي قد يستغلها المتصيدون في الماء العكر فيما بعد، فيثيرون الشبه والإشكالات عنها، لأن أمثال هؤلاء يرون الظاهر فقط، فلو لم يستجب الإمام لأهل الكوفة وتوجه إلى مكان آخر – ما دام لابد له أن يخرج من مكة – للامه المستشكلون، ولربما قالوا عنه انه رجل باحث عن السلطة وما إلى ذلك.. ولعل المستشارين الخافين بيزيد قد أدركوا تلك الحقيقة.

(١) - كلمات الإمام الحسين عليه السلام، مصدر سابق : ١٣.

كما أن ذلك لا يعني أن الحسين عليه السلام لم يخطط لخيار آخر لو تبين أن الخيار الأول ليس متاحاً، فإن ذلك هو شأن العقلاء في معالجة القضايا فهم يضعون لكل ظرف محتمل خياراً مناسباً بنظرهم حتى لا تفاجئهم الظروف بما لم يتوقعوه فتلبس عليهم الحلول، لذا عرض عليهم الإمام عليه السلام أن يعود من حيث أتى، أو يذهب في ارض الله الواسعة..

وعليه ! فهل أن الشيعة هم من قتل الحسين عليه السلام وسبوا عياله ؟!!

من جملة النتائج التي يمكن أن تترتب على عبارة السيدة زينب عليها السلام بقولها : (يا أهل الكوفة) هو أنها تمثل جزء من الإجابة عن بعض التساؤلات التي روج لها المناوئون لشيعة أهل البيت عليهم السلام ومن ذلك شبهة أن الشيعة هم من قتل الحسين عليه السلام. ومنشأ هذا القول هو قياسات تاريخية ومعاصرة، جميعها باطلة.

فهل إن الشيعة هم الذين قتلوا الإمام الحسين ؟
ولكي يتضح الجواب لابد من بيان أمور، منها :

أولاً/ لابد من معرفة المقصود بالتشيع بالمعنى الذي يقصده أتباع أهل البيت عليهم السلام، فإن لمفهوم التشيع معنى واضحاً ومحددًا، ولم يكن هذا المفهوم ينطبق على أي شخص ممن شارك في قتال الإمام الحسين عليه السلام، فضلاً عن دعوى أن كل من شارك في قتله كان من الشيعة.

إن مثل هذا القول يعد ضمن المخطط الذي وُضع لتضليل الرأي العام من أجل تبرئة ساحتهم من هذه الجريمة النكراء، مضافاً إلى الحقد الدفين على أهل البيت وأتباعهم. إذ أن الشيعة هم من اعتقدوا بإمامة الإمام الحسين عليه السلام، وأنه مفترض الطاعة من الله عز وجل، وأما مجرد الميل الذي يكنه بعضهم للحسين عليه السلام أو اعتقادهم بلياقته لإدارة شؤون الحكم فهو لا يعبر عن تشيعهم، وإلا لكان أكثر المسلمين في عصر يزيد بن ميسون من الشيعة، لان أكثرهم يرون أن يزيد لا يصلح

لحكم المسلمين وان الحسين أصلح منه، بل لكان عمر بن الخطاب من الشيعة لأنه كان يلجأ إلى أمير المؤمنين في الصغيرة والكبيرة، ومعنى هذا انه كان يراه أصلح منه لمثل هذه الحالات.. وهذا ما لا يلتزم به مثيروا هذه الشبهة.

فمجرد الميل لسبب طاريء لا يُعبر عن إيمان هؤلاء بإمامته بالمعنى الذي يؤمن به الشيعة الحقيقيون، فالتشيع للحسين وأهل البيت لا يعني مجرد الحب للحسين ولأهل البيت ﷺ، كما لا يعني الإدراك أو الاعتقاد بأن الحسين أليق بالخلافة من يزيد ومن بني أمية.

نعم، التشيع يعني الاعتقاد بأن الحسين ﷺ هو الإمام المفترض الطاعة من قبل الله عز وجل، وأنه الأليق بمنصب الخلافة على الإطلاق بعد أخيه الإمام الحسن ﷺ وأبيه علي بن أبي طالب ﷺ، وأن رسول الله ﷺ هو الذي أخبر عن الله عز وجل بأهليته وباستحقاقه لذلك، كما أخبر عن أهلية واستحقاق أبيه علي بن أبي طالب ﷺ وأخيه الإمام الحسن ﷺ.

هذا هو - باختصار - معنى التشيع، وهذا ما يؤمن به الشيعة، ولا يوجد أي نص تاريخي يشير إلى أن الذين شاركوا في قتل الحسين ﷺ هم ممن يؤمن بذلك، بل إن النصوص التاريخية صريحة في غير ذلك - كما سيأتي فيما يلي بإذن الله -.

ثانياً/ إن الذين تواجدوا في كربلاء لقتال الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره لم يكونوا على مستوى واحد حتى في دوافعهم لقتال الإمام ﷺ، بل على عدة مستويات، منها :

المستوى الأول/ إن قسماً من الكوفيين كان يعتقد بأن الحسين خارجي شق عصا المسلمين فيجب قتله، وهذا هو اعتقاد الخوارج. ويتضح ذلك من ملاحظة كلمات بعض أهل الكوفة، كما في رواية الجصاص المتقدمة (... فأقبلت على خادم كان

معنا، فقلت : مالي أرى الكوفة تضج ؟ قال : الساعة أتوا برأس خارجي خرج على يزيد. فقلت : من هذا الخارجى ؟ فقال : الحسين بن علي).

بل أن هذا المعنى تتضمنه كلمات بعض من شارك فعلاً في قتال الإمام الحسين في كربلاء، كما في ما عبر عنه الضحّاك المشرقي قال : " لما أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار تضطرم في الحطب والقصب الذي كنا ألهبنا فيه النار من ورائنا لئلا يأتونا من خلفنا، إذ اقبل إلينا منهم رجل يركض على فرس كامل الأداة، فلم يكلمنا حتى مر على أبياتنا، فنظر إلى أبياتنا، فإذا هو لا يرى إلا حطباً تلتهب النار فيه، فرجع راجعاً، فنأدى بأعلى صوته : يا حسين ! استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة. فقال الحسين : من هذا، كأنه شمر بن ذي الجوشن ؟. فقالوا : نعم أصلحك الله هو. فقال : يا ابن راعية المعزى، أنت أولى بها صلياً" (١).

ومن هذا القليل ما روى عن عبد الله بن حوزة التميمي : "... فقال : أفيكم حسين ؟ قال : فسكت حسين. فقالها ثانية. فسكت. حتى إذا كانت الثالثة، قال : قولوا له نعم، هذا حسين، فما حاجتك ؟. قال : يا حسين أبشر بالنار. قال : كذبت، بل أقدم على رب غفور، وشفيع مطاع، فمن أنت ؟. قال : ابن حوزة. قال : فرفع الحسين يديه حتى رأينا بياض إبطيه من فوق الثياب، ثم قال : اللهم حزه إلى النار. قال : فغضب ابن حوزة، فذهب ليقحم إليه الفرس وبينه وبينه نهر، قال : فعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفرس، فسقط عنها. قال : فانقطعت قدمه وساقه وفخذه وبقي جانبه الآخر متعلقا بالركاب... " (٢).

والأكثر من ذلك إن البعض من جيش الكوفيين كان يرى أن الحسين عليه السلام قد خرج ومرق من الدين، والخارج عن الدين كافر بطبيعة الحال، ومن ذلك ما نقله

(١) - المصدر نفسه : ٣ / ٣١٨.

(٢) - تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١٤٠٧ : ٣ / ٣٢٢.

ابن كثير، قال : " وكثرت المبارزة يومئذ بين الفريقين، والنصر في ذلك لأصحاب الحسين لقوة بأسهم وأنهم مستميتون لا عاصم لهم إلا سيوفهم، فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة، وحمل عمر بن الحجاج أمير ميمنة جيش ابن زياد وجعل يقول : قاتلوا من مرق من الدين وفارق الجماعة. فقال له الحسين : ويحك يا حجاج ! أعليّ تحرض الناس ؟! أنحن مرقنا عن الدين وأنت تقيم عليه ؟! ستعلمون إذا فارقت أرواحنا أجسادنا من أولى بصلي النار" ^(١).

كما كان في معسكر الكوفيين من يرى أنهم على صواب في حربهم للإمام الحسين عليه السلام، وأنهم هم الطييون وأن الحسين وجيشه هم الخيشون، وهو ما يعبر عن أنهم يرون أحقية قتل الحسين عليه السلام وأن ذلك من أفضل الطاعات والقربات.. إذ روي أن الضحاك بن عبد الله المشرقي، قال : " فلما أمسى حسين وأصحابه قاموا الليل كله يصلون ويستغفرون، ويدعون ويتضرعون ؛ قال : فتمر بنا خيل لهم تحرسنا، وإن حسينا ليقرأ : {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...} ^(٢). فسمعها رجل من تلك الخيل التي كانت تحرسنا، فقال : نحن ورب الكعبة الطييون، ميزنا منكم" ^(٣).

ومما يدل أيضاً على أن الكوفيين كانوا يرون في الحسين انه كافر أنهم يرون أن الصلاة لا تقبل منه، إذ أن الصلاة لا تقبل من الكافرين، وهذا ما عبر عنه حميد بن مسلم فيما نقله، قال : " فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي، قال للحسين : يا أبا عبد الله نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا

(١) - البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف - بيروت : ٨ / ١٨٢.

(٢) - آل عمران : ١٧٨ - ١٧٩.

(٣) - تاريخ الطبري، مصدر سابق : ٣ / ٣١٧.

والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها. قال : فرفع الحسين رأسه ثم قال : ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم هذا أول وقتها. ثم قال سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي. فقال لهم الحصين بن تميم إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر : زعمت الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقبل وتقبل منك يا حمار..^(١)

إذن، كان رأي الكثير ممن كان في معسكر الكوفيين في الحسين عليه السلام أنه كافر، خارج عن الجماعة، لا تقبل صلاته، مستحق للنار.. وليس ثمة أحد من المسلمين يرى هذا الرأي سوى الخوارج ومن يعتقد بعقيدتهم. والكل يعلم بأن الخوارج، وإن كانوا مع جيش الإمام علي عليه السلام إلا أنهم انشقوا عنه، وقتلهم وقتلوه في النهروان حتى قضى عليهم جميعاً إلا القلة قليلة منهم.

وبالجملة، فإن هذه النماذج تُعبّر عما ذكرناه من أن رأي الكثير من الكوفيين في الحسين عليه السلام هو رأي الخوارج في أمير المؤمنين عليه السلام. فكيف يقال - بعد ذلك - إن من قتل الإمام الحسين هم من الشيعة، ما دام هذا رأيهم في الإمام الحسين عليه السلام؟!.

وثمة نماذج أخرى كثيرة نقلتها المصادر التي تصدّت لتفاصيل مقتل الإمام الحسين عليه السلام، من قبيل قول عمر بن سعد عندما نادى (يا خيل الله اركبي وابشري)^(٢)، ومن قبيل موقف ابن سعد أيضاً عندما بدأ القتال ضد الحسين عليه السلام وقال : (اشهدوا لي عند الأمير أنني أول من رمى)^(٣)، وغيرها الكثير من أمثالها.

(١) - المصدر نفسه : ٣ / ٣٢٦.

(٢) - المصدر نفسه : ٣ / ٣١٤. وينظر كذلك : البداية والنهاية، مصدر سابق : ٨ / ١٧٦.

(٣) - المصدر نفسه : ٣ / ٣٢١.

المستوى الثاني/ إن قسماً آخر من الكوفيين الذين وقفوا ضد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء كانوا طلاب دنيا يتغنون الحضوة عند الأمراء مع معرفتهم بالإمام الحسين وأحقيقته، ومما يؤيد ذلك بعض المواقف التي ذكرها المؤرخون، منها :
ما ذكر عن مسروق بن وائل الحضرمي، قال : " كنت في أول الخيل التي تقدمت لحرب الحسين لعلّي أصيب رأس الحسين عليه السلام فأصيب به منزلة عند ابن زياد... " (١).

وكذلك ما ذكر من كلام خولي لزوجته عندما جاءها برأس الإمام الحسين عليه السلام، إذ قال : " جئت بك بغنى الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار... " (٢).
وأيضاً ما ذكر في بعض المصادر (٣) من قول البعض (٤) لعبيد الله بن مرجانة عندما جاءه برأس الإمام الحسين عليه السلام :

أوقر ركابي فضةً أو ذهباً إنّي قتلتُ السيّدَ المحجّباً
قتلت خير الناس أماً وأباً وخيرهم إذ ينسبون نسباً

وكذلك موقف الذين وطئوا جسد الإمام الحسين عليه السلام، وهم عشرة، أقبلوا إلى ابن زياد، يقدمهم أسير بن مالك وهو يرتجز :
نحن رضضنا الصدر بعد الظهر
بكلّ يعبوبٍ شديد الأسر

(١) - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مصدر سابق : ١٧٢ / ٢.

(٢) - المصدر نفسه : ١٧٨ / ٢. ويُنظر أيضاً : تاريخ الطبري، مصدر سابق : ٣٣٦ / ٣.

(٣) - المصدر نفسه : ١٧٨ / ٢.

(٤) - اختلفت المصادر في الشخص القاتل، ففي الكامل في التاريخ هو سنان بن أنس النخعي، وفي العقد الفريد أن القاتل هو خولي، وفي كشف الغمة ومقتل الخواري هو بشر بن مالك، وفي مصادر أخرى هو الشمر بن ذي الجوشن عليهم لعائن الله جميعاً.

فأمر لهم بجائزة يسيرة.

ولم يكن ذلك على مستوى الأفراد فقط، بل إن القبائل كانت حريصة على نيل الجائزة والحضوة عند ابن مرجانة، فتم تقسيم الرؤوس على القبائل المشاركة في قتال السبط الشهيد كل حسب حجم مشاركته في المعركة وحملها إلى ابن مرجانة. فكيف يكون هؤلاء من الشيعة؟!

المستوى الثالث/ أما القسم الثالث من الكوفيين فهم الذين يحملون في قلوبهم حقداً وبغضاً وعداء للإمام الحسين عليه السلام، فدفعهم ذلك للوقوف بوجه الإمام ومحاربه وقتله وأهل بيته بكل عنجهية ووحشية وأسلوب قلما يعامل به العدو عدوه، فلم يكتفوا بالقتل، بل منعوا الأطفال والنساء عن الماء، ومثلوا بالجثث الطواهر، وأحرقوا الخيام حتى بعد انتهاء المعركة، وقاموا بسبي ذراري الرسول وامتهانهم في طريق السبي وفي مجالس الظلم والطغيان.

ويمكن الاستشهاد لذلك بمجموعة من المواقف التي ذكرها المؤرخون، منها :
جوابهم للإمام الحسين عليه السلام عندما سألهم معاتباً : علام تقاتلونني، على شريعة بدلته أم على سنة غيرتها ؟ قالوا : نقاتلك بغضاً منا لأبيك^(١).

وموقف مرة بن منقذ العبدى، حينما صمم على قتل علي بن الحسين الأكبر، قائلاً : " علي آثام العرب إن مر بي يفعل مثل ما كان يفعل إن لم أأكله أباه، فمر يشد على الناس بسيفه فاعترضه مرة بن منقذ فطعنه فصرع، واحتوله الناس فقطعوه بأسيا ففهم"^(٢)، فكان هدفه هو أذى الإمام الحسين وليس مجرد قتل علي الأكبر، لذا مثلوا وقطعوا جسده بعد قتله إمعاناً في أذية أبيه الحسين عليه السلام حقداً وبغضاً منهم عليه.

(١) - فاجعة الطف، السيد محمد كاظم القزويني : ٢٨.

(٢) - تاريخ الطبري، مصدر سابق : ٣ / ٣٣١.

وكذلك موقف شمر بن ذي الجوشن في حرق خيام النساء والأطفال بعد انتهاء المعركة، ولم يكن لذلك أي مبرر سوى حقدهم الأعمى على ذرية الرسول ﷺ، إذ لم تكن غايته مجرد حرق الخيام، وإنما قتل من كان فيها من أهل البيت، فقد ورد: " أن حمل شمر بن ذي الجوشن حتى طعن فسطاط الحسين برمح ونادى علي بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله" (١).

وكذلك فعل عمر بن سعد نفسه، إذ أمر بحرق الخيام أيضاً. كيف لا وقد رفعوا شعارهم علناً: لا تبقيوا لأهل هذا البيت من باقية.

ولا أظن تلك المواقف تحتاج إلى تعليق وتوضيح بأن هؤلاء ليسوا من الشيعة، فالأمر واضح جداً، لقد فقد القوم صوابهم فأخذوا يعبرون عما اكتوت به ضمائرهم بأقبح تعبير.

لقد أعلن القوم حقدهم على الإمام صراحة، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني " أن الحسين جعل يطلب الماء وشمر يقول له والله لا ترده أو ترد النار، فقال له رجل: ألا ترى إلى الفرات يا حسين كأنه بطون الحيات ! والله لا تذوقه أو تموت عطشاً، فقال الحسين: اللهم أمتة عطشاً" (٢).

هذه بعض النماذج المعبرة عما كان يكنه قتلة الحسين ﷺ من ضغن بلغ مداه، فأفصحت عنه قسوة لم يعرف التاريخ لها نظير، فلم تكن بشاعة ما ارتكبه تكافئ مقدار ما انطوت عليه قلوبهم من أضغان وأحقاد، فكلما أوغلوا في القسوة وجدوا أن غليلهم يزداد التهاباً، فعمد بعضهم إلى أطفال الحسين ﷺ يذبحونهم ذبحاً، وقصد آخرون إلى جسده الشريف الذي أعياه النزف لينهالوا عليه بسيوفهم وهو صريع، فلم يكن لها من أثر غير أن وقعها يُلسم أرواحهم المهترئة، فكان بعضهم يركله برجله، وآخر يقطع إصبعه، وثالث يحز معصمه، ورابع يقطع رأسه، وخامس

(١) - المصدر نفسه : ٣ / ٣٢٦.

(٢) - مقاتل الطالبين، أبو الفرج الاصفهاني : ١ / ٣٣.

يسلب ثيابه، وآخرون يوطئون الخيل ظهره وصدره.. ولم يجد بعضهم غير الحجارة يرضخون بها جسده الطاهر.

ثم لم يجدوا لكل ذلك رواءً لغليلهم فقصدوا حرمة، وروّعوا بناته ونساءه، بعد أن أحرقوا خيامه وسلبوا متاعه، فكان أحدهم يخرم أذن الطفلة ليسلبها قرطها، ويعدو آخرون بخيولهم خلف أطفال الحسين عليه السلام ليطأوهم بحوافرها.. لقد تجاوزوا بتصرفاتهم تلك حتى قوانين الحروب، فهل يدل ذلك على غير البغض والحق والعداء؟.

فأيُّ منصف يقف على كل تلك المشاهد ثم يمرُّ فينسب هؤلاء إلى شيعة الحسين عليه السلام، هؤلاء لم يكونوا يتدينوا بدين كما أفاد الإمام الحسين عليه السلام حينما قصدوا رحله وحالوا بينه وبين أهله، إذ قال عليه السلام : " ويلكم إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب "(١).

المستوى الرابع/ وكان يمثله قسم آخر من الذين حضروا كربلاء مع جيش ابن سعد ممن استبد بهم الخوف من بطش يزيد وعبيد الله بن مرجانة، وأكثر هؤلاء من عوام الناس الذين لا حول لهم ولا قوة أمام طغيان الأمويين، وليس ذلك دفاعاً عنهم بطبيعة الحال، فالدفاع عن جوهر الدين أولى من النفس والمال. ولم تكن تلك الشريحة هي الوحيدة من هذا القسم، فقد ورد أن الأمراء الأمويون قد مارسوا التهديد مع بعض الشخصيات المعروفة في الكوفة، ومن ذلك ما نقله الشيخ محمد صنفور عن الدينوري في الأخبار الطوال، قال : إن ابن زياد بعث إلى الحصين بن نمير وحجار بن أبجر وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وأمرهم بمعاونة ابن سعد، فاعتلّ شبث بالمرض، فأرسل إليه : أن رسولني يخبرني بتمارضك، وأخاف

(١) - تاريخ الطبري، مصدر سابق : ٣ / ٣٣٣. وينظر كذلك : البداية والنهاية : ٨ / ١٨٧. وأيضاً :

الكامل في التاريخ : ٢ / ١٧٧.

أن تكون من الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، فإن كنت في طاعتنا فأقبل مسرعاً. فأتاه بعد العشاء لئلاً ينظر إلى وجهه فلا يجد عليه أثر العلة ووافقه على ما يريد^(١).

وكذلك الموقف الذي نقله عن البلاذري في أنساب الأشراف، قال : لما سرح ابن زياد عمر بن سعد أمر الناس فعسكروا في النخيلة، وأمر أن لا يتخلف أحد منهم، وصعد المنبر فقرض معاوية، ثم قال : فأياً رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن العسكر برئت منه الذمة. ثم خرج ابن زياد فعسكر، ثم إن ابن زياد استخلف على الكوفة عمرو بن حرث، وأمر القعقاع بن سويد بالتطواف بالكوفة، فوجد رجلاً من همدان قد قدم يطلب ميراً له بالكوفة، فأتى به ابن زياد فقتله، فلم يبق محتلم إلا خرج إلى العسكر بالنخيلة^(٢).

يتضح من هذه النصوص وأمثالها إن أحد أهم دوافع تواجد الكثير من الكوفيين مع جيش ابن سعد في حرب الحسين عليه السلام، هو الخوف الذي انتابهم من بطش ابن زياد، وقد يكون بعض هؤلاء ممن يميل إلى الإمام الحسين عليه السلام بقرينة عدول البعض منهم إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

وعلى العموم، فقد كانوا ممن يطمع في العافية، فلو كانت بجانب الحسين لوقفوا معه، ولأنها كانت بجانب عبيد الله بن مرجانة أثروا أن يقفوا معه طمعاً في العافية رغم يقينهم بعدم لياقته للإمارة ورغم إدراكهم بجدارة الحسين للزعامة والرياسة.

ثانياً/ إن الكتب التي كاتب بها الكوفيون الإمام الحسين عليه السلام - على كثرتها - لا تدل على أن من كتبها كان من الشيعة، بل إن دلالتها على الظلم الذي يتعرض له الكوفيون على يد يزيد وواليه على الكوفة أبلغ، فلما علموا برفض الحسين عليه السلام أن

(١) - تساؤلات حول النهضة الحسينية، مصدر سابق : ٣٨.

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

يباع يزيد وجدوا فيه المنفذ لهم. هذا، مضافاً إلى أنهم قد أدركوا المكانة المميزة التي يحظى بها الإمام الحسين عليه السلام في قلوب الناس نظراً لقربته من رسول الله ﷺ، وأنه ألقى الناس بمنصب الخلافة من بني أمية، وأنه لو استلم الحكم لساير فيهم بالعدل والإحسان.. فكاتبوه ووعدوه بالمؤازرة.

ثالثاً/ إن كون بعض من كان مع جيش عمر بن سعد ممن كان تحت منبر أمير المؤمنين عليه السلام أيام خلافته، ومع جيشه في حروبه.. لا يدل على أنهم كانوا من شيعة الإمام، بل كان ذلك بحكم الظرف الموضوعي من كون الإمام علي عليه السلام هو الخليفة، فكان تواجههم إلى جانبه، كغيرهم من المسلمين، بهذا الاعتبار، ولو كان أمير المؤمنين في موقع المعارضة لما كانوا معه، وبالفعل فأنهم لم ينصروا الإمام أمير المؤمنين قبل خلافته.

رابعاً/ إن الإمام الحسين عليه السلام نفسه خاطبهم بعبارة (يا شيعة آل أبي سفيان) في كلامه الموجه إلى الكوفيين الذين اتفقت كلمتهم على قتله عليه السلام، إلى أن قال عليه السلام **عليه السلام** : (ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان ! إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم...) ^(١)، مع ملاحظة إن كلام الإمام عليه السلام كان موجهاً إلى جميع من يقف في مواجهته وليس لفئة معينة منهم.

خامساً/ إن السيدة زينب عليها السلام قد خاطبتهم بعبارة (يا أهل الكوفة) - وهي الفقرة التي نتولى شرحها الآن، وهذا محل الشاهد منها -، فلو كان لهم أي كرامة على التشيع لاختلفت اللهجة في خطابات الإمام الحسين والسيدة زينب وباقي السبايا من أهل البيت عليهم السلام.

(يَا أَهْلَ الْخَيْلِ وَالْغَدْرِ وَالْحَدَلِ).

الْخَيْلُ : تخادع عن غفلة^(١). وفي نسخة : (والختر) : والختر : شبه الغدر، ورجل ختار : غدار^(٢)، لكنه أقبح أنواع الغدر^(٣). والختار : الغدار. قال الله تعالى : {وَمَا يَجِدُ بآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}^(٤)^(٥). و (الغدر) ضد الوفاء بالعهد^(٦). و(حدل): مال علي بالظلم، يقال رجل حدل غير عدل^(٧).

إن هذا الأسلوب هو من أهم ما ميز خطاب السيدة زينب عليها السلام، وهو التعنيف من العبارة الأولى في كلامها، فلا مبرر للين والمدارة بعد أن ارتكبوا ما لا ينفع معه المدارة واللين، وتحقق ما يمكن للين والمدارة أن يمنع تحققه، وهو الحفاظ على حياة الإمام الحسين وإكرام نسائه وأطفاله.

لقد كانت لهذه الكلمات أشد الأثر في نفوس أهل الكوفة، فإنها قد أوجدت فيهم اليقظة والوعي بصورة عجيبة، حتى شعروا أن ضمائرهم بدأت تؤنبهم من اللحظة الأولى، وإن وجدانهم صار يوبخهم على جرائمهم الفجيعة وجنایاتهم العظيمة. فقد هزت كلمات السيدة زينب عليها السلام ضمائرهم بعد أن صارحتهم بصفاتهم الذميمة وماضيهم المخزي وتاريخهم الأسود، حيث صدر منهم الغدر في مواقف مهمة وحساسة جداً، ولمرات عديدة، منها :

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ٣١٦.

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) - كما في كتاب (القاموس) للفيروز آبادي.

(٤) - لقمان : ٣٢.

(٥) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٢ / ٢٤٤.

(٦) - لسان العرب، مصدر سابق : ٥ / ٨.

(٧) - المصدر نفسه : ١١ / ١٤٧.

١/ موقفهم مع أمير المؤمنين في يوم صفين عند تحكيم الحكّمين، غدر أهل الكوفة بالإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان الحق يتجسد فيه بأكمل وجه، وخذلوه بتلك الكيفية المؤلمة !.

٢/ موقفهم حينما قتل الإمام أمير المؤمنين، إذ تهافت أهل الكوفة على مبايعة ابنه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، وعندما خرج معاوية لحرب الإمام الحسن، خذله أهل الكوفة إمامهم وقعدوا عن نصرته غدرًا منهم، فخلّى الجومعاوية وفعل ما فعل، وضرب الرقم القياسي في الجريمة واللؤم !.

٣/ موقفهم مع مسلم بن عقيل، وفي الواقع أن ذلك يُعد أول علامات الغدر بالإمام الحسين، لان مسلم كان ممثلاً للإمام إليهم.

٤/ موقفهم مع الإمام الحسين عليه السلام، إذ بعد موت معاوية أرسل أهل الكوفة اثنا عشر ألف كتاب إلى الإمام الحسين عليه السلام أيام إقامته في مكة، يطلبون منه التوجه إلى العراق لينقذهم من بطش بني أمية، وضمنوا رسائلهم الأيمان المغلظة، والعهود المؤكدة لنصرة الإمام والدفاع عنه بأموالهم وأنفسهم، وبعد أن أجابهم الإمام غدروا به واحتشدوا عليه وقتلوه.

نعم، هكذا كان فعلهم حينما لبي الإمام الحسين عليه السلام نداء رسائل أهل الكوفة وجاء إلى العراق، ووصل إلى أرض كربلاء، ومعه عائلته والصفوة الطيبة من رجال أهل بيته، خرج أهل الكوفة، وقتلوا جميع من كان مع الإمام، وأخيراً.. قتلوا الإمام الحسين عطشاناً وبذلك الكيفية المقرحة للقلوب، ثم أحرقوا خيام الإمام، وأسروا عائلته ونساءه وأطفاله، وقطعوا الرؤوس من الأبدان ورفعوها على رؤوس الرماح، وجاءوا بها من كربلاء إلى الكوفة. هذا هو الملف الأسود، المليء بالغدر والخيانة.

(أتبكون ؟!)

ثم تستفهم السيدة زينب عليها السلام مستنكرة وقاحتهم وصلفهم، كما استفهم الإمام السجاد مستغرباً أيضاً بقوله : إن هؤلاء سيكون وينوحون من أجلنا ! فمن قتلنا ؟! فاستمرت عليها السلام تقررهم بخطابها البليغ، وفضحت زيف إسلامهم، وكذب دموعهم، وأنهم من أخط المجرمين، لأنهم اقترفوا أفضع جريمة وقعت على البسيطة، فقد قتلوا ابن بنت نبيهم وسبطه وريحانته من الدنيا، المنقذ الذي أراد لهم الخير والعدل ورفع الظلم والحيف، فانتهكوا بذلك حرمة نبيهم، وسبوا عياله، وفعلوا بهم ما فعلوا.

فحينما نظرت عليها السلام إلى دموع أهل الكوفة، وسمعت أصوات بكائهم لم تنخدع بهذه المظاهر الجوفاء، بل وجهت خطابها إلى جميع الحاضرين هناك. لقد عدت السيدة زينب عليها السلام بكاءهم قياساً بفداحة جرائمهم، نوعاً من النفاق والتلون البغيض، وكيف لا يكون وقد فعلوا ما فعلوا بذرية نبي الله العظيم، أليس رجالهم هم الذين باشروا تلك الجريمة النكراء في مجزرة كربلاء الدامية، ونساءهم هن اللواتي وافقنهم على أفعالهم، وهامهم يكون وينتحبون !! يكون وهم يشاهدون تلك الرؤوس المقدسة على أعالي الرماح، ويشاهدون حفيدات الرسالة وبنات الإمامة على النياق بتلك الحالة المقرحة للقلوب !.

ولكن ! ما فائدة هذا البكاء ؟! ولماذا لم يقوموا بتغيير أنفسهم بدلاً من النوح والبكاء ؟!، لماذا لم يهتموا ببناء نفوسهم ونفسياتهم ؟!، لماذا عدم الهجوم على من أصدر الأوامر وهو الطاغية ابن مرجانة وحاشيته الفاسدة ؟! إن الحاكم الطاغية لا يستطيع الظلم والتعدي إلا مع وجود الأرضية المساعدة والأجواء الملائمة للظلم والطغيان، والناس بنفاقهم وخذلانهم لآل الرسول الكريم هم الذين مهدوا للظالمين القيام بتلك الفاجعة المروعة، وهذا درس لكل مجتمع يؤمن بالله واليوم الآخر ويريد أن يعيش في ظل حكومة عادلة.

إنه التلون المقيت مع الأحداث، ولكن لن تنطلي هذه الخدع على السيدة زينب الحكيمة ومن معها من آل البيت، فدموع التماسيح سرعان ما تجف مع وجود أول مصلحة دنيوية تنسيهم فعلتهم النكراء لكي يرتكبوا غيرها، فما أكثر ما ارتكبه قبلها، كما في مواقفهم التي ذكرناها آنفاً.

ويمكن أن نستنتج بعض النتائج من عبارتها عليها السلام هذه:

١/ إن كلامها عليها السلام كان من التأثير بحيث جعل أهل الكوفة يشعرون من أول عبارة لها عليها السلام بالذنب وفداحة ما أقدموا عليه، ثم الندم الذي عبرت عنه دموعهم وأصوات نحيبهم.. وفي ذلك دلالة واضحة على الإمكانية الفريدة التي تمتلكها السيدة زينب في التأثير، ونجاحها الكبير في أداء دورها.

٢/ إن بكاء أهل الكوفة، وبهذه الماراة والتأثر، يدل بأقوى دلالة على صدق عبارتها الأولى عليها السلام واعترافهم بأنهم أهل غدر ومكر وتلون، وأنهم أهل مصالح دنيوية والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معاشهم.

(ألا فلا رقات الدمعة، ولا هدأت الزفرة) وفي رواية : ولا هدأت الرنة .

رقات الدمعة : جَفَتْ وَانْقَطَعَتْ^(١). الزَّفْرُ والزَّفِيرُ أن يملأ الرجل صدره غماً ثم هو يزفر به^(٢). والرنة : الصَّيْحَةُ الحَزِينَةُ يقال ذو رَنَةٍ والرَّينُ الصياح عند البكاء^(٣).

ويمكن أن نفهم من قولها هذا عليها السلام احتمالين :

(١) - المصدر نفسه : ١٣ / ٨٨.

(٢) - المصدر نفسه : ٤ / ٣٢٤.

(٣) - المصدر نفسه : ١٣ / ١٨٧.

الأول/ يُحتمل أنها **عليها السلام** قد توجهت بالدعاء على أهل الكوفة بعد جريمتهم النكراء، ولما رآته منهم من البكاء والنفاق والدجل، فهم مستحقون لذلك، فأى جريمة تقابل جريمتهم.

الثاني/ يحتمل - أيضاً - أنها كانت في مقام الإخبار عما ينتظرهم في قادم أيامهم في الدنيا والآخرة، فلن تنقطع دموعهم ولن تجف، وسترتفع صيحاتهم وأصواتهم بالبكاء. وذلك ما ينسجم مع السنن الكونية، فإن مصير الظالمين هو الخزي والعار في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة أقسى وأشد: {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} ^(١).

نعم، من ذلك القلب الملتهب بما جرى من المصائب والأحزان، أخبرتهم بأنه ستمر عليهم أهوال وأحوال تجعل بكاءهم متواصلاً ودموعهم مستمرة في الجريان، لا تهدأ ولا تنقطع، ولا تهدأ صيحاتهم ونحيبهم وعويلهم.

وهذا لا يعني أن المجتمع الكوفي لا يوجد فيه الأخيار، فكل مجتمع من المجتمعات يوجد فيه الأخيار ويوجد فيه الأشرار، إلا أن القياس يكون على الطابع العام الذي يمثله الأغلبية من ذلك المجتمع، فإن كان الغالب منه أخيار اتصف ذلك المجتمع بأنه من المجتمعات الخيرة، وإن كان الغالب هم الأشرار بحيث يكون القرار بيدهم فإن ذلك المجتمع يوصف بأنه من المجتمعات الشريرة، ومجتمع الكوفيين كان واحداً من المجتمعات التي كان الطابع العام فيها هو التلون، والغدر، وقلة الالتزام بالضوابط الدينية.. وهذا الأمر يُسهّل تسلط الطغاة والظالمين على رقابهم حسب السنن الكونية في ذلك، لاسيما الذين لا يفون بعهد الله تعالى الذي تمثل الإمامة مصداقه الأوضح: {وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} ^(٢). وقد ورد: (قال رجل

(١) - الرعد: ٣٤.

(٢) - البقرة: ١٢٤.

للصادق عليه السلام : يقول الله : ادعوني أستجب لكم. وإنّا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ فقال : إنكم لا تفون لله بعهدة فانه تعالى يقول : أوفوا بعهدي أوف بعهدكم، والله لو وفيتم لله سبحانه لوفى لكم^(١).

فإذا حكمهم حاكم طاع، وعرف منهم هذه الطباع والصفات المذمومة يسهل عليه التسلط عليهم واتخاذهم أعواناً ومساعدين له في تحقيق أهدافه الإجرامية الفاسدة، وهم أيضاً يسارعون إلى التجاوب والتعاطف معه، مادامت صفاتهم بهذا المستوى.

ومثل ذلك المجتمع لابد معه من التكلم بكل صراحة ووضوح، وبالكلام اللاذع، فلا مبرر للمجاملة معهم، فالملف الأسود لأهل الكوفة كان يقتضي أن تواجههم السيدة زينب عليها السلام بهذا الأسلوب، من الشجب والاستنكار والتوبيخ، إزاء ما نقضوا من العهود المتتالية.

نعم، لم يكن ينفع معهم بسبب جرائمهم تلك إلا هذا الأسلوب من الكلام اللاذع، فلم تعد النصائح والمواعظ تؤثر فيهم ! والسيدة زينب - بملاحظة أنها امرأة^(٢)، وأنها بنت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - كانت لها الفرصة على التعنيف في الكلام مع هؤلاء الأوباش، وقد تقدم ما تمتلكه من القدرة العظيمة على البيان والبلاغة في الكلام، فقد كانت جميع مؤهلات القيام بهذا الدور الكبير، لإيقاظ بعض تلك الضمائر الميتة من سباتها العميق.

(إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً).

واستكمالاً منها عليها السلام واستمراراً بقرعهم بسياط التعنيف، شبّهت السيدة زينب أهل الكوفة بالمرأة التي نقضت غزلها، كما شبّه القرآن الكريم أمثالهم ممن

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٦٦ / ٣٤١.

(٢) - لان المرأة حسب أعراف العرب لا تؤاخذ بشيء من منطقتها وكلامها.

نقضوا العهود وتجروا عليها : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ.. }^(١). فقد ذكرتهم ﷺ بأنهم نقضوا غزلهم، وخالفوا وعدهم، وهدموا بنيانهم، وهو تمثيل بمرأة تغزل الغزل بقوة ثم تعود فتنقض ما أتعبت نفسها فيه وغزلته من بعد قوة وتجعله أنكاثاً لا قتل فيه ولا إبرام.

ونقل عن الكلبي : أنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواربها إلى انتصاف النهار، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن، ولا يزال ذلك دأبها، واسمها ربيعة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، وكانت تسمى خرقاء مكة^(٢). وقيل أنه مثل ضربه الله تعالى شبه فيه حال ناقض العهد بمن كان كذلك،. (من بعد قوة) أي كانت تنكث غزلها من بعد إحكام وإتقان وإستحكام وفتل للغزل، في المرة الأولى وكأنها تريد أن تصنع من ذلك الغزل أقمشة. فبعد النكث والنقض كان يفقد الصوف معظم قوته. و (أنكاثا) جمع نكث، وهو الغزل من الصوف والشعر ييرم ثم ينكث وينقض ليغزل ثانية^(٣). أي : ينقض ويفل ليغزل مرة ثانية. وقد شبه الله تعالى ناقض العهد بتلك المرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة وإتقان.

وقد استفادت السيدة زينب ﷺ من هذا التشبيه القرآني فيمن نقض عهده، وشبهت به تصرف أهل الكوفة لنقضهم العهد أيضاً. فيا له من مستوى رفيع في البلاغة والأدب الراقي -

(١) - النحل : ٩٢.

(٢) - الميزان، مصدر سابق : ١٢ / ١٧٣.

(٣) - مجمع البيان، أبو على الفضل بن الحسن الطبرسي، المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ : ٦ / ١٧٣.

ولكن ! ما المقصود بالعهد الذي نقضه أهل الكوفة ؟

يمكن أن يجاب عن ذلك بعدة احتمالات، منها :

١/ إن يكون كلامها عليها السلام إشارة إلى نقضهم عهد الله تعالى بالإمامة لأهل البيت المعصومين عليهم السلام، مما ترتب عليه الوقوف بوجه الأئمة ومحاربتهم وإعانة أعدائهم على قتلهم.

وهذا معنى عام ينطبق على أهل الكوفة وغيرهم، إلا أن أهل الكوفة كانت لهم الحصة الأوضح من ذلك وعلى مر التاريخ.

٢/ إنها إشارة إلى نقضهم العهد مع أمير المؤمنين والإمام الحسن عليهما السلام، فقد كان أهل الكوفة أكثر المعنيين بذلك.

٣/ إنها إشارة إلى نقضهم العهد مع الإمام الحسين عليه السلام تحديداً، حسب واقع الحال الذي دعاها عليها السلام إلى إلقاء خطبتها تلك، فقد كاتب الكوفيون أخاها الحسين وعاهدوه وأقسموا له بالإيمان المغلظة أنهم جند له مجندة، وأنهم طوع أمره ورهن إشارته.. ولكنهم سرعان ما نقضوا عهدهم، وعادوا - بعد ذلك - عبيداً لأهل الشام وطغاتهم.

٤/ إشارة إلى جميع المعاني المتقدمة، فقد كان أهل الكوفة مشمولين بجميع هذه المواقف، وهذا يجعلنا نقف طويلاً أمام الخصائص النفسية لهذه الفئة من الناس ودراسة هذه الخصائص الذميمة التي تميزوا بها ومعرفة أسبابها ودوافعها.

(تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم)

أيمان - جمع يمين، وهو القسم والحلف. و (الدخل) : عيب في الحساب^(١). وفي التبيان : (الدخل) ما أدخل في الشيء على فساد.

ولعل المعنى : تدخلون الإيمان على فساد للغرور، وفي نيتكم الغدر بمن حلفتهم له، لأنكم أكثر عدداً منهم أو لأن غيركم أكثر عدداً منكم. وقيل : والدخل، الدغل والخديعة، وإنما قيل الدخل، لأنه داخل القلب على ترك الوفاء والظاهر على الوفاء^(١). أي دخلاً وخيانة ومكرأ، وذلك أنهم كانوا يخلفون في عهودهم ويضمرون الخيانة، وكان الناس يسكنون إلى عهدهم ثم ينقضون العهد، فقد اتخذوا أيمانهم مكرأ وخيانة^(٢).

أن أهل الكوفة كانوا يحلفون بالوفاء بالعهد - كما فعلوا ذلك مع الأئمة المعصومين عليهم السلام ومع غيرهم - بحيث كان الناس يطمئنون إلى عهدهم، ولكنهم يضمرون في أنفسهم الغدر والخيانة وعدم الإخلاص لتلك الأيمان، وكانوا ينقضون العهد علناً وعلى رؤوس الأشهاد. وتلك من الصفات الذميمة التي تضاف إلى صفات أهل الكوفة.

(ألا وهل فيكم إلا الصلف النطف، والصدر الشنف) .

الصِّلَفُ : مُجَاوِزَةُ الْقَدْرِ فِي الظَّرْفِ والبراعة والادِّعَاءُ فوق ذلك تكبراً^(٣).

النطف : التلطف بالعيب^(٤).

و(الصدر الشنف)، الشنف : شدة البغض^(٥).

ثم أخذت عليها السلام تفضح أهل الكوفة وتبين لهم صفاتهم السيئة التي سببت لهم هذه الهزيمة النكراء أمام أنفسهم التي جعلتهم أيادي أعداءهم يقتلون إمامهم وابن بنت نبيهم بأيديهم. تلك الهزيمة التي عبروا عنها بالبكاء والندم والحسرة.

(١) - التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي : ٦ / ٤١٥.

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٩ / ١٩٦.

(٤) - كتاب العين : مصدر سابق : ٧ / ٤٣٦.

(٥) - المصدر نفسه : ٦ / ٢٦٧.

ولعل المعنى : الصدر الذي يحتوي على شدة البغض والعداء لأهل البيت عليه السلام. وأن من الصفات الذميمة الأخرى التي اتصف بها المجتمع الكوفي هو الادعاء بالصفات الحميدة التي يفقدونها تكبراً منهم واعتداداً بالنفس، وإنهم يدعون ما ليس فيهم من فعل الخير.. إذ الحقيقة أنهم متلطفون بالعيوب والأحقاد والبغض الذي تحمله صدورهم ضد آل الرسول والله أعلم.

وثمة ملاحظة أخرى تتمثل في أنها عليه السلام قد حصرت صفات المجتمع الكوفي - أو أغلبهم - بتلك الصفات، وما ستذكره عليه السلام من صفات ذميمة.

(وملق الإمام).

الملق : الود واللفظ الشديد^(١).

ولعل المعنى : أنها عليه السلام تضيف صفة رذيلة أخرى ، فتشير السيدة زينب إلى أن فيكم - يا أهل الكوفة - صفة التملق والتذلل لمن لا يستحق ذلك من الحكام الخونة، أمثال يزيد وابن مرجانة اللئيمين، وحاشيتهما القدرة، فكما أن الإمام - جمع أمه - يتملقن إلى المالك لجلب عطفه ومودته، ويعطينه باللسان من الود والمشاعر ما ليس في قلوبهن، بل يفكرن في مصالحهن حتى لو استوجب ذلك لهن التذلل والتملق والخضوع لمن ليس أهلاً لذلك.. فأنتم يا أهل الكوفة ! كذلك تتملقون إلى حكامكم.. من منطلق المصالح، لا الإخلاص والوفاء !

(وغمز الأعداء).

الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب^(٢).

ولعل السيدة زينب عليه السلام تقصد من عبارتها هذه احد احتمالين :

(١) - تهذيب اللغة، الأزهرى : ٣ / ٢٣٥.

(٢) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ٣٤٩.

الأول/ إن أعداء الدين - وهم ابن مرجانة وسادته وحاشيته - ينظرون إليكم من جانب عيونهم غمزاً، وفي ذلك دلالة على التحقير والتوهين، وأنهم لا ينظرون إليكم إلا بقدر مصالحهم لا أكثر.. فلا كرامة لكم عندهم، بل اتخذوكم عبيداً وخداماً وجسوراً للوصول إلى غاياتهم.. من دون أن يكونوا لكم أية محبة أو تقدير أو احترام.

وعلى هذا الاحتمال يكون في كلامها عليها السلام تنبيهاً لأهل الكوفة إلى الالتفات إلى أنهم قد فقدوا العزة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن، إذ جعلوا أنفسهم أدوات طيعة وذليلة بيد أفراد لؤماء.

الثاني/ إن أهل الكوفة - من شدة طاعتهم لأسيادهم الطغاة الظلمة - أصبحوا يستجيبون لدعوتهم بأدنى إشارة منهم، بعد أن صاروا أدوات طيعة بأيديهم، وما أكثر الحالات التي صدرت من الكوفيين من هذا القبيل، لاسيما ضد أهل البيت عليهم السلام وذرائعهم وأتباعهم.

وبذلك تضيف السيدة زينب عليها السلام صفة ذميمة أخرى إلى هؤلاء القوم.

(أو كمرعى على دمنة) .

ثم ذكرت السيدة زينب عليها السلام مثلاً آخر لبيان حقيقة أهل الكوفة والكشف عن واقعهم، وأن ظاهريهم يختلف تماماً عن باطنهم، وهي علامة النفاق، فشبهتهم بالأعشاب التي تنبت وتنمو في أماكن قذرة وغير صحية.

فالمرعى : محل العشب الذي يسرح فيه القطيع. و (الدمنة) : المحل الذي تتراكم فيه أرواث الحيوانات وأبوالها، وتختلط مع التراب في مراتبهم، فتتلبد وتتماسك الأوساخ المتكونة من الروث والبول والتراب، ثم بسبب الرطوبة الموجودة ينبت هناك نبات أخضر، جميل المنظر واللون، ولكن الجذور نابتة في مكان وسخ مليء بالجراثيم والميكروبات !.

فأهل الكوفة كانوا كذلك، لهم ظاهر حسن، وكانت لهم حضارة عريقة، لكن باطنهم وواقعهم كان قبيحاً، يشتمل على الخبث والغدر والخيانة والكذب والنفاق، والجرأة على الله تعالى، وسحق القيم والمفاهيم، وعدم التخلق بالفضائل التي كان ينبغي ان يكونوا عليها، ومن أبرزها الوفاء بالعهد، وترجيح الدين على كل شيء.

(أو كفضة على ملحودة) .

اللحد : ما حفر في عرض القبر^(١). والملحودة : الجثة الموضوعة في القبر. وهذا مثال آخر ذكرته السيدة زينب عليها السلام يتمثل في ما لو تم طلاء قبر رجل منحرف معروف بصفاته الذميمة بقطع من الفضة، فسوف يكون ظاهر ذلك القبر جميلاً، لكن الجثة التي في داخله جيفة متعفنة. كذلك أهل الكوفة كان ظاهرهم أنهم أهل الدين والتمدن والحضارة والثقافة، لكنهم في الباطن كانوا بمنزلة الجيفة المتعفنة داخل القبر، فكما تستر الأرض تلك الجيفة العفنة فلا يراها الناظر، ولا يشم رائحتها النتنة، فكذلك ستر أهل الكوفة باطنهم النتن بظاهرهم المغشوش، حيث تجمع فيهم من الصفات ما يناقض صفات المؤمنين، كنقض العهد والغدر والخيانة وغيرها.

وفي نسخة : (كقصبة على ملحودة) والقصبة : هي : الجص : وهي البودرة والتراب المطبوخ الذي يخلط مع الماء فيصير طيناً أبيض اللون، ويوضع ذلك الطين ما بين الطابوق ويكون سبباً لتماسك أجزاء البناء^(٢).

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ٣ / ١٨٢.

(٢) - في كتاب (العين) القصبة : لغة في الجص. وفي القاموس المحيط : (القصبة : الجصة).

قال في لسان العرب : " وفي حديث زينب (يا قَصَّةً على مَلْحودَةٍ) شَبَّهَتْ أجسامَهُم بالقبور المتخذة من الجَصِّ وأنفُسَهُم بِجَيْفِ الموتى التي تشتمل عليها القبورُ، والقَصَّةُ : القطنَةُ أو الخِرْقَةُ البيضاء التي تَحْتَشِي بها المرأة عند الحيض "(١).
فما الفائدة التي ترتجى من مثل ذلك القبر الذي يخصص ليكون جميلاً في الظاهر، لكنه في باطنه يتضمن جثة ننته لشخص خبيث !!!؟

(ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون).

واستمراراً منها ﷺ في التعنيف الشديد لأهل الكوفة، فقد أخبرتهم إن النتيجة المنتظرة لمن توجد فيه مثل تلك الصفات والخصائص، التي جعلتهم يتولون الطغاة والمجرمين الذين كفروا بإمامة أهل البيت وأطاعوا أعداءهم، هي سخط الله تعالى والخلود في العذاب الأليم، فبئس لهم تلك النتيجة، لذ استشهدت ﷺ بقوله تعالى : { تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } (٢).

والجدير بالذكر - هنا - أنها ﷺ قد قرنت جريمتهم تلك بجرائم بني إسرائيل، فأشارت إلى أن عقوبتهم واحدة يوم القيامة، إذن أن استشهادها بما ورد في تلك الآية المباركة يوحي بذلك، قال تعالى : { لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٧ / ٧٣.

(٢) - المائدة : ٨٠.

مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ^(١).

ولعل المعنى : يا أهل الكوفة ! إن النتيجة الأكيدة لأعمالكم هي أن وجب عليكم غضب الله وسخطه، والخلود الدائم في نار جهنم - مثلكم في ذلك مثل بني إسرائيل -، بسبب مقدماتكم التي تضمنت العداء لأهل البيت عليه السلام، والولاء لأعدائهم، وهذا عكس ما هو المطلوب منكم تماماً. فيا لها من عاقبة سيئة عندما تكون عاقبة قوم كعاقبة بني إسرائيل.

(أَتَبْكُونَ وَتَنْتَجِبُونَ ؟! أَجَلُ وَاللَّهِ ، فَابْكُوا كَثِيراً وَاضْحَكُوا قَلِيلاً) .

النحيب : رفع الصوت بالبكاء^(٢).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام بالغت في تقريعهم من اجل إيقاظ ضمائرهم، فقالت وهي تشير إلى بكائهم الفارغ من تحمل المسؤولية إلى قوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }^(٣). فلتضحكوا يا أهل الكوفة قليلاً في هذه الحياة الدنيا بالانتصار الموهوم، فإن الضحك والفرح في الدنيا قليل وقصير بالقياس إلى بكائكم الدائم يوم القيامة، لأن الأيام المحدودة لا تقاس إلى الخلود الذي ليس محدوداً بعدد محدد من الأيام، بل إن اليوم الواحد في الدنيا لا يقاس إلى اليوم الواحد في الآخرة، قال تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ

(١) - المائدة : ٧٨ - ٨١.

(٢) - مجمع البحرين، الطريحي : ٢ / ١٢٩.

(٣) - التوبة : ٨٢.

يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ^(١)، وقال تعالى : {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} ^(٢).

وتجدر الإشارة إلى الصبغة البلاغية في عبارتها عليها السلام، إذ أخبرت بصيغة الأمر، وهذا في الواقع ليس أمراً بالضحك، وإنما مضمونه الأمر بالتقليل من الضحك، إذ لا مبرر لضحك وفرح يتعقبه بكاء طويل وعذاب مستمر. وبهذا قد بالغت عليها السلام في التهديد والإنذار لهم .

(فلقد ذهبتم [بليتم] بعارها ومنيتهم بشنارها) .

يقال : ذهب بها : أي إستصحبها. و (العار) : كل شيء لزم به سبة أو عيب، تقول : وهو عارٌ وشنارٌ، والفعل : التّعير، والله يُعَيِّرُ ولا يُعَيَّرُ ^(٣). أو هو : كل شيء لزم به عيب ^(٤). أو هو : كل شيء يلزم منه عيب أو سبٌ وعيرته كذا وعيرته به قبحته عليه ونسبته إليه ^(٥).

و (الشنار) : العيب والعار، ورجل شريرٌ شنيّر، إذا كان كثير الشر والعيوب، وشنرتُ بالرجل تشنيراً إذا سمعت به وفضحته ^(٦).

ولعل المعنى : إن العار الذي لحق بكم، ووصمتم أنفسكم به، بسبب فعلتكم هذه، سيقى مصاحبكم كلما ذكركم في هذه الدنيا، وكلما ذكرت واقعة كربلاء

(١) - الحج : ٤٧.

(٢) - المعارج : ٤.

(٣) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ١٣٥.

(٤) - كتاب الكلّيات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م : ١٠٣٩.

(٥) - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي : ٦ / ٤٥٤.

(٦) - العين، مصدر سابق : ٢ / ٤.

وأحداثها وما جرى فيها على آل لرسول ﷺ، وكذلك في الآخرة، إذ فيها حساب ولا عمل، ولن يكون نصيبكم حينها إلا الندم، ولات حين مندم.

(ولن ترخصوها بغسل بعدها أبداً).

الرحضُ : الغسل. وقالت عائشة في عثمان : استتابوه حتى إذا تركوه كالثوبِ الرخيص أحوالوا عليه فقتلوه^(١).

فيكون معنى قولها ﷺ، لن ترخصوها : لن تغسلوها.

ولعل المعنى : إن بعض الآثام والمعاصي الصغيرة التي يقتربها الإنسان يستطيع محاصرة مضاعفاتها بالتوبة والاستغفار. أما إذا كانت الآثام والمعاصي المرتكبة من الكبائر فإن مضاعفاتها وآثارها الدنيوية والأخروية ستجر صاحبها إلى الخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. وليس اكبر من هذه الجريمة التي ارتكبتها أهل الكوفة.

ويُحتمل أن السيدة زينب ﷺ تخبرهم بأحد احتمالين :

١/ أن جريمتهم بحق الإمام الحسين ﷺ ونسائه وأطفاله وأهل بيته وصحبه من الشدة بحيث لن ينفع معها التوبة والاستغفار، فهم خالفوا ما جاء به الكتاب والسنة في ما يتعلق بأصل من أصول الدين - أعني الإمامة والامام الذي يمثلها - التي جعلها الله تعالى ضمن المخطط الكوني لتحقيق الهدف الإلهي.. فلن يمكنهم التخلص من مضاعفات هذه الجناية العظمى مهما عللوا لفعلهم هذا من تعليل، ومهما طرح أتباعهم من مبررات على مر العصور، فقد سجل التاريخ بحقهم أبشع جريمة عرفت الإنسانية، وتعلقت بأعناقهم إلى يوم يبعثون، وما ينتظرهم في الآخرة أشد.

٢/ إنها عليها السلام تشير إلى سنة كونية، تتمثل بسنة الاستدراج، بعد أن علم الله تعالى منهم أنهم لن يوفقوا للتوبة من جرائمهم، وإن مأواهم جهنم وبئس المصير، فإن من يرتكب الكبائر عصيانياً لله تعالى، فإنه لن يوفق إلى التوبة والاستغفار، وستجره هذه المعاصي والكبائر لارتكاب المزيد، فقد ورد : (إن الله خلق قلب المؤمن نورانياً قابلاً للصفات النورانية، فإن أذنب خرج فيه نقطة سوداء، فإن تاب زالت تلك النقطة، وعاد محلها إلى نورانيته، وإن زاد في الذنب سواء كان من نوع ذلك الذنب أم من غيره، زادت نقطة أخرى سوداء، وهكذا حتى تغلب النقاط السود على جميع قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً)^(١).
وهكذا كان يدن أهل الكوفة على مر العصور.

وعلى ذلك ! هل يمكن أن نحتمل أن توبة (التوابين) قد قبلت ؟

كانت ثورة التوابين من أشهر ردود فعل الكوفيين بعد غدرهم وخيانتهم العهد مع الإمام الحسين عليه السلام، وكان أحد الدعاة الخمسة إليها وقائدها - باعتباره الأكبر سناً من بينهم (٩٣) سنة - سليمان بن صرد الخزاعي ممن لازم الإمام علي والإمام الحسن عليهما السلام، وبعد هلاك معاوية وعلمه مع أهل الكوفة برفض الإمام الحسين عليه السلام لبيعة يزيد، كانت داره هي التي احتضنت أول اجتماع رسمي لشيعة الكوفة، فذكروا هلاك معاوية، فحمدوا الله وأثنوا عليه، فقال سليمان : إن معاوية قد هلك وإن حسيناً قد نقض على القوم بيعته، وقد خرج إلى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه فان كنتم تعلمون أنكم ناصرته ومجاهدوا عدوه، فاكتبوا إليه فان خفتم الفشل والوهن فلا تغروا الرجل في نفسه.

قالوا : لا، بل نقاتل عدوه، ونقتل أنفسنا دونه، فاكتبوا إليه.

فكتبوا إليه : بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن علي من سليمان بن صُرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد البجلي، وحبيب بن مظاهر، وشيعته المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد : فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد، الذي انتزى على هذه الأمة، فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود.

إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إنشاء الله^(١).

ويدوا أن الإمام الحسين عليه السلام قد علم حقيقة نفسياتهم، ودرجة الإخلاص في نواياهم، فأجابهم عليه السلام قبل نزوله كربلاء بجواب لاذع عنفهم فيه وذكرهم بماضيهم الأسود مع أبيه وأخيه عليه السلام، إذ دعا الحسين بدواة وبيضاء وكتب إلى أشرف الكوفة ممن كان يظن أنه على رأيه : بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى سليمان بن صُرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وعبد الله بن وائل، وجماعة المؤمنين^(٢). أما بعد، فقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه واله قد قال في حياته : (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، ثم لم يغير بقول ولا فعل، كان حقيقاً على الله أن يدخله مدخله)، وقد علمتم أن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة

(١) - المصدر نفسه : ٤٤ / ٣٣٢.

(٢) - يلاحظ أن الإمام الحسين عليه السلام لم يذكر اسم حبيب بن مظاهر مع من ذكر بالرغم من أن اسمه كان ضمن من كتب الكتاب إلى الإمام عليه السلام، والظاهر إن ذلك لان الإمام كان يعلم بصدق نواياه وأنه سيكون على العهد حتى الشهادة.

الشیطان، وتولوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وإني أحق بهذا الأمر لقرايتي من رسول الله صلى الله عليه واله. وقد أتتني كتبكم وقدّمت عليّ رسلكم ببيعتمكم، أنكم لا تسلموني ولا تحذلونني، فإن وفيتم لي ببيعتمكم فقد أصبتم حظكم ورشدكم، ونفسي مع أنفسكم وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم، فلكم بي أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهودكم وخلعتم ببيعتمكم، فلعمري ما هي منكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي. والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصبيكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم.. والسلام.

ثم طوى الكتاب وختمه ودفعه إلى قيس بن مسهر الصيداوي.. ثم قال : ولما بلغ الحسين قتل قيس استعبر باكياً، ثم قال : اللهم اجعل لنا ولشيعتنا عندك منزلاً كريماً، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك إنك على كل شيء قدير.

فوثب إلى الحسين عليه السلام رجل من شيعة، يقال له هلال بن نافع البجلي، فقال : يا ابن رسول الله ! أنت تعلم أن جدك رسول الله لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب، وقد كان منهم منافقون يعدون بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمر من الحنظل، حتى قبضه الله إليه، وإن أباك علياً رحمة الله عليه، قد كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره وقتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين، حتى أتاه أجله فمضى إلى رحمة الله ورضوانه، وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده، وخلع بيعته، فلن يضر إلا نفسه، والله مغنٍ عنه، فسر بنا راشداً معافاً مشرقاً إن شئت، وإن شئت مغرباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا، نوالي من والاك، ونعادي من عاداك.

ثم وثب إليه برير بن خضير الهمداني، فقال : والله يا بن رسول الله ! لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تُقطع فيه أعضاؤنا، ثم يكون جدك شفيعنا يوم

القيامة بين أيدينا، لا أفلح قوم ضيعوا ابن بنت نبيهم، أف لهم غداً ماذا يلاقون؟، ينادون بالويل والثبور في نار جهنم. فجمع الحسين عليه السلام ولده وإخوته وأهل بيته، ثم نظر إليهم، فبكى ساعة، ثم قال : اللهم إنا عترت نبيك محمد، وقد أخرجنا وطرنا وأزعجنا عن حرم جدنا، وتعدت بنو أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقنا، وانصرنا على القوم الظالمين^(١).

لقد أوردنا الرواية بتمامها ليتبين للقاريء الكريم رأي الإمام الحسين عليه السلام وصحبه النجباء في من نقضوا العهد من (شيعة) الكوفة. وهكذا، يأتي التساؤل نفسه مع من كان مع المختار الثقفي من الكوفيين، والثورات التي تلت واقعة الطف التي اشترك فيها من خذل الإمام الحسين عليه السلام.

(وانى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ؟)

السليل : ما يُسلُّ من بطن أمه لأنه يُجَبَّدُ بالأيدي سلاً^(٢). ولعل المعنى : أنها عليها السلام تقطع عليهم كل أمل في يعودوا إلى ما قبل قتلهم الإمام الحسين عليه السلام، باعتبار أن غسل الشيء يعود به إلى ما كان عليه قبل إصابته بما علق به. أو أنهم لن يوفقوا للتوبة بعدها أبداً، وإن تابوا فلن تقبل توبتهم. فكأنها تريد ان تقول لهم : كيف تغسلون عن ذممكم، وكيف تمحون عن ملفكم الأسود آثار هذه الجريمة العظيمة، وهي قتل ابن رسول الله ﷺ وسبي نسائه وأطفاله بهذه الكيفية التي يخجل منها الكلام؟! وما هي المبررات التي يمكن أن تبرروا بها قتل سليل خاتم النبوة، بحيث تغسلون من ذممكم هذا الذنب العظيم؟!، بل يمكن أن نفهم من كلام السيدة زينب عليها السلام أن لا مجال أصلاً للاعتذار والتوبة في ارتكاب جريمة بهذا الحجم وبهذه الكيفية.

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٤ / ٣٨١.

(٢) - العين، مصدر سابق : ٢ / ٥١.

ثم أعطت ﷺ أولى صفات المقتول بسيف أهل الكوفة وغدرهم، وهي الصفات التي تعطي لهذه الجريمة صفة البشاعة، وتبرر حكمها السابق بأنهم لن يرحضوا عنهم آثار هذه الجريمة أبداً، وأولى هذه الصفات هي أن الإمام الحسين ﷺ هو سليل خاتم الأنبياء الذي ختم الله به أنبياءه ورسله.

(ومعدن الرسالة) .

وهذه هي الصفة الثانية، وفيها تشير ﷺ إلى ملاحظة مهمة جداً، وهي أن أهم معطيات الرسالة التي بُعث من أجلها النبي ﷺ وعمل جاهداً على ترسيخها في فكر الأمة، هي مسألة الإمامة، التي تمثل الامتداد الإلهي لمنجزات الرسالة المقدسة والمحافظة عليها، والتي يمثل الإمام الحسين ﷺ الممثل الشرعي لها والمنصَّب من قِبَل السماء، فقد ورد عن النبي ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى : (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإنهما إمامان قاما أو قعدا، وأبوهما خير منهما)^(١).. فأى جريمة أكبر من مواجهة هذا الأمر المهم في حياة الإسلام والمسلمين، ومناصبه العداء له، وقتاله وقتله، وسبي نسائه وذرائه بهذه الوحشية التي تتم عن حقد دفين، وبغض كبير.

نعم، إن الإمامة هي امتداد للرسالة، والإمام هو المحافظ على الرسالة ومنجزاتها، والعامل على ديمومتها واستمرارها.

ولعل هذا هو المعنى الذي عبرت عنه ﷺ، بأن الإمام الحسين ﷺ هو معدن الرسالة وجوهرها والقيمة الثابتة فيها، فالإمام هو جوهر الإمامة والممثل لها.. وقد نزل الذكر الحكيم بذلك، كما في سورة الدهر، وآية التطهير، وآية القربى، وآية

المباهلة.. وغيرها الكثير. وبه جاءت السنة الشريفة، ومنها : (حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً)^(١)، والكثير مما ملأ بطون الكتب من الفريقين. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن رجلاً مجهولاً خامل الذكر، غير معروف عند الناس، بل كان مشهوراً عند جميع المسلمين بكل ما للعظمة والجلالة والقداسة من معانٍ.

(وسيد شباب أهل الجنة).

وهذه هي الصفة الثالثة. وفيها تشير عليهما السلام إلى خصوصية مهمة من خصوصيات الإمام الحسين عليه السلام التي أعلنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مسامع الأمة، ولعلها عليهما السلام قد اختارت هذه الخصوصيات للإمام عليه السلام لعلم الناس جميعاً بها، لتعلمهم بفداحة جريمتهم، فذكرتهم بها واحدة بعد الأخرى، مشيرة بذلك إلى ما جاء به الذكر الحكيم في أهل البيت عليه السلام، وأكدته السنة النبوية الشريفة، فعن حذيفة : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبر : (أما رأيت العارض الذي عرض لي ؟. قلت : بلى. قال : ذاك ملك لم يهبط إلى الأرض قبل الساعة فاستأذن الله تعالى أن يسلم علي ويشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)^(٢).

وكانت هذه الأحاديث وأمثالها مما سمعها صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتابعيهم في مختلف البلاد الإسلامية، ووعوها جيداً، وخاصة أهل الكوفة. فأرادت عليهما السلام أن تؤكد حقيقة مهمة من خلال عرضها لتلك الخصائص للإمام الحسين، تتمثل بأن جريمة قتله لا يمكن أن تقاس بجريمة قتل غيره من الناس مهما بلغت مكانتهم، لأنها لا ترقى لمكانة الإمام والمنزلة التي كان عليها، فيكون حجم جريمة قتل من كان بتلك

(١) - المصدر نفسه : ٤٣ / ٢٦١.

(٢) - المصدر نفسه : ٣٤ / ٢٩٢.

الخصائص الإلهية أكبر وأعظم من جريمة قتل أي شخص آخر، وهذا ما يبرر قولها أنهم لن يرحضوها بغسل أبداً، كما ذكرنا آنفاً.

(وملاذ خيرتكم [حزبكم]).

الملاذ: الملجأ^(١). وهي إشارة إلى أن الإمام الحسين عليه السلام كان بالنسبة للمسلمين الحصن الآمن الذي يُحتمى به، ويُلجأ إليه في المحن والشدائد. خيرتكم: إشارة إلى النخبة من المؤمنين الأبرار من المسلمين. ولعل المعنى: إن السيدة زينب عليها السلام استمرت بذكر سلسلة من جوانب العظمة التي احتواها أخوها سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام. وهذه المرة ذكرت لهم خصائص الإمام التي تمثل خسارة عظيمة لهم قبل أي شيء آخر، لتبين للناس حجم الخسارة التي جلبوها لأنفسهم، ومضاعفاتها على كيان الأمة الإسلامية.. ومن هذه الخسائر الكثيرة التي أصابتهم بقتلهم للإمام الحسين عليه السلام هي انه كان الحصن الحصين للمؤمنين الأبرار من المسلمين، فبقتله خسر المؤمنون هذا الحصن المنيع.. ومع أن في قولها هذا عليها السلام تضيف صفة أخرى للإمام عليه السلام في الأمة الإسلامية، إلا أنها في نفس الوقت تمثل واحدة من الخسائر المهمة لهم وللمسلمين عموماً.

ومعاذ حزبكم

العياذ والمعاذ: الملجأ، ويقال العياذ بالله منه^(٢). والحزب جماعة الناس والجمع أحزاب^(٣).

(١) - كتاب العين، مصدر سابق: ٢ / ١٥٦.

(٢) - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وآخرون، تحقيق: مجمع اللغة العربية، باب النون: ٢ / ١٨٠.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق: ١ / ٣٠٨.

ولعل المعنى : إن أهل الكوفة قد خسروا خسارة أخرى بما اقترفته أيديهم من قتل الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك كانوا بفعلهم هذا سبباً لأن تخسر الأمة الإسلامية هذه الميزة، وهي أن الإمام عليه السلام كان الملجأ والمآل لهم، سواء في دنياهم باعتباره الإمام المنصب من قبل الله تعالى والقاضي لحوائجهم، وكذلك في الآخرة باعتباره الشفيع والمنقذ لهم من أهوال يوم القيامة.. فخسارتهم وخسارة الأمة بسبب جريمتهم هذه كبيرة وكبيرة جداً. وفي نفس الوقت تمثل ميزة أخرى للإمام في الأمة الإسلامية.

ومقر سلمكم وآسي كلمكم

الأسو: دواء تأسو به الجرح. وقد أسوت الجرح أسوه أسوأ، أي داوبته، فهو مأسو وآسي أيضاً. ومنه قول الشاعر:

أسى على أم الدماغ حجيج
ويقال: هذا أمر لا يؤسى كلمه. وأسوت بينهم أسوأ، أي أصلحت^(١). والكلم الجرح والجمع كلوم وكلام^(٢).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام تستمر في ذكر مميزات وخصائص الإمام الحسين عليه السلام في الأمة الإسلامية، وإن أهل الكوفة كانوا السبب المباشر في خسارة الأمة الإسلامية لهذه المميزات المهمة التي كان الأجدر بهم الاستفادة منها بدل تضييعها، فقد كان عليه السلام المقر الذي يجتمعون إليه في سلمهم، وهو الدواء الذي يداوون به ما يصيبهم من جراح الدنيا الفانية، كال فقر والمرض وما إلى ذلك.. إنها خسارة حقيقية خسرها هؤلاء الأوباش بسوء اختيارهم.

(١) - الصحاح في اللغة، الجوهري : ١ / ١٣.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٢ / ٥٢٢.

(ومفرغ نازلتكم).

مَفْرَعُ القوم، إذا فَرَعُوا إليه فيما يَدَهُمُ^(١). والنازلة : المصيبة الشديدة^(٢).
وهنا تذكر السيدة زينب عليها السلام خصيصة أخرى مهمة من الخصائص التي كان يمكن لأهل الكوفة والمسلمين عموماً الاستفادة من خلال وجود الإمام الحسين عليه السلام بينهم، لكنهم - بدل ذلك - كفروا بنعمة ربهم وخسروها بقتلهم الإمام في كربلاء. وهذه النعمة الإلهية تمثلت بكون الإمام عليه السلام كان المفزع الذي يفزع إليه المؤمنون إذا ما داهمتهم مصائب الدنيا وشدائدها، وما أعظمها من خسارة لا يسد مسدها شيء، إذ بقتله خسروا هذا المفزع، فمن ذا الذي يفزعون إليه بعد ذلك ؟.

والمرجع إليه عند مقاتلتكم

المقالة : الأمر العسير^(٣).

وهكذا كان الإمام الحسين عليه السلام بين الناس، انه المرجع الذي لا يجدون غيره من المخلوقين لكي يرجعوا إليه، فبأي عبارات يمكن أن توصف جريمة أهل الكوفة وهم يحرمون البشرية، وبدم بارد، من كل هذه النعم الإلهية التي حباها الله تعالى بها من خلال وجود الإمام الحسين عليه السلام بينهم.. ترى ! ما الفرق بينهم وبين اليهود الذين جعل القرآن الكريم من أهم خصائصهم قتل الأنبياء؟ تشابهت قلوبهم : {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} ^(٤)، وما يترتب على ذلك من خسائر فادحة لعموم البشرية !.

(١) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٤ / ٥٠١.

(٢) - المعجم الوسيط، مصدر سابق : ٢ / ٧٥٠.

(٣) - ينظر : لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٥٦٣.

(٤) - النساء : ١٥٥.

ومدره حججكم

دَرَه عَلَى الْقَوْمِ هَجَمَ. ابن الأعرابي : دَرَه فلان علينا ودراً إذا هَجَمَ من حيث لم نَحْتَسِبْهُ ودارِهَاتُ الدَّهْرِ هَوَاجِمُهُ.. مِدْرَه قَوْمِهِ المِدْرَه زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه.. وقال أبو زيد المِدرَه لسان القوم والمتكلم عنهم^(١).

وهنا تشير عليه السلام إلى دور مهم آخر لسيد الشهداء في هؤلاء القوم، وهو أنه عليه السلام كان المهاجم عنهم أعداء دينهم والراد لشبه المنافقين والكافرين.. كونه كان الخطيب المفوه والمتكلم البارع العارف بأساليب الكلام وفنونه.. فهو مرجعهم في ذلك كما كان مرجعهم في غيره، إلا إنهم لم يستوعبوا ذلك، فأخذتهم أمانيتهم الدنيوية وأحقادهم إلى ما جعلهم يخسرون وجميع المسلمين كل هذه المناقب.

(ومناز محجتكم).

المنار : العَلَمُ يُجْعَلُ لِلطَّرِيقِ^(٢).

الحُجَّةُ : الدليل والبرهان^(٣). وقال آخرون : الحجة، هي الاستقامة في النظر والمضي فيه على سنن مستقيم من رد الفرع إلى الأصل، وهي مأخوذة من الحجة وهي الطريق المستقيم^(٤).

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٣ / ٤٨٧.

(٢) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٥ / ١٣٨.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ٢٢٦.

(٤) - معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري : ١ / ١٦١.

وكلا المعنيين صحيح ويناسب مقتضى الحال في خطابها ﷺ فيما يتعلق بخصوصيات الإمام الحسين ﷺ، فهو ﷺ الدليل والبرهان على عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته ورحمته.. فهو من آياته العظمى في هذا الوجود. كما انه ﷺ الهادي إلى الطريق المستقيم والصراط القويم، فهو الإمام المنتخب والمختار من قبل الله تعالى ليكون الامتداد للرسالة المباركة لجده الرسول العظيم محمد ﷺ.

وهنا تذكر السيدة زينب ﷺ خصوصية أخرى ومهمة التي خسرها الكوفيون والأمة الإسلامية جمعاء بسبب هذه الجريمة النكراء، وهي أن الإمام الحسين ﷺ هو المنار والدليل والحجة للناس لهدايتهم إلى الصراط المستقيم الذي يدعوا جميع المسلمين الهداية له في صلاتهم اليومية {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ^(١)، وبقتلهم له قد أضاعوا فرصة كبيرة لهدايتهم لهذا الصراط.

وقديماً كان الكرماء من الناس يضعون على سطح الدار مشعلاً من نار ليلاً، ليعلم التائهون عن الطريق، أو المسافرون الذين وصلوا البلد، الذين يبحثون عن مأوى يلجأون إليه حتى يحين الصباح، أن هنا محلاً للضيافة، فيستدلوا بنور تلك النار.

إما اليوم، فإن هذه الكلمة تطلق على الأضواء الكاشفة التي توضع على أبراج المراقبة في مطارات العالم لإرشاد الطائرات إلى محل المطار، وخاصة في الليالي التي يحيم فيها الضباب على سماء المدينة، وغيرها من أبراج المراقبة. وكذلك أبراج الاتصالات وما شابه.

لقد جعل الله تعالى الإمام الحسين ﷺ مصباح الهدى، ينير الدرب لكل تائه أو متحير، ولكن أهل الكوفة والأمويون وأتباعهم كسروا ذلك المصباح، وهم غير مبالين بما ينتج عن ذلك من مضاعفات. إن من أهم نتائج كسر مصباح الهدى هو العيش على غير هدى، والتخبط في ظلام دامس من الحيرة والظلال وعدم الهداية

إلى الصراط السوي.. وهكذا كان الوضع مع أهل الكوفة بعد قتلهم الإمام الحسين عليه السلام. فالإمام الحسين لم يكن ملاذاً ومناراً مادياً فقط يلجأ إليه الفقراء والمساكين وأصحاب المشاكل وما شاكل، بل كان مناراً للباحثين عن الحقائق في أصول الدين وفروعه، وفي التربية والأخلاق ودفع الشكوك ورفع الشبهات وغيرها..
انه خليفة الله في أرضه، والمدافع عن دينه وحارسه وحاميه.. لذا كان منار حجة المسلمين.

(ومدرّة سنتكم) .

لعل المراد من (مدرّة) – هنا – مأخوذة من لفظ (مدرار) وهو المطر الغزير^(١)، قال تعالى : {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً...}{^(٢)، وهذا المعنى هو الذي يتناسب مع معنى ما أضيف إليها، وهي كلمة (سنتكم).

(السنة) : العام الذي يكون فيه القحط. والسنة والحوّل بمعنى واحد وجمعها سنون وسنونات وقد غلبت على القحط غلبة الدابة على الفرس^(٣). والسنة مطلقة السنة المجدبة^(٤).

وعلى هذا يكون معنى عبارتها عليها السلام، إن الإمام الحسين كان بالنسبة لكم وللمسلمين كالمطر الغزير في السنة المجدبة، والمطر الغزير في مثل هذا الحال يمثل بعث الحياة من جديد فيكم، إذ أن السنة المجدبة يموت فيها الزرع، وإذا مات الزرع مات

(١) - يُنظر : كتاب العين : ٢ / ١١٩ .

(٢) - هود : ٥٢ .

(٣) - يُنظر : المغرب في ترتيب المعرب، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز : ٣ /

١٠١ .

(٤) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٣ / ٥٠١ .

الحيوان، وإذا مات الزرع والحيوان مات الإنسان.. فالحسين عليه السلام كان سبب حياتكم كما كان المطر حياة الزرع والحيوان والإنسان.. وبقتلكم له خسرتم وخسرت الأمة الإسلامية هذه الحياة المعنوية، وستعيشون في هذه الدنيا بأجسادكم فقط، بلا روح لها قيمة معنوية، وسيتجسد لكم سوء فعلكم في الآخرة.

فالحسين عليه السلام به حياة القلوب، وبه غذاء الروح، وبقتله قتلتم أرواحكم وأتمم قلوبكم.. وهذه هي الخصوصية الرابعة والمهمة التي ذكرتها السيدة زينب عليها السلام لأهل الكوفة، فيا لها من خصوصية ثمينة، ويا لها من خسارة كبيرة أصابت الكوفيين والمسلمين عموماً.

(ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم وساء ما تزرُونَ ليوم بعثكم).

الوزرُ: الإثم والثقل.. قال ابن الأثير: وأكثر ما يطلق في الحديث على الذنب والإثم^(١).

وهنا صعدت السيدة زينب عليها السلام من درجة توبيخ الكوفيين والمتحالفين معهم، وذلك بأن فعلتهم هذه، وهي قتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه وسبي نسائه وأطفاله وبهذه الكيفية البشعة، هي أسوء فعلة يمكن أن يفعلها قوم على وجه الأرض، وأنها تمثل الوزر الأعظم الذي يمكن لشخص أو قوم أن يرتكبوه، ونتيجة ذلك أن المرتكب لمثل هذا الوزر لن يوفق للتوبة منه ومن غيره، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى.

وبهذا فقد أندرتهُم السيدة زينب عليها السلام بأن فعلتهم هذه في الدنيا من السوء بحيث لا يمكن غسلها بتوبة أبداً، ونتيجة ذلك الخلود في العذاب الأليم في الآخرة.

(فْتَعَسَا تَعَسًا، وَنَكَسَا نَكْسًا).

التَّعَسُ العَثْرُ، والتَّعَسُ أَنْ لَا يَتَّعِشُ العَاثِرُ مِنْ عَثَرَتِهِ وَأَنْ يَنْكَسَ فِي سَفَالٍ. وقيل التَّعَسُ الانحطاط والعُثُورُ.. يقال تَعَسَ فلانٌ يَتَعَسُ إذا أَتَعَسَهُ الله، ومعناه أَنْكَبَ فَعَثَرَ فسقط على يديه وفمه.. والتَّعَسُ أَيْضًا الهلاكُ تَعَسَ تَعَسًا وَتَعَسَ يَتَعَسُ تَعَسًا هلك.. ومعنى التَّعَسُ في كلامهم الشرُّ. وقيل التَّعَسُ البُعْدُ. وقال الرُّسْتَمِيُّ التَّعَسُ أَنْ يَخِرَّ عَلَى وَجْهِهِ. والنَّكْسُ أَنْ يَخِرَّ عَلَى رَأْسِهِ^(١). والنَّكْسُ قلب الشيء على رأسه نَكَسَهُ يَنْكُسُهُ نَكْسًا فَانْتَكَسَ وَنَكَسَ رَأْسَهُ أَمَالَهُ وَنَكَسَتْهُ تَنْكِيسًا وفي التنزيل ناكسو رؤوسهم عند ربهم والناكسُ المطأطئُ رأسه وَنَكَسَ رَأْسَهُ إِذَا طَاطَأَهُ مِنْ ذُلٍّ^(٢).

ثم بدأت السيدة زينب عليها السلام تنهال عليهم بسياط التقريع العنيف، وهي تخبرهم وتؤكد لهم هذا الجزاء الذي ينتظرهم، إنها التعاسة والانتكاسة والذلة، وماذا ينتظر أن تكون عاقبة من فرط بإمام له كل تلك الخصائص والمواصفات؟! وهل يمكن لعاقل أن يفعل ما فعله أهل الكوفة بالحسين عليه السلام بالرغم من انه جاء لهم ومن أجلهم، بل كان وجوده من اجل الإنسانية جمعاء، فمن أعطى الحق لزمرة من الأغبياء أن يحرموا الإنسانية من مثل الحسين عليه السلام؟!.

(وَبَعْدًا لَكُمْ وَسُحْقًا).

تقول العرب : بُعْدًا وَسُحْقًا، مصروفًا عن وجهه، ووجهه : أبعد الله وأسحقه، والمصروف ينصب، ليعلم أنه منقول من حال إلى حال، ألا ترى أنهم يقولون : مرحبًا وأهلاً وسهلاً، ووجهه : أرحب الله منزلك، وأهلك له، وسهله

(١) - المصدر نفسه : ٦ / ٣٢.

(٢) - المصدر نفسه : ٦ / ٢٤١.

لك^(١). ومن رفع، فقال : بُعد له وسحق، يقول : هو موصوف وصفته قوله له، مثل : غلام له، وفرس له، وإذا أدخلوا الألف واللام لم يقولوا إلا بالضم ؛ البعد له، والسحق له، والنصب في القياس جائز على معنى أنزل الله البعد له، والسحق له. والبعد على معنيين : أحدهما : ضد القرب، بُعد يبعد بعداً فهو بعيد. وباعدته مباحة، وأبعده الله : نحاه عن الخير، وباعد الله بينهما وبعد، كما تقرأ هذه الآية : {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا...} ^(٢). وبعد، قال الطرماح :

تُباعِدُ مِنَّا مَنْ نُحِبُّ اقْتِرَابَهُ وتجمعُ مِنَّا بَيْنَ أَهْلِ الظَّنَائِنِ
والمباعدة : تباعد الشيء عن الشيء.
والأبعدُ ضد الأقرب، والجمع : أقربون وأبعدون، وأبعد وأقارب.
قال :

من الناس من يَغْشَى الأبعدَ نفعه ويشقى به حتى المماتِ أقاربه
وإن يكُ خيراً فالبعيدُ يناله وإن يكُ شراً فابنُ عمِّكُ صاحبه
ويقرأ : {... بَعِدْتُ ثُمُودُ} ^(٣)، و {... بَعِدْتُ ثُمُودُ}. إلا أنهم يقولون : بُعد الرجل، وأبعده الله. والبعدُ والبُعادُ أيضاً من اللعن، كقولك : أبعده الله، أي : لا يرثي له مما نزل به. قال : وقلنا أبعدا كبعاد عاد. وهذا من قولك : بُعداً وسحقاً، والفعل منه : بُعد يبعد بعداً. وإذا أهلتها لما نزل به من سوء قلت : بُعداً له، كما قال : بُعدت ثمود، ونصبه فقال : بُعداً له لأنه جعله مصدراً، ولم يجعله اسماً. وفي لغة تميم يرفعون، وفي لغة أهل الحجاز أيضاً^(٤).

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ٩٧ / ١.

(٢) - سبأ : ١٩.

(٣) - هود : ٩٥.

(٤) - كتاب العين، مصدر سابق : ٩٧ / ١.

وَالسَّحْقُ : البُعد. ولغة أهل الحجاز بعد له وَسُحْقٌ، يجعلونه اسماً، والنَّصْبُ على الدعاء عليه، أي أَبْعَدَهُ اللهُ وَأَسْحَقَهُ^(١). بعداً : أي : أبعدكم الله تعالى.. بعداً عن رحمته وغفرانه. سحقاً بعد أشد البعد وفي التنزيل العزيز : { ... فَسُحِقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ }^(٢)، فهو سحيق وهي سحيقة^(٣).

لقد أوردنا هذا التفصيل عن المعنى اللغوي لقولها ﷺ (بعداً وسحقاً) ليُعلم مدى العمق في التقرير الذي أنزلته السيدة زينب ﷺ بهم، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ليُعلم مدى الألم والحسرة التي تعيشها السيدة زينب بسبب قتل أخيها الحسين ﷺ.

فأعلنت ﷺ لهم أن جزاء جريمتهم هذه هو البعد والطرده عن رحمة الله تعالى بما لا يرتجى العفو والمغفرة له، وهذا - لعمرى - أسوأ جزاء يمكن أن يصيب الإنسان، وذلك هو الخسران المبين.

(لقد خاب السعي، وتبت الأيدي).

خَابَ يَخِيبُ خَيْبَةً : حُرِمَ ومنه خَيْبَهُ اللهُ أَي حَرَمَهُ وَخَيْبَتْهُ أَنَا تَخَيَّبْتُ وَالحَيَّةُ : الحِرْمَانُ والخُسْرَانُ.. وخاب سعيه وأمله : لم ينل ما طلبَ والحَيَّةُ : حِرْمَانُ الجَدِّ^(٤). وحرَمَ ومنع و لم ينل ما طلب و يقال خاب سعيه و خاب أمله و خسر فهو خائب^(٥).

(١) - المصدر نفسه : ١٧٠.

(٢) - الملك : ١١.

(٣) - المعجم الوسيط، مصدر سابق : ١ / ٨٧١.

(٤) - تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي : ١ / ٤٦٩.

(٥) - المعجم الوسيط، مصدر سابق : ١ / ٥٥٠.

التَّبُّ : الخَسَارُ. والتَّبَابُ : الخُسْرَانُ والهِلَاكُ^(١).

وهذه نتيجة أخرى يتحملها أهل الكوفة بسبب قتلهم ريحانة الرسول ﷺ ، فقد خاب سعيهم ، وجميع ما قدموه لأنفسهم من عمل في هذه الحياة الدنيا بعد ما أقدموا عليه من فعلتهم النكراء هذه ، وقد رجعوا من ارض كربلاء وأيديهم خالية إلا من خيبة وخسران ليس لهما مثل ، فلن يقبل لهم بعدها عمل ، لان الله تعالى يتقبل من المتقين { ... إِنَّهَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }^(٢).

(وخسرت الصفقة)

الخُسْرُ : النقصان ، والخُسْرَانُ كذلك^(٣).

الصفقة : ضرب اليد عند البيع علامة إنفاذه و العقد و البيعة و يقال صفقة رابحة أو خاسرة و أعطاه صفقة يده عهده^(٤).

ولعل المعنى : أنكم يا أهل الكوفة خسرتم المعاملة مع ربكم التي أمركم بها ، وهي مودة أهل بيت نبيكم ، فجعل ذلك بشرى للذين آمنوا ، كما جعله من الحسنات التي تضاف إلى ميزان حسنات من يؤديها يوم القيامة : { ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ }^(٥). وخسرت المعاملة مع نبيكم الذي أوصاكم بالتمسك بعترته أهل بيته الكرام : (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا

(١) - لسان العرب ، مصدر سابق : ١ / ٢٢٦.

(٢) - المائدة : ٢٧.

(٣) - كتاب العين ، مصدر سابق : ١ / ٣٠٦.

(٤) - المعجم الوسيط ، مصدر سابق : ١ / ١٠٧٣.

(٥) - الشورى : ٢٣.

أَكْبَرُ مِنَ الْآخِرِ كَتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِثْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ^(١). وخسرت المعاملة مع أنفسكم، فرحتم تعيشون الندم والألم والتخبط في حياتكم، وستلاقون حتفكم وانتم على الضلال.. فأى خسارة أعظم من تلك الخسارة، بل أى خسارة تستحق أن يعقبها الندم والبكاء والحسرة والألم بعد هذه الخسارة.

نعم يا أهل الكوفة ! لقد خسرتم صفقتكم فبعتم آخرتكم بدنيا غيركم، وهل بعد هذا الخسران خسران ؟! وهل من العقل أن يبيع الإنسان ما أوصاه به القرآن والرسول مقابل عذاب مستمر ممزوج بالإهانة والتحقير، وبعد كل ذلك يدعي أنه مسلم ؟!؟.

لقد باع أهل الكوفة الحياة الكريمة والهائلة في ظل حكومة الإمام الحسين عليه السلام بالحياة في ظل سلطة الطغاة والظلمة المتمثلة بيزيد وجلاوزته، ولم يكتفوا بذلك، بل قتلوا الإمام الحسين عليه السلام وسبوا عياله من أجل الحفاظ على كرسي (الخلافة) الظالمة !. ولكن النتيجة ستكون الخسران المبين لصفقتكم هذه، فلن تهتئوا في ظل حكومته، فلا كرامة ولا أمان ولا حياة مستقرة !، وستوالى عليكم حكومات جائرة، فتعيشون حياةً ممزوجة بالتعاسة والذل الشامل في جميع جوانب حياتكم، وإنما الحياة الكريمة تكون في ظل حكم من اختاره الله تعالى، ويوفر للإنسان الحياة السعيدة والعزة والكرامة.

وهذه أيضاً من النتائج التي تسبب أهل الكوفة في حصولها بقتلهم الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وسبي نسائه وذراريه، ولا بد لهم أن يتحملوا وزرها وكل ما يترتب عليها في الدنيا والآخرة على المستويين الشخصي والاجتماعي.

(١) - مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني : ٢٢ / ٢٢٦.

(ويؤثم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة).

يقال : باء فلان بذنبه إذا احتمله كرها لا يستطيع دفعه عن نفسه، فقد باء به كما باءت اليهود بالغضب من الله^(١). و (الغضب) : نقيض الرضا.. وأما غضب الله فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه^(٢). و (الذل) : نقيض العز^(٣). و (المسكنة) : فقر النفس^(٤).

وهنا قرنت السيدة زينب عليها السلام كلامها بما جاء به الذكر الحكيم فيما يماثل الجريمة الشنيعة التي ارتكبوها، فعنفهم بما عنف به الله تعالى بني إسرائيل، إذ قال تعالى : {... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} ^(٥)، فيا لسوء عاقبة من كانت عاقبته في الدنيا والآخرة كعاقبة بني إسرائيل.

لقد اختص بنو إسرائيل من بين شعوب الأرض بعدة خصائص ذميمة، ومن أهمها (قتلهم النبيين)، وهنا تشير السيدة زينب عليها السلام إلى أن قتل أهل الكوفة الإمام الحسين في كربلاء سيؤدي بهم إلى نفس النتائج التي جلبها بنو إسرائيل لأنفسهم من قتلهم الأنبياء، والتي من أهمها وأبشعها على الإطلاق أن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله تعالى، " حتى قيل إنه لا يوجد يهودي مؤسر ولا فقير، غني النفس، وإن تعمد لإزالة ذلك " ^(٦).

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ٢ / ٢٠٨.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١ / ٦٤٨.

(٣) - المصدر نفسه : ١١ / ٢٥٦.

(٤) - مجمع البحرين، فجر الدين الطريحي : ٢ / ٧٦.

(٥) - سورة البقرة : ٦١.

(٦) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ٢ / ٧٦.

فقد كذب أهل الكوفة القرآن الذي أمرهم بطاعة أهل البيت كما كذب بنو إسرائيل التوراة التي أمرتهم بطاعة أنبيائهم وأوصياء أنبيائهم، ثم لم يكتفوا بالتكذيب، بل قتلوا أئمتهم عليهم السلام وهكذا فعل بنو إسرائيل بأنبيائهم وأوصياء أنبيائهم.. إن ذلك هو الكفر البواح بآيات الله الذي تسببت عنه تلك المعصية العظيمة التي أكدت السيدة زينب عليها السلام إنهم لن يستطيعوا غسلها بتوبة أبداً، فُكِّت عليهم الذلة، وقدر لهم المسكنة، بسبب كفرانهم بنعمة وجود الإمام الحسين عليه السلام والغدر به.. فالجرمة كلما كانت أعظم كلما كان غضب الله أشد، وبالتالي يكون العذاب أكثر إيلاًماً وأشد إهانةً وتحقيراً، ويكون بعد المجرم عن عفو الله وغفرانه أكثر!

(ويلكم يا أهل الكوفة ! أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم ؟) .

الفرّي : الشَّقُّ.. خَلَقْتُ الأديم ثم فَرَيْتَه، إذا أعلمت عليه علامات المقاطع ثم قطعته. وفَرَيْت الشيء بالسيف وبالشفرة : قطعته وشَقَّقْتَهُ^(١).

وهنا بدأت السيدة زينب عليها السلام بوضع النقاط على الحروف، وذلك بالتحدث عن الأبعاد الأخرى لحجم هذه الجريمة النكراء. فعادت إلى مخاطبتهم بعبارة (يا أهل الكوفة) لتركز على العديد من الحقائق المهمة التي أشرنا إليها في بداية شرح هذه الخطبة، ولكن هذه المرة لم تذكر صفاتهم الذميمة، بل وجهت لهم إنذاراً شديداً باللهجة، ضمّنته بيان مصيرهم بسبب اقتراف جريمتهم النكراء بحق الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه ونسائه وأطفاله، فأذرتهم بحلول الشر عليهم في الدنيا والآخرة بقولها (ويلكم)، فـ " الويلُ : حلول الشر " ^(٢)، لأن الإمام الحسين عليه السلام ليس شخصاً من عامة الناس، وإنما شخص له مكانة متميزة وعلى جميع المستويات،

(١) - كتاب العين، ٢ / ١٧٥.

(٢) - المصدر نفسه : ٢ / ١٩٧.

ومن أهمها ما يرتبط بعلاقته بالرسول الأكرم ﷺ، نسباً وعقيدةً، وهو ما ركزت عليه السيدة زينب عليها السلام في كلامها هنا، فقد قامت عليها بيان عظم الفاجعة وبينت مدى مساسها بصاحب الرسالة النبي محمد ﷺ، فعبرت عن مكانة الحسين عليه السلام من الرسول ﷺ بمكانة الولد من الوالد، فالعرب تكني عن الولد بأنه كبد الوالد، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أولادنا أكبادنا، صغراؤهم امراؤنا، كبراؤهم أعداؤنا، فان عاشوا فتنونا، وإن ماتوا أحزنونا)^(١). فإن حملنا كلامها عليها السلام على ظاهر معناه فهي تشير إلى العلاقة النسبية بينهما، وإن حملناه على المعنى الباطن فهي تشير إلى المعنى العقائدي، باعتبار أن تضحية الإمام الحسين عليه السلام هي ما أحيا دين الرسول وشرعه.. وكلا المعنيين صحيح.

لذا، استفهمت عليها السلام مستنكرة، لتبين عظم ما ارتكبه من جريمة، والتي تمثلت بشق كبد رسول الله ﷺ وتقطيعه. وفري الشيء فرياً : شقه وفتته^(٢).
لقد عبرت عليها السلام عن درجة ارتباط الحسين بالرسول بأنه جزء منه، بل هو الجزء الأهم، انه كبد رسول الله، ولا يعبر عن العلاقة بين شخص وآخر بهذا التعبير إلا إذا كانت العلاقة بينهما علاقة الوالد بولده.. وربت على تلك العلاقة بأن قتل الحسين عليه السلام هو في الحقيقة تفتيت وتقطيع لكبد رسول الله ﷺ على المعنى الظاهر، أو هو تفتيت لكبد الرسالة المحمدية على المعنى الآخر.

ولعلك تدرك - أيها القاريء الكريم - ما يحمله هذا التعبير في طياته من معان بلاغية، وحقائق روحانية، إذ من المعروف أن مكانة الكبد في جسم الإنسان لها غاية الأهمية فيديمومة بقاءه، وإن تعرض هذا العضو إلى خطر ما فأن بقاء الإنسان يزول وينتهي.. فكم هي درجة البغي والانحراف عند من يدعي انه خليفة الرسول ثم

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٩٧ / ١٠١.

(٢) - المعجم الوسيط، مصدر سابق : ٢٨٧ / ٢.

يخلفه بما خلف به يزيد وجلاوزته رسول الله ﷺ ؟، فهل يشك عاقل - بعد ذلك - في كفر يزيد ومن ساندته في ذلك ؟.

(وأي عهد نكثتم ؟) .

النَّكْثُ نَقْضُ مَا تَعَقَّدُهُ وَتُصْلِحُهُ مِنْ بَيْعَةٍ وَغَيْرِهَا، نَكَثَ يَنْكُثُهُ نَكْثًا فَانْتَكَثَ وَتَنَاكَثَ الْقَوْمُ عُهُودَهُمْ نَقْضُوهَا^(١).

لقد تقدم أن من الصفات الذميمة لأهل الكوفة هي نكثهم العهد، وقد ذكرنا جملة من العهود التي نكثوها، ومن أبرزها ما كان مع أمير المؤمنين عليه السلام، ثم ما كان مع ولده الإمام الحسن عليه السلام، وبعدها ما كان مع مسلم بن عقيل، ثم ما كان مع الإمام الحسين نفسه. انه مجتمع يعيش الحياة الجاهلية بكل تفاصيلها.

ومع كل تلك العهود التي نكثها أهل الكوفة، إلا أنها عليه السلام تعطي لجريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام ونكثهم عهدهم معه، بعد أن دعوهم لينصروه وأعطوه العهود والمواثيق، بأنه لا يقارن بما نكثوه من عهودهم السابقة، ويبدو أن ذلك للآثار الخطيرة التي ترتبت عليه والتي لا تقتصر عليهم فحسب، بل ستعم مساوئها البشرية إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين.. ويتضح ذلك جلياً من خلال بيانها السابق لما خسرت الإنسانية من قتل أهل الكوفة الإمام الحسين عليه السلام.

(وأي جريمة له أبرزتم ؟) .

كريمة الرجل : إبنته، فبعد أن أشارت السيدة زينب عليها السلام إلى العلاقة والارتباط بين رسول الله ﷺ والإمام الحسين عليه السلام المتمثل بمنزلة الكبد من الجسد - عادت لتشير إلى العلاقة والارتباط بينها عليها السلام وبين الرسول ﷺ، إشارة منها عليها السلام إلى فداحة الجرم الذي ارتكبه بسببها ومن معها من ذرية الرسول ﷺ، وهذا هو الجزء

الآخر المتم لجريمتهم بقتل الحسين عليه السلام، فهي ابنة الرسول، وعقيلة بني هاشم.. وقد تقدمت الإشارة في بداية شرح هذه الخطبة إلى كونها ابنة الرسول حقيقة. وسيأتي - بإذن الله تعالى - كيف أنها خاطبت الطاغية يزيد ووبخته بأنه حافظ على نسائه وأبرز بنات النبي أمام أنظار الطغاة والفاستقين عندما قالت له : (أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نساءك وإمائتك وسوقك بنات رسول الله سبايا....)، إذ أنها - هنا أيضا - عادت عليها السلام لتؤكد له ولغيره قرابتها من رسول الله ﷺ، ليعلم مدى بشاعة ما قام به يزيد وحزبه الأوباش.

لقد كانت هذه السيدة المكرمة المحترمة تعيش في دارها خلف ستار الحجاب والعفاف، وتحافظ على حجابها أكثر من محافظتها على حياتها، ولكن أهل الكوفة هجموا على خدرها وخيامها، وسلبوا حجابها، ثم أسروها وأبرزوها إلى الملأ العام ! وكانت هذه المصيبة أشد من جميع المصائب وقعاً على قلبها بعد مصيبة مقتل أخيها الإمام الحسين عليه السلام، مع أن سبي النساء كان أمراً مألوفاً في الحروب قبل الإسلام، إلا أن الأمر مختلف بعد نزول وحي الرسالة الإسلامية، ويختلف أكثر مع بنات الرسول ﷺ في نظر السيدة زينب عليها السلام، والأمر كذلك فعلاً، إذ كيف يفعل مثل هذا الفعل من يدعي انه ينتمي إلى الإسلام والى نبي الإسلام ؟! انه الكفر والغدر والمكر والنفاق من جميع جوانبه. لذا، فإنها عليها السلام قد عدت إخراجها من خدرها وإبرازها أمام الناس جريمة بحد ذاتها تضاف إلى جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام.

أيها القارئ الكريم.. تأمل قليلاً، هل يحل لشخص منا، يدعي انه مسلم، أن يفعل بزینب وبنات النبي الأخريات ما فعله يزيد بهن، ثم يطمئن انه من المسلمين ويكون له طمع بدخول الجنة ؟! تأمل ذلك جيداً، لتعرف حجم الجريمة التي أقدم عليها الكوفيون، وعظم الفاجعة التي حلت ببنات الرسول وأثرها في نفوسهن من جهة، ومن جهة أخرى مدى حجم التضحية التي قدمتها زينب عليها السلام ومن كان معها

من النساء في سبيل نصرة الدين وشرعية سيد المرسلين.. وهي رسالة إلينا جميعاً بأن الحفاظ على دين النبي والانتصار له فوق كل اعتبار آخر.

فإذا كان سلب حجاب امرأة مؤمنة عفيفة من نساء المسلمين أشد عليها من الموت، فما بالك بسلب الحجاب عن سيدة المحجبات، وفخر المخدرات زينب الكبرى عليها السلام، وكريمة سيد الرسل، وابنة سيدة النساء؟! إنها جريمة نكراء تُعد من أعظم الجرائم التي ارتكبتها أهل الكوفة بحق رسول الله قبل أن تكون بحق زينب عليها السلام!! إن الضمائر الحرة لا يمكن أن تحتل ما قام به هؤلاء الأوباش تجاه ابنة الرسول وفخر المخدرات، ما دام ذلك الفعل لا يُحتمل تجاه نساء المسلمين العاديات، بل وعامة النساء حتى من غير المسلمات، والى ذلك أشار أمير المؤمنين عليه السلام عندما بلغه ما يفعله أهل الشام بنساء الأنبار من المسلمات والمعاهدات^(١) خلال غاراتهم عليها، فقال عليه السلام: (..) وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةَ فَيَتَنَزَّعُ حَجْلَهَا وَقَلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرِعْثَهَا مَا تَمْتَنَعُ ﴿تَمْنَعُ﴾ مِنْهُ إِلَّا بِالْإِسْتِرْجَاعِ^(٢) وَالْإِسْتِرْحَامِ^(٣) ثُمَّ انْصَرَفُوا وَأَفْرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمٌ وَلَا أَرِيقَ لَهُمْ دَمٌ فَلَوْ أَنَّ أَمْرًا مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا..^(٤).

فلنتأمل جميعاً ردة فعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لو فعل بزينب وأخوات زينب ما فعل بنساء المسلمين ونساء اليهود والنصارى!، انه يقول إن الأجدر بالمسلم أن يموت خيراً له من الحياة لهذا الفعل المشين!! إذن، ما عساك أن تقول سيدي يا

(١) - نساء اليهود والنصارى الذين بينهم وبين المسلمين عهد.

(٢) - الاسترجاع : قول (إنا لله وإنا إليه راجعون).

(٣) - الاسترحام : طلب الرحمة.

(٤) - نهج البلاغة، مصدر سابق : الخطبة ٢٧.

أمير المؤمنين لو رأيت ما فعل بزینب وبنات الرسالة من قبل (المسلمين) أنفسهم
!!؟؟.

فهل يبقى مجال - بعد ذلك - أن نتكلم عنهم كمسلمين ؟!

(وأي حرمة له هتكتكم ؟).

الحرمة : المهابة. قال : وإذا كان للإنسان رَحِمٌ، وكنا نستحي منه، قلنا : له حرمة ومهابة^(١). والحرمة - بفتح الراء وضمها - : ما لا يجوز انتهاكه، وجميع ما كلف الله به بهذه الصفة، فمن خالف فقد انتهك الحرمة... والحرمة : المرأة، والجمع حرم، مثل غرفة وغرف. وحرمة الرجل : أهله^(٢).
و(الهِتْكُ) : خرقُ السَّتر عما وراءه^(٣).

وهنا تشير عليه السلام إلى جانب آخر من جوانب الارتباط بين الرسول ﷺ والإمام الحسين عليه السلام، فبعد أن كان الحسين يمثل كبد الرسول ودمه، ترتب على ذلك أن يكون انتهاك حرمة الحسين عليه السلام المتمثل بقتله وسبي كريماته وإبرازهن أمام الأجانب والهجوم عليهن في خيامهن بكل وحشية، هو - في الحقيقة - هتك حرمة رسول الله ﷺ، وفي ذلك إهانة واضحة وكبيرة لرسول الله ﷺ، وأي إهانة أكبر من هذه الإهانة ؟!

لقد تنكر أهل الكوفة للنواميس العربية والإنسانية التي كانت ترى أن المرأة لها صيانة خاصة، فمن يهتك حرمتها يتعرض للذم واللوم والرفض من الجميع. وكأن أهل الكوفة ليسوا من حضيرة العرب ولا من حضيرة الإنسانية، فبلغوا بهمجيتهم أن تنكروا لما بذله الرسول وما تحمله من اجلهم كمسلمين، فقاموا بإهانتهم بأن انتهكوا

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٢ / ١١١.

(٢) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ٦ / ٢٧.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٠ / ٥٠٢.

حرمته، بل أنهم بالغوا في ذلك، وكأنه ﷺ هو الذي أوصاهم به، بل انه لو أوصاهم به لما فعلوا أكثر منه !!.

وهل يمكن أن يجد المدافعون عن يزيد وأفعاله ما يبرر هذه الجريمة ضد حرمان النبي ﷺ إذا كانوا يبررون له قتل الإمام الحسين ﷺ بأنه خرج على (ال خليفة الشرعي)، أو انه منافس له على الحكم، أو عدااء مسبق، أو حسد أو غيرها من التبريرات..؟

(وأي دم له سفكتم ؟) .

وهنا تعود ﷺ إلى التأكيد على إثارة درجة القرابة والارتباط بين الرسول والإمام الحسين - وبنفس المعنيين الذين ذكرناهما آنفاً -، فبعد أن عبرت عنها سابقاً بأن الحسين كبد رسول الله ﷺ، عادت لتقول انه الدم الذي يسري في عروق الرسول الكريم ﷺ. وقد أكد ﷺ تلك الدرجة من الارتباط بينه وبين الإمام الحسين ﷺ بقوله : (اللهم ! إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وحامتي، لحمهم لحمي، ودمهم دمي، يؤلني ما يؤلمهم، ويحزني ما يحزنهم، أنا حرب لمن حاربهم، وسلم لمن سالمهم، وعدو لمن عاداهم، ومحب لمن أحبهم، إنهم مني وأنا منهم، فاجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك علي وعليهم، وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا...) ^(١)، وهل هناك اقرب إلى الشخص من دمه الذي يسري في عروقه والمنتشر في جميع أجزاء جسمه.

وثمة ملاحظة أخرى تتعلق بهذا التعبير، وهي أن الإنسان قد يستطيع العيش إذا فقد بعض أجزاء بدنه، إلا انه لا يمكن له العيش إطلاقاً إذا ما فقد دمه، فهو سائل الحياة واهم سبب في استمرارها، بل انه سر من أسرار خلق الكائن الحي - كما يعترف به العلم الحديث -.. وهكذا كانت علاقة الرسول ﷺ بالحسين ﷺ، بل

(١) - كلمات الإمام الحسين ﷺ، مصدر سابق : ٥٨ / ١.

هكذا كانت العلاقة المتبادلة بين الرسالة الرسول التي بُعث بها وبين الإمامة التي مثّلها الحسين عليه السلام في تلك الواقعة، ولعل هذا المعنى من ضمن المعاني التي يؤكدّها الرسول ﷺ في حديثه : (حسين مني وأنا من حسين)^(١).

لقد عدّت السيدة زينب عليها السلام الدم الذي سفكه أهل الكوفة من الإمام الحسين يوم عاشوراء هو دم رسول الله ﷺ، بل هو دم الرسالة المحمدية، وفي ذلك بيان آخر منها عليها السلام لعظم الجريمة التي ارتكبتها هؤلاء الحمقى، فأى جريمة أعظم وأبشع من جريمة إراقة دم النبي الأكرم ﷺ؟!، فإن لم يكونوا قتلوه بسيوفهم، فقد قتلوه بإراقة دمه الطاهر عندما قتلوا الإمام الحسين عليه السلام.

وفي ذلك جانب آخر من بلاغتها الفريدة التي جعلت أهل الكوفة خياراً لا يدرون ما يقولون، وبأي جواب يجيبون..، بعد أن كشفت لهم حقائق ما كانت لتغيب عنهم بهذه السهولة.

(لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً).

الإد والإدة: العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية^(٢).
وهنا تؤطر السيدة زينب عليها السلام الأوصاف الذميمة التي وصفت بها فداحة جريمة أهل الكوفة وخطورتها بتعبير قرآني خطير، وكأنها عليها السلام تريد أن تقول إن جميع تلك الأوصاف لا تفي بالغرض من وصف جريمتكم، إذ أنها ليست من قبيل الجرائم التي يمكن وصفها بتلك السهولة لما انطوت عليه من آثار لا تقارن إلا بجريمة الشرك بالله سبحانه ونسبة ما لا يجوز نسبته إليه، فبشاعة جريمة أهل الكوفة تساوي جرائم الملحدين والمشرّكين الذين نسبوا إليه الولد فنزل الذكر الحكيم بذلك الوصف

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ٣١٤.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣ / ٧١.

الرهيب بأنهم اعتقدوا بعقيدة عجيبة لو قُدر لها أن تؤدي إلى شيء لأدت إلى تفطر السماوات وانشقاق الأرض وتراكم الجبال حتى تصير أكواماً من الحجارة الصغيرة !! إذ قال تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُجِرَ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا }^(١). فساوت عليها السلام بين جريمة نسبة الولد إلى الله سبحانه وبين جريمة قتل الحسين عليه السلام وسبي ذراريه، فيا لها من جريمة تقف الكلمات خجلى دون إعطائها حقها من الوصف.

(لقد جئتم بها شوهاء) .

شوه : رجل أشوه قبيح الوجه، يقال شاه وجهه يشوه، وقد شوهه الله عز وجل فهو مشوه.
قال الحطيئة :

أرى ثم وجهاً شوه الله خلقه... فقبح من وجهه وقبح حامله
شاهت الوجوه تشوه شوهاً قبحت، وفي حديث النبي ﷺ أنه رمى المشركين يوم حنين بكف من حصى، وقال شاهت الوجوه، فهزمهم الله تعالى، قال أبو عمرو : يعني قبحت الوجوه^(٢).

وهنا تبدأ السيدة زينب عليها السلام بذكر أوصاف أخرى تحاول أن تبين من خلالها بشاعة تلك الجريمة وما تسبب فيه من آثار مأساوية، فوصفت تلك الجريمة بأنها قبيحة، لذا نجد إن كل من يستذكر تلك الجريمة فإنه يعبر عنها بأقبح ما يكون من معانٍ، وهي فعلاً كذلك.

(١) - مريم : ٨٨ - ٩٣.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٣ / ٥٠٨.

صلعاء

الصلع : ذهاب شعر الرأس من مقدمه إلى مؤخره، وكذلك إن ذهب وسطه^(١). وتسمى الداهية صلعاء، أي بارزة ظاهرة لا يخفى أمرها^(٢). ولعل المعنى : إن جريمتكم هذه لا يمكنكم تغطيتها وسترها عن العقلاء المنصفين، فهي مكشوفة من بدايتها إلى نهايتها، معروفة الأهداف والغايات، فجرمة فري كبد الرسول ﷺ، وسفك دمه، وإبراز حرائره.. تمثل داهية عظمى يستحيل سترها وتبريرها مهما كانت تلك المبررات. وبذلك، ذكرت السيدة زينب عليها السلام صفة منكرة أخرى لجريمتهم النكراء بأنها جريمة مكشوفة لا يمكن تغطيتها وسترها بأي مبرر مهما كان

عنقاء

العُنُقُ والعُنُقُ : وُصلة ما بين الرأس والجسد^(٣). والأعنق : الطويل العنق^(٤). وهكذا. ولعل المعنى : أنها عليها السلام تريد أن تبين بأن جريمتهم كانت طويلة العنق، كناية عن كثرة آثارها وتبعاتها عليهم بالخصوص وعلى الأمة الإسلامية عموماً. والعنق – بداية الشيء –، فهذه الجريمة ستكون بداية الوبال على أهل الكوفة والراضين بفعلهم، والتي لا تقف آثارها السيئة عند أهل الكوفة فقط، وإنما تعم المسلمين جميعاً.

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ١ / ١٦٦.

(٢) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٣ / ٣٠٤.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٠ / ٢٧١.

(٤) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ١٦٩.

وهذه صفة أخرى من الصفات البشعة التي أشارت إليها السيدة زينب عليها السلام لجرمة أهل الكوفة.

فقهاء

الفَقَمُ في الفم أن تدخل الأسنان العليا إلى الفم وقيل الفَقَم اختلافه وهو أن يخرج أسفل اللّحي ويدخل أعلاه فَمَ يَقَمَ فَقَمًا وهو أَفَقَمَ ثم كثر حتى صار كلُّ مُعْوجٍّ أَفَقَمَ.. والأمر الأفَقَمُ الأعوجُّ المخالف^(١).

لقد جانب أهل الكوفة الاستقامة عندما ارتكبوا جريمتهم النكراء بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وبذلك تركوا طريق الحق المستقيم ونحازوا إلى الطريق الأعوج بتركهم آل الرسول وإتباعهم آل أمية.

لم يترك أهل الكوفة - بفعلتهم هذه - أية صفة ذميمة إلا وانطبقت عليهم، وهل بعد قتل الإمام المعصوم وحجة الله على خلقه ما يستحق الذم أكثر؟!.

خرقاء

الْخَرْقُ : نقيض الرِّفْق وصاحبه أَخْرَقُ^(٢). و (خَرَقَاء) : وهي التي لا تُحَسِّنُ عملاً^(٣).

وهكذا كانت جريمة أهل الكوفة مع آل الرسول عليه السلام، كانت بعيدة عن الرفق والرحمة حتى بالطفل الرضيع، وكيف تتصف بذلك وهم يحملون ما يحملون من الحقد والبغض لآل الرسول عليه السلام ؟. إنها الصفة الذميمة الرابعة التي وصفت بها

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٢ / ٤٥٧.

(٢) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٢ / ٤٠٨.

(٣) - كتاب العين، مصدر سابق : ٢ / ١٧٢.

السيدة زينب عليها السلام جريمة الكوفيين، فما أقبح الإنسان حينما تُنزع منه الرحمة ويتحول إلى حيوان كاسر ارعن لا يحسن التصرف.

طلائع الأرض، وملء السماء

طلائع الأرض : ملء الأرض. وفي الحديث : لو كان لي طلائع الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع^(١).

ولعل المعنى : إن جريمة أهل الكوفة قد ملأت بشاعتها وسمعتها السيئة وآثارها السماوات والأرض، فكيف وبأي وسيلة سيمحو هؤلاء الأوباش آثارها السيئة التي لصقت بهم، وكيف سيدفعون عقاب جريمة هي الأفضع والأبشع في السماوات والأرض، بل كيف ستكون درجة ونوعية ذلك العذاب ؟؟ هذا ما ستجيب عنه الوقائع يوم القيامة.

إن حجم هذه الجريمة أكبر من أن تشبه أو توصف بمساحة أو حجم معين، بل لا تستوعبها السماوات والأرض. وهذه كناية عن حجم الجريمة وعواقبها التي ضاق بها الكون بسماواته وأرضه.

أو لعل المقصود هو أن المصيبة كانت مصيبة من في السماء من الملائكة والجن كما هي مصيبة من في الأرض من المؤمنين، فلقد أبكت مصيبة الحسين عليه السلام سكان السموات كما أبكت سكان الأرض ببرها ومائها.

وتحتل العبارة أيضاً معنى الخلود لتلك المصيبة والفاجعة الأليمة ما دامت السماوات والأرض، وإن كل من سيعيش على الأرض أو في السماء إلى يوم القيامة سيستشعر عظم تلك الجريمة التي ارتكبتها الكوفيون بحق آل الرسول عليهم السلام بمجرد أن يسمع بها أو يقرأ عنها، وإن لم يكن مسلماً، فإنه يشعر بالحزن والأسى،

ويعيش حالة من الاستغراب من قوم ارتكبوا بملء إرادتهم واختيارهم تلك الجريمة البشعة رغم التذكير الذي مارسه الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه معهم.

وبما أن جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام على هذه الدرجة البشاعة والإجرام، فإن خيرات وبركات بقاء الحسين وعدم قتله ستكون على تلك الدرجة من العظمة، فالأمور تُعرف بأضدادها، وهذا مما لا يروق لأعداء الدين، فأقدموا على ما أقدموا عليه. وبفعلهم هذا فتحوا باب الجريمة واسعاً ضد أي شخص مهما كان له من القداسة والتعظيم، ولن يهابوا قتله، وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام في كلام له مع جيش ابن مرجانه، إذ قال عليه السلام : (يا امة السوء ! بئسما خلفتم محمداً في عترته، أما إنكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتهابوا قتله، بل يهون عليكم عند قتلكم إياي، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني ربي بالشهادة بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون)^(١).

(أفعبتكم أن مطرت السماء دماً ؟

وفي رواية [أفعبتكم أن لم تمطر السماء دماً ؟] .

لعل أوضح حالات بكاء السماء هي إمطارها، قال تعالى : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)^(٢)، وبكاء السماء من خلال إمطارها حالة تعبر عن وجود خطب عظيم، وكلما كانت حالة الإمطار تلك بأسلوب نادر الحدوث كلما كان الخطب أعظم وأفضع، على أن ذلك لا يعني عدم وجود حالات أخرى تعبر عن هذا المعنى.. ولأن الأمر غير معتاد، فإننا سنحاول التفصيل فيه بعض الشيء ليسهل استيعابه.

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ٥٢.

(٢) - الدخان : ٢٩.

إن البكاء الذي تشير إليه الآية الشريفة هو "مجاز مرسل من عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم، لأن سبب البكاء على شيء هو المبالاة بوجوده، يعني أنه استعارة تمثيلية بعد الاستعارة المكنية بالسماء والأرض بأن شبهنا بما يصح منه الاكتراث على سبيل الكناية، واسند البكاء إليهما على سبيل التخيل، وقد كانت العرب إذا مات فيهم من له خطر وقدر عظيم يقولون بكت عليه السماء والأرض، يعني أن المصيبة بموته عمت الخلق، فبكى له الكل حتى الأرض والسماء، فإذا قالوا ما بكت عليه السماء والأرض يعنون به ما ظهر بعد ما يظهر بعده ذوي الأقدار والشرف ففيه تهكم بالكفار وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقداه فيقال له بكت عليه السماء والأرض. وقال بعضهم : هو على حقيقته ويؤيده ما روي أنه عليه السلام، قال : ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان، باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وإذا مات فقداه وبكى عليه، وتلا (فما بكت عليهم السماء.....)^(١).

إن المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاه وموضع عبادته ومن السماء مصعد عمله. وروي إذا مات الكافر استراح منه السماء والأرض والبلاد والعباد فلا تبكي عليه أرض ولا سماء. وفي الحديث : تضرعوا وابكوا فإن السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم سيكون من خشية الله "^(٢)". وفي فتح القدير "إنهما - أي السماء والأرض - لا تبكيان على كافر، وقال بعض المفسرين إن معنى الآية فما بكت عليهم أهل السماء والأرض فأقام السماء والأرض مقام أهلها، كما قال : واسأل القرية. وينصره قوله عليه السلام : إذا ولد مولود من أمتي تباشرن الملائكة بعضهم ببعض من الفرح، وإذا مات من أمتي صغير أو كبير بكت عليه الملائكة، وقال

(١) - تفسير حقي (روح البيان في تفسير القرآن)، إسماعيل حقي البروسوي : ١٣ / ٢٧٢.

(٢) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الحسن : في الكلام مضاف محذوف، أي : ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة والناس" (١).

والآية المباركة (مَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)، تتكلم عن عدم بكاء السماء على قوم فرعون الظالمين الذين استحقوا العذاب الإلهي، "إن عدم بكاء السماء يمكن أن يكون كناية عن حقارتهم، وعدم وجود ولي ولا نصير لهم ليحترق قلبه عليهم ويبيكهم، فقد كان من المتعارف بين العرب انه ماذا أرادوا تبيان أهمية مكانة من أصابته مصيبة الموت، يقولون بكى عليه السماء والأرض، وأظلمت الشمس والقمر والأرض لأنهم سيكون المؤمنون المقربين عند الله، لا الجبابرة والطواغيت كفرعون وأمثاله" (٢). "نعم لم تبك عين السماء لموت هؤلاء الضالين الظالمين ولم يحزن عليهم ضمير الشمس، وكأنما لم تكن لديهم أدنى علاقة بعالم الوجود ودنيا البشرية، فلما طرد هؤلاء الأجانب من العالم لم يحس احد بخلو مكانهم منهم، ولم يشعر احد بفقدهم، لا على وجه الأرض ولا في أطراف السماء، ولا في أعماق قلوب البشر، ولذلك لم تذرف عين احد دمعة لموتهم" (٣).

" فقد ورد عن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما مر على المدائن ورأى آثار كسرى مشرفة على السقوط والانهيار انشد احد أصحابه الذين كانوا معه :

جرت الرياح على رسومهم
فكانهم كانوا على ميعاد
فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أفلا قلت، كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين... فما بكى عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين" (٤).

(١) - فتح القدير في روائع التفسير، رياض بن محمد المسميري : ٦ / ٤٢٩.

(٢) - الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٦ / ١٣٦.

(٣) - المصدر نفسه : ١٦ / ١٤٨.

(٤) - تفسير الكشاف، الزمخشري : ٣ / ٥٠٤.

فمن خلال منطوق الآية الشريفة (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) نستدل على عدم بكاء السماء والأرض على الكافر. أما مفهوماً فإنها يدل على بكاء السماء والأرض على المؤمن.. ويؤيده ما ورد عن رسول الله ﷺ في الكشف: (ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه ألا بكت عليه السماء والأرض) ^(١).

وأيضاً روي في تفسير الفخر الرازي (ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقدها وبكى عليه) ^(٢).

وقد اهتمت السنة الشريفة بذكر ما يتعرض له الأولياء والصالحون من خلال الأقوال والأفعال فقد ورد عن رسول الله ﷺ الكثير من الأحاديث في هذا المجال. لأن الأولياء والصالحين هم أنوار تمشي على الأرض وهم نبراس لهداية الناس.

فقد جاء عن النبي ﷺ: إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيامة قيل: من هم يا رسول؟ قال هم الذين إذا أفسد الناس صلحوا، فقد بكت السماء والأرض لموت وما تعرض له الأولياء والصالحون وبكت الحيتان والطير والهوام. ^(٣).

وقال محمد بن علي الترمذي: البكاء إدراك الشيء فإذا أدركت العين بمائها قيل بكت وإذا أدركت الأرض بغبرتها قيل بكت لأن المؤمن نور ومعه نور الله فالأرض مضيئة بنوره وان غاب عن عينيك فأن فقد نور المؤمن أغبرت فدرت باغبرارها لأنها

(١) - المصدر نفسه: ٦ / ٢٦٤.

(٢) - تفسير الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي: ٩ / ٢٢٣.

(٣) - ينظر: تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله: ١٦ / ١٢٠.

كانت غرباء بخطايا أهل الشرك وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن فإذا قبض المؤمن منها درت بغبرتها (١).

فالسما والأرض لم تبكي لموت هؤلاء لأنه لم يكن لهم من القدر والخطر ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن، أو يسكن متحرك، فلا الخضراء بسببهم اغبرت ولا الغبراء لغيتهم اخضرت، لم يبق منهم عين ولا اثر، ولم يظهر من قبلهم على قلب احد من عبادنا اثر. وكيف تبكي السماء لفقد من لم تستبشر به من قبل ؟ بعكس المؤمن الذي تسر السماء بصعود عمله إليها، فأنها تبكي عند غيابه وفقده (٢).

و " قول رسول الله ص في الحسين عليه السلام انه يقتل مظلوماً، وقد استقبل ولادته بذرف الدموع الساخنة عليه وليس من شك يأتي قول النبي هذا وبكاؤه تأييداً لموقف الحسين وتصويماً لموقفه الذي يتألف من ركنين، هما : رفضه البيعة أو الموت، فيختار الموت على البيعة، في قبال من يحاول أن يضع اللوم على الحسين في عدم تقديره للظروف وتعريضه لنفسه وأهل بيته لنكبة قل نظيرها في التاريخ (٣). فكان هذا الاختيار هو دفع منكر من المنكرات التي يخاف منها على أساس الدين وثوابته وجوهره، فيجب بذل الغالي والنفيس من اجل ذلك، وقد عبر عليه السلام عن موقفه هذا بقوله (على الإسلام السلام إذا ابتليت الأمة براع مثل يزيد) (٤)، لان الناس على دين ملوكها.

وقد وردت في مصادر الشيعة العديد من الروايات والأخبار التي تتحدث عن بكاء السماء على الأولياء والصالحين، ذكرنا بعضها في طيات الكلام السابق ونكتفي بذكر بعضها لكفايته ببيان المقصود. فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام : (إذا مات

(١) - المصدر نفسه : ١٢١.

(٢) - تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري : ٧ / ٢٣٩.

(٣) - الحسين في مواجهة الضلال الأموي، السيد سامي البدري : ٤٩٤.

(٤) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٤ / ٣٢٦.

المؤمن بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض التي كان يعبد الله عليها، وأبواب السماء التي كان يصعد بأعماله فيها^(١)، وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام، قال : (إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض التي كان يعبد الله عز وجل فيها والباب الذي كان منه عمله وموضع سجوده)^(٢). وعن علي بن إبراهيم قال حدثني أبي عن حنان بن سدير عن عبد الله بن الفضيل الهمداني عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال : مر عليه رجل عدو لله ولرسوله، فقال : فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين. ثم مر عليه الحسين بن علي عليه السلام فقال : لكن هذا ليكن عليه السماء والأرض، وقال : وما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا عليه السلام والحسين بن علي عليه السلام^(٣).

ولم يقتصر ورود مثل هذه الاخبار والروايات على مصادر الشيعة فقط، بل ورد في مصادر المذاهب الإسلامية الأخرى العديد من الروايات والأخبار التي تؤكد بكاء السماء على أولياء الله الصالحين، نذكر بعض منها. فقد ورد عن انس بن مالك عن النبي ﷺ انه قال : ما من عبد إلا له في السماء بابان، باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقدها وبكى عليه، وتلا هذه الآية : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين). وذلك أنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم، ولم يصعد من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكي^(٤). وفي الكشف : (ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض)^(٥).

(١) - ميزان الحكمة، محمدي الريشهري : ٥ / ٣٠٠.

(٢) - تفسير الميزان، مصدر سابق : ١٨ / ١٤٥.

(٣) - تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي : ٥٩٠.

(٤) - الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أحمد أبو إسحاق الثعلبي : ١٢ / ١٢٢.

(٥) - الكشف، مصدر سابق : ٣ / ٥٠٤.

و " قال عطاء والسدي : بكاء السماء حمرة أطرافها. وعن زيد بن أبي زياد لما قتل الحسين بن علي (رض) أحمر له آفاق السماء اشهر واحمرارها بكاءؤها. وعن ابن سيرين، خبرونا أن الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين (رض). أي أنها زادت زيادة ظاهرة وإلا فأنها قد كانت قبل قتله^(١). و " عن سعيد بن جبير، قال : أتى ابن عباس رجل فقال : يا أبا عباس أرأيت قول الله تبارك وتعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) فهل تبكي السماء والأرض على احد ؟. قال : نعم، انه ليس احد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا ما المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ، ويذكر الله فيها بكت عليه، وان قوم فرعون لم يكن في الأرض آثار صالحة، ولم يصعد إلى السماء منهم خير. قال : فلم تبك عليهم السماء والأرض^(٢). وروي أيضا : إن المؤمن إذا مات بكى عليه معالم سجوده من الأرض، ومصعد عمله من السماء أربعين يوما وليلة^(٣).

كيف كان بكاء السماء ؟

روى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام انه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي عليه السلام أربعين صباحا ولم تبك إلا عليهما. قلت وما بكاءؤها ؟ قال : كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء^(٤).

١ - تفسير حقي، مصدر سابق : ١٣ / ٢٧٢.

(٢) - تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١ : ٢٢ / ٢٣٢.

(٣) - تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج، المنشورات العلمية - بيروت، تحقيق : عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي : ٤ / ٢٣٢.

(٤) - مجمع البيان، أبو علي الفضل أبو الحسن الطبرسي : ٩ / ١٠٩.

ومن الجدير بالذكر إن السماء لم تبك إلا على اثنين، هما الحسين بن علي عليهما السلام ويحيى بن زكريا عليهما السلام، كما جاء في الأحاديث والروايات من طرق الفريقين. وقد نقلنا آنفاً ما يدل على ذلك في رواية علي بن إبراهيم قال حدثني أبي عن حنان بن سدير عن عبد الله بن الفضيل الهمداني عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال : مر عليه رجل عدو لله ولرسوله، فقال : فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين. ثم مر عليه الحسين بن علي عليه السلام فقال : لكن هذا ليكيك عليه السماء والأرض، وقال : وما بكت السماء والأرض إلا على يحيى بن زكريا عليه السلام والحسين بن علي عليه السلام ^(١). وروي أيضاً عن زرارة بن أعين عن الصادق عليه السلام قال : بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي عليهم السلام أربعين صباحاً ولم تبك إلا عليهما.

قلت : ما بكاؤها ؟

قال : كانت الشمس تطلع حمراء وتغيب حمراء ^(٢).

وفي الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب عن إبراهيم، قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قيل لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه وحيث يصعد عمله.. قال : وتدرى ما بكاء السماء ؟

قال : لا.

قال : تحمر وتصير وردة كالدهان. إن يحيى بن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن علي يوم قتل احمرت السماء ^(٣).

(١) - تفسير القمي، مصدر سابق : ٥٩٠.

(٢) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ١٠ / ٤٨٠.

(٣) - الدر المنثور في التأويل بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي : ٧ / ٤١٤.

وجاء في كتاب العمدة : (إن الحمرة التي تكون مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين)^(١).

لقد أشرنا الى إن نفي القران الكريم بكاء السماء والأرض عل قوم فرعون بسبب عدم إيمانهم يدلل بالمفهوم على إن السماء والأرض لتبكي على المؤمن، وقد أيدت الروايات المتظافرة من مصادر الفريقين ذلك والتي اشرنا إلى بعضها في طيات كلامنا آنفاً. ولعل من ابرز وأوضح مصاديق المؤمنين هو الإمام الحسين بن علي عليه السلام، فلا يكون غريباً أن تبكي السماء سيد الشهداء كما أشارت الروايات التي ذكرناها سابقاً إلى ذلك، بل إن مصادر الديانات الأخرى قد أشارت الى ذلك أيضاً، كما في كتاب يعد من المصادر المسيحية بعنوان (ذي انكل ساكسون كرونكل)^(٢)، الذي ذكر فيه وجود الدم في نفس السنة التي قتل فيها الحسين عليه السلام في بريطانيا. إن ذلك يدلل على وجود سنة إلهية تكوينية على إقامة العزاء على سيد الشهداء عليه السلام. فالبكاء وإقامة العزاء واستذكار مصيبتة عليه السلام سنة إلهية تكوينية قبل أن تكون سنة نبوية شريفة^(٣).

وكيف ما كان، فإن هذا المطر هو بمثابة الحدث الكوني للتعبير عن فظاعة ووحشية الفعل الذي أقدم عليه قتلة الإمام الحسين عليه السلام، واستنكاراً لهذه الجريمة النكراء.. هذا من جهة.

(١) - العمدة، أبو الحسين يحيى بن الحسن : ٤١٤ / ١.

(٢) - كتابه المؤلف سنة ١٩٥٤ م، وهو يحوي الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة البريطانية منذ عهد المسيح عليه السلام، حتى يأتي على ذكر أحداث سنة ٦٨٥ م التي تقابل سنة ٦١ هـ فيذكر المؤلف أن في هذه السنة مطرت السماء دماً، وأصبح الناس في بريطانيا فوجدوا البهائم وأزبادهم قد تحولت إلى دم، هذا وإن الكاتب لم يجد لهذه الظاهرة تفسيراً، وإنما كان يتكلم عن حادثة غريبة وقعت في بريطانيا. (نقلاً عن الشعائر الحسينية، ج٢، ص ٢٠).

(٣) - الشعائر الحسينية، محاضرات الشيخ أحمد الماحوزي، إعداد وتدوين : بشار الداود راضي حبيب، دار أهل الذكر : ٢ / ٢١.

أما على ما ورد في رواية أخرى (أفعببتم أن لم تمطر السماء دماً)، فلعل المعنى : إن السيدة زينب عليها السلام تخبر بأن جريمة قتل الإمام وسبي ذراريه لو أنها قوبلت بأغرب ردود الفعل وان كانت على مستوى التكوين، فإن ذلك ليس بمستغرب !! وهنا تقف العقول حيرى في فهم ما جرى يوم عاشوراء وما بعده، والأغرب من إمطار السماء دماً هو كيف أقدم هؤلاء القوم على ارتكاب جريمة بهذا الحجم بحيث أن ردة فعل السماء بأن تمطر دماً لا يكون مستغرباً في قبالها ؟! فهل يبقى شك بأنها أبشع جريمة وأقبح فعل عرفته البشرية.

إن في ذلك رسالة سماوية واضحة على أن عذاب هؤلاء في السماء سيكون شديداً بحيث انه غير معهود لديهم من أنواع العذاب التي سمعوا بها بعد أن يأخذوا نصيبهم من العذاب وضنك العيش والخوف والذل في الدنيا وينتقلوا إلى حيث الخلود في عذاب من نوع فريد.

(ولعذاب الآخرة أذى وهم لا ينصرون) .

قال الليث: الخزي: السوء^(١). الخزي الفضيحة وقد خزي يخزي خزيًا إذا افتضح .. والخزية البلية يوقع فيها^(٢).

لا يقارن بعذاب الآخرة غيره من العذاب، وهذا ما صرحت به العديد من الآيات الكريمة، ومنها ما استفادته السيدة زينب عليها السلام في خطابها هذا، قال تعالى : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لَّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ }^(٣).

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٣ / ٩ .

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٤ / ٢٢٦ .

(٣) - فصلت : ١٦ .

ومن لطيف استخدامها عليها السلام لهذا التعبير أنها أشارت إلى حقيقة ينبغي الالتفات إليها، إذ أنها قرنت جريمة أهل الكوفة بتكذيبهم الإمام الحسين وقتلهم إياه بجرائم عاد وثمود الذي كذبوا الرسل واستكبروا عن امر ربهم، فكان عذابهم واحد من هذه الجهة، فهذه الآية جزء من آيات تتحدث عن جرائم عاد وثمود، قال تعالى : {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ. إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَنَنْذِقَهُمْ عَذَابَ الْحُزْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ. وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْشِدُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ. وَقَيِّضْنَا لَهُمْ

قُرْنَا فَرَزَيْنَا لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ وَمَا أَفْتَيْنَا مِنْهُمْ إِلَّا بِمَا يَدَّعُونَ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ^(١).

إنها عليها السلام تخبرهم بأن العذاب الذي ينتظرهم أشد مما سيتعرضون له من عذاب في هذه الحياة الدنيا من ضنك العيش والذل والهوان وما سيكون من إلقاء بأسهم بينهم حتى لا يرون الحياة الكريمة بعد ذلك أبداً بقتلهم الإمام الحسين عليه السلام وسبي ذريته.

ثم - بعد ذلك - قد يبحث المجرم المرتكب لمثل هذه الجرائم عمن ينصره أو يشفع له في أمر معين، وهذه مسألة واردة، إلا أنه ينبغي أن يعلم أن الناصر والشفيع والمتجاوز عن ذنوب العباد وجرائمهم يوم القيامة هو الله تعالى وحده ومن ارتضى لهم الشفاعة، فإذا كان المجرم يوم القيامة ممن حارب الله ورسوله وأهل بيته الكرام الذين هم الشفعاء يوم القيامة، فهل سيجد له ناصراً أو شافعاً بعد هؤلاء ؟. لقد أجاب القرآن الكريم في نفس الآية التي صكت السيدة زينب أسماهم بها بأنهم لا يُنصرون.

إنها عليها السلام تبشرهم بعذاب محيط لا يمكن الفرار منه ومع عدم وجود الناصر لهم. إنه الغضب الإلهي الذي باؤوا به، إذ أنها تخبرهم بأنهم لن يجدوا من ينصرهم وينجيهم من العذاب الأليم يوم القيامة - حالهم في ذلك حال الأقوام الذين كفروا بربهم وقتلوا الأنبياء -، لأن طرف النزاع هو الرب العظيم الذي خالفوا ما أوجبه عليهم في كتابه الكريم، ورسوله الأمين محمد ﷺ، وكذلك الإمام المقتول ظلماً، ومن كان الله ورسوله وأهل بيته خصماء يوم القيامة فما له من ولي ولا شفيع ولا نصير، قال تعالى : {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ وَلَهُوَ غَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا

يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ^(١)، والآيات الواردة بهذا المضمون كثيرة، كلها تؤكد أن لا يمكن التنازل عن مثل هذا الحق، لأن هذه الذرية الطاهرة تمثل ثروة دينية وإنسانية واجتماعية واقتصادية ووطنية، ولا يحق لمجموعة من شواذ البشرية أن تحرم الإنسانية من هذه الثروة، ومن الطبيعي أن تكون العقوبة المترتبة على ذلك من الشدة والقسوة بمثل ما وعد الله تعالى عليه هؤلاء الشواذ، فلا تشملهم الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء، إذ أنهم غير مستحقين لها، كما أن نوعية الجريمة وحجمها ومضاعفاتها تأبى شمول الغفران والعفو الإلهي لها.

وهذا أسلوب آخر من كلامها ﷺ يوضح مدى البشاعة التي كانت عليها جريمتهم بقتل الإمام الحسين ﷺ وسبي نسائه وذرائه. لقد ضرب المجرمون أسوأ الأمثلة في الغدر والجناية ضد ذرية من هو أشرف الخلق وحبيب رب العالمين.

فلا يستخفنكم المهل

المَهْلُ والمَهْلُ والمُهْلَةُ كله السَّكِينَةُ والتَّوَدُّة والرَّفْقُ، وأمَّهله أنظره ورفق به ولم يعجل عليه، ومَهْلُهُ تمهِيلاً : أَجَلُهُ، والاستِمْهَالُ : الاستنظار^(٢). ولعل المعنى : إن ذلك تحذير منها ﷺ وإنذار شديد بأن ما حل بنا أهل البيت على أيديكم ليس نهاية الأمر، فرحتم تعبرون عن شعوركم بزهو الانتصار وفرحكم بذلك، إنما هو إمهال لكم واستدراج لتزدادوا إثماً.

(١) - الأنعام : ٧٠.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١١ / ٦٣٣.

وهنا إشارة مهمة منها ﷺ إلى سنتين إلهيتين مهمتين لهما أثرهما في الحياة الدنيا وفي الآخرة، الأولى هي سنة الاستدراج، والثانية هي سنة الإمهال، وقد أشار تعالى في كتابه الكريم إلى كلتا السنتين، فإلى سنة الاستدراج أشار تعالى في مثل قوله : {فَدَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} (١). وإلى سنة الإمهال أشار في مثل قوله تعالى : {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ} (٢).

وسياتي - إن شاء الله تعالى - أنها ﷺ قد أشارت إلى هذا المعنى أيضاً خلال كلامها مع الطاغية يزيد، حينما قالت له : (.. أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض وضيقت علينا آفاق السماء، فأصبحنا لك في أسار، نساق إليك سوقاً في قطار، وأنت علينا ذو اقتدار، أن بنا من الله هواناً، وعليك منه كرامة وامتناناً، إن ذلك لعظم خطرك وجلالة قدرك ؟! فشمخت بأنفك، تضرب أصدريك فرحاً، وتنفض مذكورك مرحاً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لديك متسقة، وحين صفى لك ملكنا، وخلص لك سلطاننا. فمهلاً مهلاً، لا تطش جهلاً، أنسيت قول الله عز وجل : {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (٣).

فلا يصير الإمهال والتأخير في الانتقام منكم - يا أهل الكوفة - سبباً لحفة نفوسكم وفرحها وانتعاشها، فياخذكم زهو الانتصار والظفر.. لأن - في الحقيقة - فرحكم وزهوكم هذا سيعقبه العذاب الأليم، عاجلاً أم آجلاً، فهذا ليس انتصاراً

(١) - القلم : ٤٤.

(٢) - إبراهيم : ٤٢ - ٤٣.

(٣) - آل عمران : ١٧٨.

حقيقياً، بل هو سراب مؤقت زائل، ف (لا خير في لذة لا تبقى)^(١)، كما انه (لا خير في لذة توجب ندماً، وشهوة تعقب ألماً)^(٢).

إنها تحبرهم بأن الإمهال لا يدل بالضرورة على الإهمال، فإن الله تعالى قد يمهل، ولكنه سبحانه لا يهمل، وبناءً على هذا، لا يكون الإمهال سبباً لفهم خاطئ منكم بأن سبب تأخير العقاب عنكم هي أن فعلكم لا يعد جريمة، وأنكم على صواب في فعلكم هذا، بل إن الله تعالى قد جعل الدنيا دار اختبار وابتلاء لجميع الناس، سواءً منهم الأخيار أو الأشرار، وإن الأخيار يأخذون ثوابهم والأشرار ينالهم عقابهم عاجلاً أم آجلاً.. فعدم تعجيل العقوبة لا يعني أن الأمور كما فهمتموها بأنكم على الحق وإن الله تعالى قد أيدكم على فعلكم هذا، فقد يؤخر الله سبحانه الجزاء لحكمة يعلمها، فإن كان لا يعجل فإنه بالمرصاد، ف (إنما يعجل من يخاف الفوت)^(٣)، وروى أبو بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: قال جبرئيل: قلت: يا رب! تدع فرعون وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟! فقال: إنما يقول هذا مثلك، من يخاف الفوت^(٤)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (وَلَيْتَنَّا أَهْلُ الظَّالِمِ فَلَن يَفُوتَ أَخْذُهُ وَهُوَ لَهُ بِالْمَرِصَادِ...) ^(٥).

وبذلك تؤكد السيدة زينب عليها السلام لأهل الكوفة إن الله تعالى سواءً لديه يعجل أو لا يعجل، وإنما يعجل لحكمه ويمهل لحكمته، فهو الحكيم العليم، وهو سبحانه لا يخشى أن يفوته شيء لكي يعجل، فهو ليس كالمخلوقين، فعدم نزول العذاب الإلهي عليكم ليس سببه الإهمال، لأن الله تعالى لا تدفعه العجلة إلى إنزال العذاب، ومن الحكمة أحياناً تعجيل العذاب، ومن الحكمة أحياناً أخرى تأخير العذاب، ونفس

(١) - غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد بن محمد تيمى آمدى: ١ / ٨٦.

(٢) - المصدر نفسه: ١ / ٢١٠.

(٣) - بحار الأنوار، مصدر سابق: ٢٣، ٣٩٥.

(٤) - المصدر نفسه: ١٣ / ١٢٩.

(٥) - نهج البلاغة، مصدر سابق: الخطبة ٩٥.

الشيء يقال للثواب، فاختيار التوقيت المناسب لنزول العذاب أو الثواب، واختيار نوعيته ودرجته خاضعه لثوابت إلهية تتمثل بالعلم والحكمة الإلهيين. وثمة ملاحظة أخرى تختص بها الأمة الإسلامية دون سائر الأمم، وهي أنها لا تتعرض إلى العذابات الدنيوية كما كانت الأمم الأخرى تتعرض للكثير منها، وذلك إكراماً للنبي ﷺ. وإن كان هذا الأمر ليس هو السبب الأساس في تأخير العذاب على أهل الكوفة، وإنما الأقرب ما ذكرناه من الإمهال والاستدراج الإلهي لهم ليزدادوا إثماً.

ومع ذلك، فإنه يمكن الجمع بين السببين، فيكون عدم إنزال العذاب على الأمة الإسلامية في الدنيا قد أدى إلى فهم خاطيء لدى أهل الكوفة فأخذتهم العزة بالإثم وظنوا أن الأمور في صالحهم. إن الله تعالى بعلمه وحكمته يعرف متى ينزل العقاب، ومتى يكون التوقيت المناسب لذلك.

(فإنه عز وجل من لا يحضره البدار).

الحَفَزُ: حَثُّ الشَّيْءِ مِنْ خَلْفِهِ سَوَقًا أَوْ غَيْرِ سَوَقٍ.. وَالْحَفْزُ الْحَثُّ وَالْإِعْجَالُ.. وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ أُنِيَ بِتَمَرٍ فَجَعَلَ يَقْسِمُهُ وَهُوَ مُحْتَفِزٌ، أَيِ مُسْتَعِجِلٌ^(١).

وَبَدَرْتُ إِلَى الشَّيْءِ أَبْدُرُ بَدُورًا: أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ بَادَرْتُ إِلَيْهِ. وَتَبَادَرَ الْقَوْمُ: تَسَارَعُوا. وَابْتَدَرُوا السَّلَاحَ: تَسَارَعُوا إِلَى أَخْذِهِ^(٢).

ولعل المعنى: إن الله تعالى ليس كالآدميين، فإنه لا يحثه شيء على أن يعجل في إنزال العقوبة والانتقام، لوجود حكم كونية، ولعدم خوف الفوت، فلا يفلت من

(١) - لسان العرب، مصدر سابق: ٥ / ٣٣٧.

(٢) - الصحاح في اللغة، مصدر سابق: ١ / ٣٤.

قبضته مجرم مهما توهم الطغاة والظالمين ذلك بسبب تأخير العقوبة. وإلى ذلك يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل، إذ يقول : (ولا يمكن الفرار من حكومتك).

(ولا يخشى عليه فوت الثار).

الفوت : يدلُّ على خلاف إدراك الشيء والوصول إليه. يقال : فاته الشيء فوتاً. وتفاوت الشئان : تباعد ما بينهما، أي لم يدرك هذا ذاك^(١).
الثار والثورة : الدحل. قال ابن سيده : الثار، الطلب بالدم. وقيل الدم نفسه^(٢).

وهذا أيضاً من خواص المخلوقين ولا ينطبق على الخالق العالم القادر الحكيم، فالله تعالى لا يفوته شيء، وإنما يُعجلُ الحكمة ويؤجل الحكمة، ف (إنما يعجل من يخاف الفوت) كما نقلنا آنفاً. وعلى ذلك فإن الله تعالى لا يخشى أن يفوته الأخذ بثار الحسين عليه السلام، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ما أكدّه المعصومين عليهم السلام في زياراتهم وأدعيتهم، ومن ذلك ما ورد في زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعروفة بزيارة وارث : (السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره)، وسيأتي اليوم الذي يأخذ الله تعالى فيه ثار الإمام الحسين عليه السلام في الدنيا قبل حلول ما توعدهم به من العذاب الأليم في الآخرة. نعم، سيأتي يوم الظهور المبارك وسيكون الأخذ بثار الإمام الحسين عليه السلام هو القضية المركزية – إن صح التعبير – حينئذ. كما إن ذلك من أهم مقتضيات (الرجعة) التي ستكون في قادم الأيام.. وليس هنا محل الكلام عن ذلك، ومن أراد الإطلاع على عقيدة (الرجعة) فليطلب ذلك من مضانّه في كتب العقيدة.

(١) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٤ / ٤٥٧.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٩٧.

إن ذكر السيدة زينب عليها السلام لهذه الموارد المتعلقة بالعلم والقدرة والحكمة الإلهية تتم بوضوح عن الجهل الذي يعيشه أهل الكوفة وأسيادهم بالخواص والصفات الإلهية، وقلة - وربما - انعدام المعرفة الإلهية لديهم بأبسط درجاتها، والتي ينبغي أن يتوفر عليها كل المسلمين وبمختلف مستوياتهم، لأنها من أبجديات الإيمان بالله تعالى، وعدم معرفتهم بها يعني أن إسلامهم إسلاماً شكلياً لا قيمة حقيقية له.

وبهذا فقد فضحت السيدة زينب عليها السلام حقيقة الدين الذي يدين به هؤلاء، وأنهم يعبدون الله على حرف، ولم يصلوا بتدينهم هذا إلى جوهره الحقيقي، ولا للمعرفة المطلوبة للتدين ولو بأبسط درجاتها.

(كلا، إن ربك لبالمرصاد) .

الراصدُ بالشيء : الراقب له.. والإرصاد : الانتظار.. روى أبو عبيد عن الأصمعي والكسائي : رَصَدْتُ فلاناً أرصده إذا ترقبته، وأرصدت له شيئاً أرصده أعددت له.. والمرصادُ عند العرب : الطريق، قال الله عز وجل : {وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} ^(١)، قال الفراء معناه : واقعدوا لهم على طريقهم إلى البيت الحرام.. وقال الأعمش في قوله : {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ} ^(٢)، قال : المرصاد ثلاثة جُصور خلف الصراط، جسر عليه الأمانة، وجسر عليه الرحم، وجسر عليه الرب. وقال تعالى : {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} ^(٣)، أي ترصد الكفار ^(٤).

ولعل المعنى : إن السيدة زينب عليها السلام تؤكد هذه الحقيقة، بأن الله تعالى، وإن كان يمهّل الظالمين والطغاة على ظلمهم وطغيانهم، إلا أنه يترصد ويعلم بجميع أفعالهم تلك، وأنه سبحانه سيكون موجوداً في جميع الأماكن التي سيمر منها

(١) - التوبة : ٥.

(٢) - الفجر : ١٤.

(٣) - النبأ : ٢١.

(٤) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣ / ١٧٧.

الإنسان يوم القيامة، وسيكون بانتظارهم على جميع العقبات التي لا بد لجميع البشر المرور منها، فهو بانتظارهم عند نزعات الموت، وفي القبر، وعند المحشر، وعلى الصراط.. وانه لن ينسى من جرائمهم شيء، وسيأتي اليوم الذي يعاقبهم عليها، وينتقم من الظالم للمظلوم مهما كان ذلك الظلم بسيطاً وقليلًا، فكيف إذا كان ذلك الظلم قد نال النبي ﷺ في عترته وريحاته من الدنيا الإمام الحسين عليه السلام، ونال بناته وكرمياته؟؟!!، ترى كيف سيكون عقاب هؤلاء الطواغيت يوم القيامة؟

هذا ما لا تستطيع الألفاظ وصفه، وسترى الكائنات جميعاً يوم القيامة ما سيجري في محكمة العدل الإلهي وإنزال القصاص العادل بهم.

وبعد أن رأى الإمام زين العابدين عليه السلام أن عمته علياً قد أدت ما يجب في ذلك الوضع، وإن الأمور قد لا تساعد على استمرارها في الخطاب حفاظاً على حياتها أو لأسباب أخرى، قال لها: (اسكتي يا عمّة، فأنت بحمد الله عالمة غير معلّمة، وفهمة غير مفهمة).

قال الراوي : فوالله لقد رأيت الناس - يومئذ - حيارى يكون، وقد وضعوا أيديهم في أفواههم^(١)، ورأيت شيخاً واقفاً إلى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته، وهو يقول : (بأبي أأنتم وأمي !! كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل لا يخزي ولا ييزى)^(٢).

ولعل هذه أولى نتائج الدور الزينبي المباشرة.

إلى هنا إنتهى ما وقفنا لبيان من خطبة السيدة زينب عليها السلام في أهل الكوفة.

(١) - لعل هذه أولى علامات تأثير خطاب السيدة زينب عليها السلام في أهل الكوفة، وهي علامة على الحيرة والدهشة، وكذلك علامة الندم، فإن الشخص إذا ما شعر بمثل ذلك يعرض أصابعه ندماً، وخصوصاً إذا علم أن الندم لن ينفعه لفوات فرصة التراجع والانسحاب عن ذلك الموقف، فصحة الضمير هذه جاءت متأخرة حيث لا ينفع الندم.

(٢) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ١١٠.

في مواجهة ابن مرجانة

بعد أن ألقت السيدة زينب خطبتها العظيمة في أهل الكوفة، ها هي تستعد لمرحلة جهادية أخرى من مراحل مشروعتها المبارك، فهي تعلم أن من يتكلم بمثل ما تكلمت به في دولة حاكم طاغ لا يكون مصيره إلا الموت في أحسن الحالات، ولكن من نذر حياته في سبيل الله ودينه الحنيف يجد ذلك المصير هو السعادة الحقيقية، وإن العيش في ظل حكومة فاسدة فاسقة على كل المستويات هو الموت والشقاء، وإلى ذلك أشار الإمام الحسين (عليه السلام) في إحدى خطبه (وإنني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً)^(١).

وهكذا كان، فقد جاؤوا بسبايا آل الرسول إلى مجلس ابن مرجانة في الكوفة، فأدخلوا عليه وقد جمع رجالات جيشه وقادة عسكره وزعماء الكوفة الملتفين حوله في قصره، وقد أقام مهرجناً ضخماً احتفالاً بزهو الانتصار الزائف على آل الرسول !، وإمعاناً منه في إذلال سبايا أهل البيت، واستجابة لأحقاده الكامنة ضد آل الرسول، ولاستعراض القوة، وإلقاء الرعب في قلوب الناس.. فقد أمر بإحضار رأس الإمام الحسين (عليه السلام) بين يديه. وجلس هو على عرش حكمه الجائر مزهواً بفعلته النكراء، ويده عصا يعبث بها على رأس الحسين (عليه السلام)، وينكت بين شفتيه. قال الراوي : فلما رآه زيد بن أرقم على هذا الحال، قال له : (ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ عليهما ما لا أحصيه، يقبلهما، ثم انتحب باكياً. فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك، أتبكي لفتح الله ؟ والله لولا أنك شيخ كبير قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك،

فنهض زيد بن أرقم من بين يديه وصار إلى منزله^(١)، فلما خرج سمعت الناس يقولون : والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله !.
قال : فقلت : ما قال ؟.

قالوا : مرّ بنا وهو يقول : (ملك عبدٌ عبداً، فاتخذهم تلداً، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمّرت ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل)^(٢).
وأدخلت السبايا عليه، وكن بنات النبي في حالة يرثى لها من الإرهاق والعناء والحسرة والألم، وفي مقدمتهن السيدة زينب عليها السلام وقد تنكرت، وانحازت إلى ناحية من المجلس تحف بها النساء المسييات. ولا يخفى على ابن مرجانة مكانتها في البيت العلوي.

فالتفت نحوها قائلاً : من هذه الجالسة ؟
فلم تكلمه استهانة به، واحتقاراً لشأنه.
وأعاد السؤال مراراً، إلا أن إحدى السيدات المسييات أجابته : هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فأصاب ابن مرجانة غضب شديد، بسبب ترفع السيدة زينب عن إجابته، فاندفع يخاطبها متشمتاً : (الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم وأكذب أحدوثكم !!).
إن كلام ابن مرجانة هذا ينم عن عقيدة الجبر المنحرفة - وقد تقدم بيانها باختصار - التي اجتهد الأمويون في تسويقها داخل المجتمعات الإسلامية، فهو في كلامه أراد أن يفهم الناس بعض المفاهيم المنحرفة، منها :

١/ نسبة الفعل الذي قام به وجلاوزته بأمر من أسياده، والمتمثل بقتل حجة الله على العالمين الإمام الحسين عليه السلام وسبي بناته ونسائه، إلى الله تعالى، وهذه محاولة

(١) - المصدر نفسه : ٤٤ / ١١٦.

(٢) - تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق : ٦ / ٢٦٢.

بأئسة منه لتصحيح ذلك الفعل المشين تنسجم مع ما روج له الأمويون من عقيدة (الجبر)، وقد تقدم الكلام عنها.

٢ / انه أراد أن يشعر الناس بأن الله تعالى قد أيد فعلهم هذا ووفقهم لتحقيق النصر على الإمام الحسين عليه السلام، فبدأ كلامه بـ (الحمد لله)، ثم نسب ذلك إلى الله تعالى.

٣ / أراد أن يبين للسامعين أن ما ادعاه الإمام الحسين ومن كان معه خلال خطبهم وأحاديثهم عن تلك الثورة إنما هي عبارة عن أكاذيب وفبركات أحدثها الإمام الحسين لتحقيق غرض يخالف ما أراده الله تعالى.

ومع أن عباد الله المؤمنين يترفعون عن مخاطبة الأوباش الجاهلين، إلا أن الدفاع عن الدين وتصحيح الانحراف الذي أحدثه الأمويون في مسار الشريعة الإسلامية والوقوف بوجه هذا المخطط الخبيث هو أهم الواجبات على العباد المؤمنين. بل هو جزء من دور السيدة زينب عليها السلام في المشروع الحسيني الإصلاحية الكبير، وها تبدأ مرحلة أخرى من ذلك الدور العظيم، ذلك الدور الذي جندت من أجله، وكان أحد أهم الأهداف من مجيئها إلى كربلاء مع أخيها الحسين عليه السلام. فكان الموقف موقفاً يتطلب من السيدة زينب ممارسة دورها الرسالي في الدفاع عن ثورة أخيها الحسين وأهدافها الإلهية العظيمة.

فبادرت إلى الرد عليه قائلة :

(الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد، وطهرنا من الرجس تطهيراً، إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا يا ابن مرجانة).

قال الزجاج : الرَّجْسُ في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسماها رجساً، ويقال رجس الرجل رجساً ورجس يرجس إذا عمل عملاً قبيحاً^(١). و (الفسق) : العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن

طريق الحق^(١). و (الفاجر) : المَكْذِبُ لِمَيْلِهِ عَنِ الصِّدْقِ وَالْقَصْدِ. وعن ابن الأعرابي : الفاجر : الساقطُ عن الطريق^(٢).

وهنا بدأت ﷺ بتصحيح الفهم في ما يتعلق بالغرض الذي يُحمد الله تعالى من أجله ويُشكر، ومن ذلك إكرامه أهل هذا البيت بأن اختار منه حبيبه وصفيه وخاتم رسله الذي بعثه رحمة للعالمين ومبلغاً لأحكام دينه الذي ارتضاه لعبادة.. وبهذا، فأنها ﷺ أعلنت من البداية أن ما قام به ابن زياد هو عكس ما يريد الله تعالى في أوليائه وأهل بيت نبيه. وبهذا قطعت الطريق عليه بأن هذا الفعل هو فعلكم أيها الطغاة فلا تنسبوه إلى الله جل شأنه، لان نسبة مثل هذه الأمور إليه سبحانه هو التناقض بعينه.

ثم عمدت ﷺ إلى تأكيد موقعية أهل البيت ﷺ العظيمة في الأمة وعند الله تعالى بحيث أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، إشارة منها ﷺ إلى قوله تعالى {... إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} ^(٣). ثم صكت مسامعه بما لا يحب سماعه، بل ولم يوقع أن أحداً يجرأ على قوله، ذلك عندما صححت له ادعاءاته الفارغة، وان الذي يفضحه الله هو الفاسق الذي لا يرعى لدين الله حرمة، وان الكاذب هو الفاجر المتجريء على الله تعالى وأوليائه وشريعته العظيمة.. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن تلك الصفات هي في من وقف بوجه الحسين ﷺ وقاتله وقتله، وسبى نساءه وذرائه، وهو أنت يا ابن مرجانة. ثم ألحت - ورب تلميح أبلغ من تصريح - إلى أن الكاذب هو أنت ومن أمرك وسلطك على رقاب المسلمين.

(١) - المصدر نفسه : ١٠ / ٣٠٨.

(٢) - تاج العروس من جواهر القاموس، مصدر سابق : مادة (فجر).

(٣) - الأحزاب : ٣٣.

ومما زاد قسوة سياط التقريع على والي الكوفة الطاعي أنها عليها السلام نسبتها إلى أمه، فقالت (يا ابن مرجانة)، وفي ذلك دلالات قد تؤدي بقائلها استهجاناً وتهكماً إلى الموت المحتم.

لقد نزلت هذه النازلة على ابن مرجانة كالصاعقة التي أربكت الوضع لديه، وجعلته يتخبط لا يعرف ما يقول وماذا يفعل.

وبهذا فقد أشارت عليها السلام إلى أمور مهمة، منها :

الأول/ إن ما قام به ابن مرجانة وجلاوزته ليس هو مما يرضي الله تعالى، بل على العكس من ذلك تماماً، إذ هو مما يغضب الله، فكان الأولى به أن يقول استغفر الله وأتوب إليه - إن نفعته التوبة -.

الثاني/ إنها عليها السلام قد بينت مكانة أهل بيت النبي ﷺ عند الله تعالى، إذ جعلهم أمناء في بلاده، وحججه على عباده، وبهذا تتضح أهمية دورهم في الحياة الإسلامية والإنسانية، فيكون فعل ابن مرجانة بقتلهم وسيبهم حرباً على الله سبحانه في ما أراد، وجريمة بحق الدين الإسلامي والحياة الإنسانية عموماً.

الثالث/ إنها عليها السلام قد ركزت على مسألة مهمة جداً ثار الخلاف فيها من المخالفين لأهل البيت عليهم السلام، وهي مسألة العصمة، التي يعد أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم آية إذهاب الرجس دليلاً عليها، مضافاً إلى الأدلة العقلية والنقلية الأخرى^(١).

وعلى ذلك، فأنها عليها السلام قد بينت لابن مرجانة والسامعين معه أن المعصوم لا يكون فعله خاطئاً أبداً، فيكون الحق مع الحسين عليه السلام في ثورته.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن معارضته والرد عليه يمثل معارضة لحكم الله تعالى والرد على الله

(١) - هناك بحوث ودراسات مفصلة حول إثبات عصمة آل البيت عليهم السلام، اعرضنا عن ذكرها رعاية للاختصار، ومن أراد المزيد فليراجع كتب العقيدة في هذا المجال.

سبحانه، فكيف يكون الأمر في حال محاربته وقتله بهذه الوحشية وسبي نسائه وذراريه؟!

الرابع / إنها عليها السلام قامت بتمزيق هالة السلطة والقوة التي أحاط بها ابن مرجانة نفسه وسلطته بها بالحديد والنار بحيث أصبحت أمراً مفروضاً لا يحق لأي شخص أن يتصرف على خلافه.

الخامس / أنها عليها السلام واجهته بما وصف به الإمام الحسين ومشروعه الإصلاحية من الكذب، فقالت له بكل جرأة وشجاعة، لا تأخذها في ذلك لومة لائم، بأن الكاذب الذي سيفضحه الله تعالى ويجعل الناس عبر الأجيال تسخر منه هو غير الحسين وأهل بيته، أي الذي وقف بوجه الحسين، وهو ابن مرجانة وابن ميسون واتباعهم.

السادس / إنها عليها السلام فضحته في الصفات الذميمة لأمه عندما نعتته بنسبته إلى أمه، إشارة منها إلى التذكير بتلك الصفات التي كانت أمه مرجانة تتصف بها، ولا يبعد أنها عليها السلام قد طعنته في نسبه، وفي المقابل يقوم ابن الفواجر بسبي الطاهرات العفيفات من بنات الرسالة، وهذا ما أشارت إليه عليها السلام في مجلس الطاغية يزيد عندما صكت مسامعه بقولها (أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نساءك وإمائك وسوقك بنات رسول الله سبايا..)، وستأتي الإشارة إليه في محله بإذن الله.

وما كان ابن مرجانه يتوقع هذا الرد الشجاع القوي من امرأة تعيش أقطع مأساة، وأسوأ حال، فحاول الهرب من القوة الضاربة لهذا الإيمان المحمدي واللسان العلوي الفاطمي، فحاول أن يلفتها إلى مأساتها ومصيبتها ظناً منه أنه سيؤثر بذلك على جراتها عل معنوياتها أن تنهار، فقال لها متشفياً : (فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟).

وهذه محاولة أخرى لترسيخ هذه العقيدة البائسة (عقيدة الجبر)، بأن الله تعالى هو الذي فعل هذا الفعل بأهل البيت - وان يزيد وجلاوزته إنما هم مجرد أداة لتنفيذ

الإرادة الإلهية، بدعوى أن الحسين عليه السلام قد خرج على إمام زمانه وشق عصا المسلمين ووحدتهم.. فكان من (خليفة المسلمين) ابن ميسون أن طبق القانون الإلهي بإنزال القصاص به وقتله.

لكن العقيلة أفلست محاولته مرة أخرى، وأجابته بكل صمود وشجاعة :
(ما رأيت إلا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج^(١) يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانه !!).

إنه لموقف إيماني بطولي عظيم، يندر أن يحتفظ تاريخ البشرية بمثل له، فقد تجاوزت السيدة زينب عليها السلام بإرادتها وبصيرتها النافذة كل ما أحاط بها من الآم المأساة، ومظاهر قوة العدو الظالم، ولم تبال بجزوته وعساكره، بل جابهته بالتحدي وجهاً لوجه أمام أعوانه وجمهوره، معلنة أنها لا يساورها أي شعور بالهزيمة والهوان.

ويمكن هنا أن نشير إلى عدة أمور، منها :

الأول/ أن يرى الإنسان كل ما يكون في سبيل الله جميلاً، فهو مقام من مقامات العارفين والصديقين الذين تشبعت قلوبهم بنور الرضا والتسليم للأمر الإلهي مهما كان، ما دام ذلك بعين الله وفي سبيله، عندما قالت (ما رأيت إلا جميلاً)، وهذا يدل بوضوح على أن السيدة زينب عليها السلام قد وصلت إلى هذا المقام الرفيع، كيف لا وقد رعتها يد القدرة والحكمة الإلهية، تنتقل في تربيتها وعلومها وثقافتها بين حجور المطهرين من المعصومين سادات الخلق أجمعين.

الثاني/ إن المسألة لا تعدو أن تكون استجابة لأمر الله تعالى الذي فرض الجهاد ضد الطغاة والظالمين، لاسيما إذا ما تعلق الانحراف بجوهر الشريعة الإسلامية

(١) - الفلجُ (بفتح الفاء وسكون اللام) : الظفرُ والفَوْزُ. أنظر : لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ٣٤٦.

وثوابتها، فبرز هؤلاء النجباء ليستجيبوا لهذا النداء الإلهي (هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم).

الثالث / إنها عليها السلام تشير إلى حقيقة مرة بالنسبة لابن مرجانه وحزبه الطغاة، وهي أن المعركة لم تنته عند هذا الحد، فإن الذي يكون بيده بداية المعركة ليس بالضرورة أن تكون بيده نهايتها أو إدارتها كيفما يريد، وهي عليها السلام تشير هنا إلى المرحلة الأهم من تداعيات تلك المعركة والتي ستكون في محكمة العدل الإلهية يوم القيامة (وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم)، مشيرة عليها السلام إلى أن النتيجة معروفة سلفاً بأنك يا ابن مرجانة من الخاسرين عندما يرى الجميع أن الحجة ستقام عليك.

وفي ذلك إبطال واضح لدعواه بأن ذلك كان صنع الله في الإمام الحسين عليه السلام، إذ كيف ستكون الخصومة والحجة ضد من يقوم بتطبيق إرادة الله؟! وعلى ذلك فإن الذي قام بتطبيق إرادة الله هو من يكون الله معه يوم القيامة ويأخذ له بحقه من الطغاة الظالمين وهو الإمام الحسين عليه السلام.

ولك - عزيزي القاريء - أن تتصور حال ابن مرجانه بعد سماعه هذا الكلام من امرأة، وأمام أنصاره وأعوانه والمنخدعين به، وهي تهدم العقيدة التي عملوا على ترسيخها في أذهان أتباعهم لسنوات من الكذب والخداع والدجل، وقد انفقوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وجندوا لذلك الآلاف من جلاوزتهم وطغاتهم، وإذا بذلك كله ينهار في لحظات.

الرابع / إنها عليها السلام واثقة من صحة موقفها وموقف أخيها الحسين عليه السلام، وإن النتيجة ستكون لصالح المشروع الحسيني الإصلاحية، وسيرى الجميع يوم القيامة أن النصر والظفر في الحقيقة لصالح الإمام وثورته، وليس كما توهم الأمويون أنه لصالحهم بعد أن قتلوا خصمهم في المعركة. فالمعركة في الحقيقة ليست معركة مصالح شخصية أو دنيوية، وإنما معركة دين ومبادئ وقيم إلهية لا يُعرف المنتصر فيها من

معرفة القاتل والمقتول، بل من معرفة تحقق الأهداف والغايات ولو بعد حين، وقد انتصرت أهداف الإمام الحسين المتمثلة بالدفاع عن ثوابت الدين والشريعة حتى استطاعت أن تعيد إلى الأذهان المفاهيم الصحيحة للدين الإسلامي الحنيف.

لذا، فإن ما حدث لأخيها الحسين عليه السلام وأهل بيته ولها ولأسرتها شيء جميل بمنطق الرسالة والعقيدة التي يحملونها وجاهدوا وضحوا من أجلها، فهم مدركون تماماً لما يقومون به ومستعدون تماماً لتحمل نتائجه.

الخامس / إنها عليها السلام ختمت جوابها بالدعاء بالهلاك له باعتباره طاغية متجبر وعلى مرأى ومسمع منه، قائلة له (ثكلتك أمك يا ابن مرجانة)، وهو قول يقال لمن ورط نفسه في أمر لم يتدبر عواقبه، بحيث سيندم كثيراً حيث لا ينفعه الندم.

السادس / إنها عليها السلام عادت مرة أخرى لتذكر بصفات أمه الذميمة، وربما طعنه في نسبه، فقالت (يا ابن مرجانة)، وبذلك قد أمعنت عليها السلام في تحقيره وإذلاله أمام قواده وجلاوزته وأنصاره، فكان ردها عليه قاسياً شديداً أسقط هيئته الزائفة في أعين الحاضرين جميعاً، بل حطم كبرياءه وغروره.. ولا أشك انه في تلك اللحظة قد تمنى انه لو لم يكلم تلك البطلة بكلمة واحدة.

وهنا استبد الغضب بابن مرجانة وراح يتوعد السيدة زينب بالعقوبة والتنكيل، وكأنه همٌّ بها.. إلا أن عمرو بن حريث قد تدارك الموقف ليخفف من غلواء غضب ابن مرجانه، قائلاً: "أصلح الله الأمير، إنما هي امرأة! وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها؟ إنها لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطئ"^(١).

ومع أن ابن مرجانة ليس ممن يقيم لهذا الكلام وزناً، إلا انه وجد فيه مهرباً مما وقع فيه من الإحراج والارتباك، فراجع عن تهديده بالعقوبة والتنكيل. ولم يكن ليستسلم بهذه السهولة والكل في مجلسه يرى ويسمع، فحاول الصمود أمام

(١) - الخَطْلُ مِنَ الْمَرْأَةِ: فُحْشُهَا وَرَبِيبَتُهَا، وَهِيَ خَطَالَةٌ: أَيْ فَحَاشَةٌ أَوْ ذَاتُ رِيَّةٍ. أنظر: تاج العروس من جواهر القاموس: ١ / ٧٢٩.

الضربات الزينية العنيفة مستبدلاً أسلوبه بأسلوب العقاب النفسي، إذ توجه إلى السيدة زينب عليها السلام هذه المرة بعبارات الشماتة والتشفي، قائلاً :
(لقد شفى الله قلبي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك).

وهنا أثار شجون السيدة زينب، وأشعل الحزن والألم في قلبها، ولعله قد نطق بالحق لأول مرة خلال حديثه عما حدث في كربلاء، فالحقيقة إن السبب الرئيس الذي دفع ابن مرجانة وأسياده وجلاوزته لقتل الإمام الحسين عليه السلام بهذه الوحشية والهمجية وسبي الأطفال والنساء هو الحقد والبغض الذي ازدحم في صدره والطغاة من أسياده وأتباعه. ولو كان مجرد إزاحة الإمام عن طريق السلطة لكفاهم قتله دون التمثيل به وسبي عائلته الكريمة، ولم يحتج الأمر إلى هذه الوحشية المقيتة.

ولم تكن الأوصاف التي وصف بها ابن مرجانة الإمام الحسين بأنه طاغية ومن العصاة المردة هي التي أثارت في السيدة زينب عليها السلام شجونها، فهي تعلم جيداً من هو الحسين عليه السلام ومن هم الطغاة، إلا أن الذي أثار ذلك فيها – وهي امرأة – أن يتشفى من هو مثل ابن مرجانة الذي لا يستحق العيش في الوجود بقتل من وجد الوجود لأجلهم !. إنها معادلة ينبغي تصحيحها في نظر السيدة زينب عليها السلام، فمن المؤسف حقاً أن يفرح طاغ بقتل سيد من سادات الكون.. ولكنه الظلم والطغيان الذي فرض وجوده بعد تخلي الأمة عن واجبها الشرعي في الدفاع عن مقدساتها.

وقد يكون أنها عليها السلام استخدمت سلاح العاطفة كونه المؤثر في نجاحها في دورها، فمن سياقات المعركة أن يُستخدم السلاح الذي يناسب واقع الحال في كل مرحلة من مراحلها، وهنا ارتأت السيدة زينب عليها السلام أن السلاح المناسب لرد كلام ابن مرجانة هو أن تثير العاطفة وإعلان المظلومية، فهو سلاح كان له – وما زال – دور مهم ومؤثر في الدفاع عن ثورة الإمام الحسين ونشرها وخلودها، فأجابته والألم يعتصر فؤادها :

(لعمرى لقد قتلت كهلي، وأبدت أهلي، وقطعت فرعى، واجتثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد أشتفيت).

الكَهْلُ : الرجل إذا وَخَطَه الشيب ورأيت له بَجَالَةً.. قال ابن الأثير : الكَهْلُ من الرجال من زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين. وقيل هو من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين. وقد اكْتَهَلَ الرجل وكاهلَ إذا بلغ الكُهولة فصار كَهْلاً. وقيل أراد بالكَهْل ههنا الحليم العاقل.. وقيل : هو من أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين^(١). و (باد) : وهو أن يُودِيَ الشيء. يقال باد الشيء بُيْدًا وبُيُودًا، إذا أودى^(٢). وفرع كل شيء أعلاه.. ويقال هو فرعُ قومٍ للشریف منهم وفرعتُ قومي أي علوتهم بالشرف أو بالجمال وأفرع فلان طال وعلا وأفرع في قومهِ وفرعَ طال^(٣). والجثُّ القطعُ وقيل قطعَ الشيء من أصله^(٤).

لقد استخدمت السيدة زينب عليها السلام سلاحاً فتاكاً آخر أرغم ابن مرجانة على الشعور بالضعف والصغار أمام منطقتها المدروس جيداً، فمن هم أهلها الذين أبادهم ابن مرجانة ؟، إنهم سادات الخلق وذرية الرسول الأكرم ﷺ حبيب اله العالمين الذين قال في مدحهم ما لا يحصى عدداً، وحذر من ظلمهم، وأوصى برعايتهم ومودتهم.. فإن كان هذا شفاء ابن مرجانة فليحكم السامعون على فعلته النكراء، وهل يمكن لشخص أن يتشفى بقتل من كان هذا موقعهم من الدين، ثم يدعي انه مسلم !!؟؟.

لقد شعر ابن مرجانة انه قد وضع نفسه في موضع لا يحسد عليه مرة أخرى، فحاول تغيير دفة الحديث، قائلاً :

هذه سجاعة، لعمرى لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً.

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١١ / ٦٠٠.

(٢) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ١ / ٣٢٥.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٨ / ٢٤٦.

(٤) - المصدر نفسه : ٢ / ١٢٦.

السجع : هو توافق الفاصلتين من الشر على حرف واحد في الآخر^(١)، ومثاله، قوله تعالى : {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}^(٢).

ويبدو أن الارتباك قد جعل الحقد الدفين على أمير المؤمنين عليه السلام يظهر على فلتات لسانه، وهذا هو واقع الحال فعلاً ، وبذلك فقد أراد أن يهرب من مطب فأوقع نفسه في مطب آخر.

ولأن كلامه هذا لا يتعلق بالجريمة التي أرادت السيدة زينب فضحها وفضح مرتكبيها، ولعلها شعرت انه أراد جرّها عن الموضوع الأساس إلى أمور جانبية، فقد اكتفت عليها السلام برده بقولها :

(إن لي عن السجاعة لشغلاً، ما للمرأة والسجاعة)^(٣).

إنها رباطة جأش، وصبر وعلم وحكمة.. لقد أفصحت زينب بنت علي عليه السلام - وهي أكبر من حمل إلى ابن مرجانة سناً -، وأبلغت، وأخذت من الحجة حاجتها.

(١) - الموسوعة العربية العالمية، علم البديع : ٢.

(٢) - العاديات : ١ - ٥.

(٣) - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مصدر سابق : ٨١ / ٤.

الآثار المباشرة لخطاب

السيدة زينب عليها السلام في أهل الكوفة

أشرنا فيما سبق إلى بعض الآثار المباشرة لخطاب السيدة زينب عليها السلام في أهل الكوفة، نجمل بعضها فيما يلي :

الأول/ الندم والبكاء والحيرة والاضطراب، الذي أصاب أهل الكوفة إلى درجة أنهم وضعوا أيديهم في أفواههم.

الثاني/ إنها عليها السلام قد زرعت فيهم بذور الشجاعة، حتى أصبحوا يتكلمون بشيء من العلانية في مناقب أهل البيت عليهم السلام، وقد نقلنا آنفاً موقف شيخاً يكي حتى أخضلت لحيته، وهو يقول : (بأبي أئتم وأمي !! كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسلكم خير نسل لا يخزي ولا ييزي).

الثالث/ موقف زيد بن أرقم في مجلس الطاغية ابن مرجانة، إذ خاطبه بشجاعة قائلاً : (ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهما مالا أحصيه يقبلهما ثم انتحب باكياً، فقال له ابن زياد : أبكى الله عينيك أتبكي لفتح الله ؟ والله لولا أنك شيخ كبير قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك، فنهض زيد بن أرقم من بين يديه وصار إلى منزله)، فلما خرج سمعت الناس يقولون : والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله !.

قال : فقلت : ما قال ؟.

قالوا : مرّ بنا وهو يقول : (ملك عبدٌ عبداً، فاتخذهم تلدأ، أئتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمّرت ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضي بالذل).

آفاق ودلالات خطاب السيدة زينب في أهل الكوفة

يمثل خطاب السيدة زينب في الكوفة أول تصريح وتعليق على واقعة كربلاء بعد حدوثها يصدر من أهل البيت (عليه السلام)، ويمكن أن نستشرف آفاق ذلك الخطاب الفريد من خلال إلقاء الضوء على ما يمكن أن نستخلصه من خصائص ومميزات اختص وتميز بها خطابها (عليه السلام) في الكوفة، وبالتالي الوقوف على الأهمية الكبيرة له، ومنها:

١/ إنه يُعد أول تصريح رسمي - إن صح التعبير - من أهل البيت (عليه السلام) بعد ما حل بهم في كربلاء، ولعل عامة الناس كانوا ينتظرون نفوساً مهزومة منكسرة ذليلة، بل ربما لم يتوقعوا أن يتكلم أحد من الناجين من مأساة كربلاء بعد ما عايشوه من القتل والتنكيل.. فكان ذلك التصريح مما أبهر العقول وحير الألباب ووضع النقاط على الحروف..

٢/ إنه موجه للمجتمع المسئول عن ما حدث بصورة مباشرة، وهو المجتمع الكوفي. فحملت ذلك المجتمع المسؤولية المباشرة عما حدث للإمام الحسين وأهل البيت، بل ومصير الثورة المقدسة، فالكوفيون هم الذين كاتبوا الحسين وألحوا عليه بالقدوم إليهم، وبايعوا سفيره مسلم بن عقيل، وهم الذين خذلوا الإمام وتخلوا عنه، واستسلموا لترهيب ابن مرجانة وترغيه.

٣/ إن هذا الخطاب يُعد الجولة الأولى من الجولات التي ستخوضها السيدة زينب (عليه السلام) ضد طغاة المشروع الأموي الهادف إلى محو الإسلام وطمس آثاره.. ونجاحه يمثل الخطوة الأولى والمهمة على طريق إكمال المشروع الحسيني المبارك، وفشله - والعياذ بالله - سيؤدي إلى ضياع دماء الإمام وأهل بيته وأصحابه وجهودهم، وبالتالي فشل الثورة، مما يعني نهاية حتمية للشريعة التي بعث بها سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) وضحي وجاهد من أجلها ومن أجل الحفاظ عليها هو وأهل البيت

عليه السلام.. وهي عليه السلام تدرك ذلك جيداً، فقد ألقى على عاتقها كل تلك المسؤولية العظيمة.

٤/ الصراحة والوضوح في خطابها عليه السلام، إذ لا مبرر للمداهنة والمجاملة، يتضح ذلك من خلال الصفات الذميمة التي نسبتها إليهم كالغدر ونقض العهد وما شابه ذلك. وكان ذلك مطلوباً ليقف هؤلاء القوم على حقيقة سجايهم، لاسيما أن هذه العادات الذميمة قد تكررت منهم مع أهل البيت ومع غيرهم، وقد تقدم بيان ذلك خلال شرح فقرات الخطبة.

وهذا أهم درس ينبغي أن يتعلم الدعاة الحسينيون من الصديقة زينب إلا يدهنوا الباطل طمعاً في دنيا أو يسكتوا عن حق خوفاً من سلطان.

٥/ الوقوف على نقاط ضعف المجتمع الكوفي، ومساوئ أخلاقه، فالجريمة لم تأت من فراغ، وإنما هي نتيجة طبيعية لتلك الأخلاقيات المنحرفة التي نهتهم عليه السلام إلى أبرزها، كما في قولها: (وهل فيكم إلا الصلف والنطف، والكذب والشنف، وملق الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة، أو كقصبة على ملحودة)، وقد تقدم بيان ذلك خلال الشرح.

٦/ الشجاعة والاستبسال من أجل تحقيق النصر، وقد ظهر ذلك واضحاً خلال مواجهتها لابن مرجانة في قصره، إذ فضحته وأخرجته في أجوبتها وردودها عليه.

٧/ الاستهانة والتحقير والاستصغار الذي مارسته عليه السلام مع طاغي الكوفة ابن مرجانة الذي لم يتوقع مطلقاً أن يواجه مثل هذا الموقف بعد أن حكم الناس في كل مصر يحكمه بالحديد والنار.

٨/ إنها عليه السلام لم تبديء الكلام مع زعيم الطغاة الكوفيين ابن مرجانة - بل لم تبديء الكلام مع جميع الطغاة وأمرائهم، بما فيهم يزيد وعمر بن سعد والشمير وغيرهم، فينبغي التأمل في ذلك جيداً -، بل كانت تجيب عن أكاذيبه وافتراءاته فقط، وتصحيح المفاهيم التي اخترعوها وضللوا الناس بها ليثبتوا سلطانهم على

رقاب الناس. وإنما ابتدأت الخطاب من تلقاء نفسها مع عموم الناس من أهل الكوفة.

ولعل سبب ذلك، إما لأن احتمال التأثير في عامة الناس أو بعضهم متصور، دون احتمال التأثير فيه، وقد حدث ذلك فعلاً، إذ أثرت في أهل الكوفة ولم تؤثر في ابن مرجانة، والسبب يعود إليه وليس إليها، فهي قادرة على التأثير، لكنه لا يستوعب كلامها، لأن الشيطان قد طبع على قلبه فهو كالحجارة أو أشد قسوة.

وأما حفاظاً على حياتها من أجل إكمال دورها في المشروع الحسيني الكبير، فبقاؤها على قيد الحياة أمر ضروري يتوقف عليه الحفاظ على المشروع الحسيني المبارك وعلى الدين الإسلامي عموماً.. خصوصاً أنها تعلم أن ابن مرجانة لا يعصمه شيء من قتل الأبرياء، فكيف بمن يقف في وجهه ويتحداه ويحطم غروره، وقد حاول التهجم عليها فعلاً لولا أن عمر بن حريث قد تدارك الموقف.

٩/ إنها عليها السلام قامت من خلال خطبتها تلك بتوضيح أبعاد الفاجعة التي حلت بآل بيت النبوة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بينت أن ما أقدموا عليه في كربلاء لم يكن أمراً سهلاً، وليس شيئاً عادياً بسيطاً، إنه كارثة مروعة، وفجيعة عظيمة، وجريمة نكراء.

١٠/ إنها عليها السلام قد ركزت كثيراً على تصحيح العقائد المنحرفة لدى الكوفيين ولدى ابن مرجانة.. ويبدو أنها عليها السلام قد أدركت أن التأثير يكمن في معالجة الأسباب وتصحيحها، وليس في الكلام عن النتائج، وأهم الأسباب في انحراف ذلك المجتمع هي العقائد المنحرفة التي رسخها الطغاة الأمويون في أذهان الناس، وقد ركزت على ذلك كثيراً في مجلس الطاغية ابن مرجانة، فلما رأى الحاضرون الارتباك والتهرب من مواجهتها عليها السلام أدركوا ما هم عليه من الضلال فأصابهم الندم والحيرة والارتباك.

١١/ إنها عليها السلام قد حققت نتيجة مهمة، تمثلت بقلب الطاولة - كما يعبرون - على السلطة الحاكمة التي حاولت جاهدة أن تفهم الناس بأن ما قام به الحسين ومن معه تمرد على النظام، اضطر الجيش إلى قمعه ليس إلا، وقد نصرهم الله عليه وجاؤوا بالخوارج سبايا !!.

لكن السيدة زينب في خطابها أوضحت للناس الأبعاد الحقيقية لما حدث، ولخروج الإمام الحسين عليه السلام، وحقيقة ابن مرجانة والجيش الذي قاتل الإمام.

١٢/ بيان منزلة ومكانة الإمام الحسين عليه السلام، ومن هو، وما هي علاقته وارتباطه بالرسول ﷺ، وإن ما ارتكبه جيش الكوفيين في كربلاء بحق أهل البيت عليهم السلام يمثل جريمة نكراء تسود وجوه وتاريخ أصحابها بالعار والشنار وهو أقبح العيب، ولا يمكن إزالة وتطهير آثار تلك الجريمة أبداً.

١٣/ إنها عليها السلام قد أدركت أن الإعلام الأموي سيسعى جاهداً للتقليل من شأن الحسين والأفتراء على شخصيته، كما حصل لأبيه الإمام علي عليه السلام، لذلك ركزت السيدة زينب في خطابها على التأكيد على منزلة الحسين ومقامه فهو: (سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شاب أهل الجنة).

١٤/ الإنذار بالانتقام، فعدالة الله تعالى تأبى أن تمر تلك الجريمة النكراء دون عقاب يتناسب مع خطورتها، لكن العقاب قد لا يأتي فوراً (فلا يستخفنكم المهمل، فانه لا يحفز البدار، ولا يخاف فوت الثأر، وإن ربكم لبالمرصاد). وكان الانتقام الإلهي من قتلة الحسين ومن المجتمع المتواطئ معهم شديداً وقوياً، حيث لم يعرف ذلك المجتمع بعدها أمناً ولا استقراراً، هذا في الدنيا، وما ينتظرهم من خصومة يوم القيامة أفضع وأشد حين يجمع الله تعالى بينهم.

١٥/ إنها عليها السلام قد ساوت بين جريمة أهل الكوفة بقتلهم الإمام الحسين وما فعلوه بعياله وبين جرائم اليهود الذين قتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم، وجرائم

النصارى الذين كفروا وأشركوا بالله إذ جعلوه ثالث ثلاثة، ويتضح ذلك من خلال استشهادها عليها السلام بالآيات القرآنية التي تشير إلى هذه المعاني خلال خطابها.

١٦/ إنها عليها السلام لم تتفوه بنصف كلمة غير الحق، كما يفعل الكثير غيرها من أجل استمالة السامعين إليه. ولعل السبب في ذلك إنهم كانوا يعرفون الحق ولا ينصروه، مثلهم في ذلك مثل الأنصار والمهاجرين الذين خاطبتهم الصديقة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها).

١٧/ إن خطابها عليها السلام كاد يكون جامعاً لسائر المؤثرات النفسية من عاطفة جياشة إلى توعية روحية إلى ولاء صادق للقيادة الشرعية ودعوة صريحة إليها، وإلى تحميل المجتمع المسؤولية المباشرة، وهذا درس آخر نستفيد من السيدة زينب عليها السلام لخطيب المنبر الحسيني إلا يهمل أي جانب من المنهج الرسالي لحساب جانب آخر.

١٨/ إن السيدة زينب عليها السلام قد تركت الحديث عن السلطة في خطابها تماماً مع الجماهير الكوفية، بالرغم من أنها ركزت عليه في مواجهتها المباشرة لابن مرجانة وابن ميسون.

ولعلها تركت ذلك عمداً لكي لا يبرر البعض موقف أهل الكوفة، وإن اللوم يقع على السلطة فقط. بل إن مسؤولية الحاكم الطاغي لا تلغي مسؤولية الذين كانوا أدوات سلطته والساكتين عنه والراضين بفعله.

كما أن الحديث مع الناس يكون مؤثراً أكثر إذا ما كان حول مسؤوليتهم، بينما حين يكون مع الحاكم الطاغي ينبغي أن يُبين فيه مسؤوليته هو، وذلك ما يلائم مقتضى حال السامع، وهذا من أعظم ركائز البلاغة، وهو درس عظيم – أيضاً – للخطباء وأصحاب المنبر.

مدخل لشرح خطبة السيدة زينب عليها السلام

في مجلس الطاغية يزيد (لعنه الله)

ترى ! كم تبلغ قدرات الإنسان إذا توكل على الله واستعان به ؟
فهذه امرأة أسيرة مفجوعة، قد أكلت بثمانية عشر رجلاً من أهل بيتها مالهم
على وجه الأرض من نظير، سوى أنصارهم النجباء الذين ما على وجه الأرض
أنصاراً مثلهم.. وقد سيقّت على محامل بلا وطاء ولا غطاء وضربت وأهينت
وأُتعبت وأرهقت وأُذيت بإبداء وجهها، وهي فخر مخدرات الزمان.. أمام جماهير
المصفقين والمحتفلين.. و.. و..، بحيث لم يبقَ هناك عامل مادي واحد أو معنوي من
عوامل القهر والإذلال خارج مسرح الأحداث ؟. نعم، لقد سخر يزيد كل
الاحتميات المادية والمعنوية لدعم احتفاله بزهو الانتصار، وإذلال آل الرسول.
وها هي ابنة علي وفاطمة تدخل اليوم على السلطان الجائر، والعدو الساخر،
والسفاك المجرم، والطاغوت المنتشي بزهو الانتصار.. ها هي تدخل عليه مقيدة هي
وابن أخيها العليل حجة الله على خلقه، وأختها النجيبة، وسائر الأسرى المنهوكين
من الرحلة المرهقة.

دخلت وقد زُينت الشام كأبي عيد كبير، استبشاراً بانتصار يزيد، واحتفل
الطاغوت الأرعن في قصره، فجمع الملاء من قومه لعلهم يزرعون الرعب والرهبّة في
قلوب هذه الثلة الباقية من بعد أعظم فاجعة في التاريخ يمكن أن يتعرض لها بشر.

ولكن ! ما الذي حصل بعد ذلك ؟

إن الله أكبر وأعظم، وقوة الروح الإيمانية تقهر كل العوامل المادية وغير المادية،
والحق أعلى وأعز إذا كان له أهل يدافعون عنه بكل شجاعة وبسالة، وزينب تمثل
اليوم الحق بكل قوته وعزته وجبروته.

وقفت تلك الأسيرة تنظر إلى ذلك العرش الزائف بسخرية، وتنظر إلى رأس سيد الشهداء في طست من ذهب.. لقد كانت السيدة زينب عليها السلام تشعر بما ألقى على عاتقها من مسئوليات جسام، وبأنها مسئولة بالدرجة الأساس عن حفظ حياة الدين من خلال الحفاظ على حياة الممثل لأصل من أهم أصوله، إنه الإمام علي بن الحسين عليهما السلام، ثم بقية الأسرى من آل بيت الرسول والصالحين، وقد قامت بذلك خير قيام.

ففي مجلس يزيد الطاغية عندما طلب أحد الأمراء منه فاطمة بنت علي عليه السلام وكانت وضيئة^(١)، وقال : يا يزيد هب لي هذه الجارية. فتعلقت بأختها زينب، فدافعت زينب عليها السلام عنها، وتوجهت إلى ذلك الشامي، وقالت : كذبت والله ولعنت، ما ذاك لك ولا له. فغضب يزيد وقال : بل كذبت والله، لو شئت لفعلته. قالت : لا والله، ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من ملتنا، وتدين بغير ديننا.

فغضب يزيد، ثم قال : إياي تستقبلين بهذا ؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت : بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وجدك وأبوك.

قال يزيد : كذبت يا عدوة الله.

قالت : أمير يشتم ظالما، ويقهر بسلطانه.

فكأنه لعنه الله استحي فسكت.

فأعاد الشامي، فقال : يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية.

فقال له : أعزب، وهب الله لك حتفا قاضيا.

هذه صور من صبر الصديقة زينب وشجاعتها، وهي صور تعكس عمق ذلك

القلب المؤيد بنور الإيمان..

(١) - الوضأة : وهي الحسنُ والنَّظافة. (أنظر : معجم مقاييس اللغة، ابن فارس : ٦ / ١١٩).

وحين نقرأ معا خطاباتنا نعرف أنها لا تصدر إلا عن قلب مطمئن بسكينة الإيمان، واثق بالنصر الإلهي موقن باستقامة طريقه وسلامة منهجه.
وقبل أن نبدأ بشرح بعض كلمات هذه الخطبة نجلب انتباه القارئ الكريم إلى هذا التمهيد :

تدبر قليلاً لتتصور أجواء ذلك المجلس الرهيب، ثم معجزة السيدة زينب الكبرى في موقفها الجريء ! بالله عليك ! أما تتعجب من سيدة أسيرة تخاطب ذلك الطاغوت بذلك الخطاب ؟ وتتحداه تحدياً لا تنقضي عجائبه ؟ ولا تهاب الحرس المسلح الذي ينفذ الأوامر بكل سرعة وبدون أي تأمل أو تعقل ؟! وأعجب من ذلك سكوت يزيد أمام ذلك الموقف مع قدرته وإمكاناته ؟ وكأنه عاجز لا يستطيع أن يقول شيئاً أو يفعل شيئاً ! أليس من العجيب أن يزيد، وهو طاغوت زمانه وفرعون عصره، لم يستطع أو لم يتجرأ على أن يرد على السيدة زينب كلامها، بل يشعر بالعجز والضعف عن مقاومتها، ويكتفي بقراءة قول الشاعر :

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

فما معنى هذا البيت في هذا المقام ؟! وما المناسبة بين هذا البيت وبين كلمات خطبة السيدة زينب ؟ فهل كانت حرفة السيدة زينب النياحة حتى ينطبق عليها قول يزيد : (ما أهون النوح على النوائح) ؟ وما يدرينا مدى ندم يزيد بن ميسون من مضاعفات جرائمه التي ارتكبها ؟ وخاصة تسير آل رسول الله من العراق إلى الشام، فإنه بالقطع واليقين ما كان يتصور أن سيدة أسيرة سوف تغمره في بحار الحزي والعار، فلا يستطيع يزيد أن يغسل عن نفسه تلك الوصمات إلى يوم القيامة وتكشف الغطاء عن هوية يزيد، وترفع الستار عن ماهيته وأصله، وحسبه ونسبه، وسوابقه ولواحقه، وتخاطبه بكل تحقير، وتقرع كلماتها مسامع يزيد، وكأنها مطرقة كهربائية، ترتج منها جميع أعصابه، فيعجز عن كل مقاومة !!.

قالت عائشة :

خطبة السيدة زينب عليها السلام في مجلس يزيد (لعنه الله)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جدي سيد المرسلين. صدق الله سبحانه، كذلك يقول : {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} ^(١)، أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض وضيقنا علينا آفاق السماء، فأصبحنا لك في أسار، نساق إليك سوقاً في قطار، وأنت علينا ذو اقتدار، أن بنا من الله هواناً، وعليك منه كرامة وامتناناً، إن ذلك لعظم خطرك وجلالة قدرك؟! فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، تضرب أصدريك فرحاً، وتنفض مذرويك مرحاً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لديك متسقة، وحين صفى لك ملكنا، وخلص لك سلطاننا، فمهلاً مهلاً، لا تطش جهلاً. أنسيت قول الله عز وجل : {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُؤْمِلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} ^(٢)!!؟. أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناقل، ويتبرزن لأهل المناهل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والشريف والوضيع، والدنيء والرفيع، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي، عتواً منك على الله وجحوداً لرسول الله ودفعاً لما جاء به من عند الله.. ولا غرو منك، ولا عجب من فعلك، وأنى ترتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الشهداء، ونبت لحمه بدماء السعداء؟ ونصب الحرب لسيد الأنبياء، وجمع الأحزاب، وشهر الحراب، وهز السيوف في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! أشد العرب لله جحوداً، وأكبرهم له رسولاً، وأظهرهم له عدواناً، وأعتاهم على الرب كفاً وطغياناً. ألا إنها نتيجة خلال الكفر، وضب يجرجر في الصدر لقتلى يوم بدر. فلا يستطبئ في بغضنا. أهل البيت. من كان نظره إلينا شنفاً وإحنأً وضغناً (وفي نسخة : وكيف يستطبئ في

(١) - الروم : ١٠.

(٢) - آل عمران : ١٧٨.

بغضنا)، يظهر كفره برسوله، ويفصح ذلك بلسانه، وهو يقول - فرحاً بقتل ولده، وسبي ذريته - غير متحوب ولا مستعظم : لأهلوا واستهلوا فرحاً ولقالوا : يا يزيد لا تشل، منحنيّاً على ثنايا أبي عبد الله - وكان مقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - ينكتها بمخصرته، قد التمتع السرور بوجهه. لعمرى لقد نكات القرحة، واستأصلت الشأفة، بإراقتك دم سيد شباب أهل الجنة، وابن يعسوب الدين، وشمس آل عبد المطلب.. وهتفت بأشياخك وتقريت بدمه إلى الكفرة من أسلافك، ثم صرخت بندائك. ولعمرى لقد ناديتهم لو شهدوك، ووشيكاً تشهدهم ولن يشهدوك، ولتودّ يمينك - كما زعمت - شئت بك عن مرفقها وجذت، وأحببت أن أمك لم تحملك، وإياك لم تلد، حين تصير إلى سخط الله، ومُخاصمك رسول الله ﷺ. اللهم ! خذ بحقنا، وانتقم من ظالمنا، واحلل غضبك على من سفك دماءنا، ونقض دمارنا، وقتل حُماتنا، وهتك عنا سدولنا. وفعلت فعلتك التي فعلت. وما فريت إلا جلدك، وما جرّرت إلا لحمك. وسترد على رسول الله بما تحملت من دم ذريته، وانتهكت من حرمة، وسفكت من دماء عترته ولحمته، حيث يُجمع به شملهم، ويُلَمّ به شعثهم، وينتقم من ظالمهم، ويأخذ لهم بحقهم من أعدائهم، فلا يستفرك الفرح بقتلهم. {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...} (١).

وحسبك بالله ولياً وحاكماً، وبرسول الله خصماً، وبجبرائيل ظهيراً. وسيعلم من بوأك ومكنك من رقاب المسلمين أن بنس للظالمين بدلاً، وأيكم شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً. وما استصغاري قدرك، ولا استعظامي تقريعتك. وفي نسخة : (ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك، إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك)، توهماً لإنتاج الخطاب فيك، بعد أن تركت عيون المسلمين به عبرى، وصدورهم عند ذكره حرى، فتلك قلوب قاسية، ونفوس طاغية، وأجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول، قد عشت فيها الشيطان وفرخ، ومن هناك مثلك ما درج، فالعجب كلّ العجب لقتل الأتقياء، وأسباط الأنبياء،

وسليل الأوصياء، بأيدي الطلقاء الخبيثة، ونسل العهرة الفجرة، تتطف أكفهم من دماننا، وتتقلب أفواههم من لحومنا، تلك الجثث الزاكية، على الجيوب الضاحية، تتنابها العواسل، وتغفرها أمهات الفراعل، فلئن اتخذتنا مغنماً، لتجد بنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد. فإلى الله المشتكى، والمعول، وإليه الملجأ والمؤمل. ثم كد كيدك، واجهد جهدك، فالذي شرفنا بالوحي والكتاب، والنبوة والانتجاب، لا تدرك أمدنا، ولا تبلغ غايتنا، ولا تمحو ذكرنا، ولا ترحض عنك عارنا، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعن الظالم العادي، والحمد لله الذي حكم لأولياته بالسعادة، وختم لأوصيائه ببلوغ الإرادة، نقلهم إلى الرحمة والرأفة، والرضوان والمغفرة، ولم يشق بهم غيرك، ولا ابتلي بهم سواك، ونسأله أن يكمل لهم الأجر، ويجزل لهم الثواب والذخر، ونسأله حسن الخلافة، وجميل الإنابة، إنه رحيم ودود^(١).

والآن إليك شرحاً موجزاً لبعض كلمات هذه الخطبة الحماسية الملتهبة :

قالت عليه السلام : (الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جدي سيد المرسلين).

إفتتحت كلامها بحمد الله رب العالمين، ثم الصلاة على جدها : سيد المرسلين، وقد تقدم الكلام عن ذلك في شرح خطبتها عليه السلام في الكوفة.

ثم قلت عليه السلام : (صدق الله سبحانه، كذلك يقول {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا

السَّوْءِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ }^(٢)).

عَقِبَ كُلُّ شَيْءٍ وَعَقِبُهُ وَعَاقِبَتُهُ وَعَاقِبُهُ وَعُقْبَتُهُ وَعُقْبَاهُ وَعُقْبَانُهُ آخِرُهُ^(١). أي : ثم

ثم كان آخر أمر الذين أساءوا إلى نفوسهم بالكفر بالله وتكذيب رسله، وارتكاب معاصيه -

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٥ / ١٥٧.

(٢) - الروم : ١٠.

السُّوَّى : تقيضُ الحُسْنَى^(٢). وقيل في قوله تعالى : (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوَّى) هي جهنمُ أعادنا الله منها^(٣). تقول رجلٌ أسوأ، أي قبيحٌ، وامرأةٌ سَوَاءٌ، أي قبيحة. قال رسول الله ﷺ : (سَوَاءٌ وَلَوْ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَاءٍ عَقِيمٍ). ولذلك سُمِّيت السيئة سيئة. وسُمِّيت النار سُوَّى، لقُبْحِ منظرها^(٤).

وهنا عرفت السيدة زينب عليها السلام كيف تنطلق في خطبتها، فقد بدأت بكلام الله تعالى، وهي حكمة بالغة منه عليها السلام، يمكن أن نستخلص منه عدة أمور، منها :

الأول / إنها عليها السلام عرفت كيف تبدأ دون أن يستطيع يزيد بن ميسون مقاطعتها، وهل يستطيع يزيد أن يمنع شخص يتكلم بكلام الله تعالى أمام الرأي العام الذي أقنعه بأنه بفعله هذا إنما يطبق أحكام الله على شخص خارجي مرق عن تعاليم الدين الحنيف ؟

الثاني / إنها عليها السلام قد اختارت إحدى الآيات القرآنية المشحونة بأبلغ معاني الإنذار والوعيد للمتصفين بتلك الصفات التي ذكرتها الآية الكريمة، لتصك بها أسمع ابن ميسون وطغاته الجالسين معه بأن هذه الصفات التي اتصفتم بها من الإساءة والتكذيب والاستهزاء بآيات الله تعالى، وما نزل منها بحق أهل البيت عليهم السلام، ومنهم الإمام الحسين عليه السلام، فإن عاقبتهم في ستكون السُّوَّى، وهي نار جهنم وبئس المصير.

الثالث / إن هذا التكذيب والاستهزاء الخطير منهم بآيات الله سبحانه ما كان ليكون إلا بسبب تراكم الذنوب والمعاصي، والتكرار لآيات الله والحقائق الثابتة، لاسيما فيما يتعلق منها بالمقدسات الدينية، التي يمثل أهل البيت - ومنهم الإمام الحسين عليه السلام - الركن الشديد فيها.

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١ / ٦١١.

(٢) - الصحاح في اللغة، مصدر سابق : ١ / ٣٣٧.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ١ / ٩٥.

(٤) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٣ / ١١٣.

الرابع/ إن اختيار هذه الآية الكريمة منها ﷺ يمثل ابلغ رد وأقوى جواب لقول ابن ميسون حين قال - وهو يؤمن بذلك إيماناً تاماً - :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

فهو يصرح بوضوح، وأمام الملأ : إن بني هاشم - والمقصود من بني هاشم - : هو رسول الله ﷺ لعبت بالملك باسم النبوة والرسالة، والحال أنه لم ينزل عليه وحي من السماء، ولا جاءه خبر من عند الله تعالى.. ويترتب على قوله عدة نتائج لا يعتقدها الا كافر.

منها : ان محمداً ﷺ كاذب في دعواه النبوة.

ومنها : إنكار واضح للنبوة والقرآن والوحي !! وهل الكفر والزندقة إلا هذا؟!.

ومنها : البغض والحقد والحسد لبني هاشم.

ومنها : حبه للتسلط والحكم، وإن كان ذلك بالقتل والسبي والظلم.

الخامس/ إنها ﷺ قد فندت الفهم الخاطيء لدى عامة الناس من أن الانتصار العسكري في الحرب يعد دليلاً على أن المنتصر على حق، وعلى قربهم من عند الله تعالى، فتستولي عليهم نشوة النصر والظفر، ويشملهم الكبرياء والتجبر بسبب التغلب على خصومهم.. فصرحت لهم من خلال هذه الآية ان العاقبة هي الفیصل، فقد ينتصر الطاغی الظالم بسبب سطوته وتجبره، ولكن الله تعالى له بالمرصاد في محكمة العدل الإلهي، وهنالك سيخسر المبطلون.

(أظننت - يا يزيد - حين أخذت علينا أقطار الأرض وضيق علينا آفاق السماء،

فأصبحنا لك في أسار، نساق إليك سوقاً في قطار، وأنت علينا ذو اقتدار، أن بنا من الله هواناً، وعليك منه كرامة وامتناناً؟!) .

وهنا ينبغي الالتفات إلى عدة أمور في هذا المقطع من خطبتها ﷺ، منها :

١/ إن في ذلك ابلغ آيات الاستهزاء والتحقير تلك التي تبنتها السيدة في خطابها مع طاغية الشام عندما خاطبته باسمه دون أية ألقاب تدل على الاحترام والتبجيل، ويترتب على ذلك نتيجة مهمة جداً لم يكن يتوقعها جميع الحاضرين في المجلس، فهي تصرح بعدم اعترافها بخلافة ذلك الرجس.. وهل يجزئ احد على ذلك؟!!

٢/ إنها عليها السلام تصرح أن الواقع والحقيقة غير الظاهر الذي استولى على ظنون يزيد وأوهامه، فظن أن ما جرى على آل الرسول بعد واقعة الطف من الانتصار العسكري وقتله لأل الرسول وسبي عياله والتضييق عليهم، ثم سوقهم سوق الاسارى في نسق واحد كالقطار^(١)، ولعل في ذلك إشارة منها عليها السلام إلى ما ذكره المؤرخون من أنهم عليها السلام كانوا مربوطين بحبل واحد تباعاً، وذلك يجعلهم في حالة ضعف مقابل الطاغية الأسر لهم فيكون عليهم ذو اقتدار وغلبة.. وكأنه لما رآهم مغلوبين وانه قد ظفر بهم أن بهم من الله هواناً، وان له كرامة على الله تعالى.. فنبهت عليها السلام إلى بعض السنن الإلهية التي تطرقنا إليها خلال شرح خطبتها عليها السلام في الكوفة، كسنة الإمهال وسنة الاستدراج.

٣/ إنها عليها السلام قد وصفت حالها، وأحوال من معها من عيال آل الرسول وصفاً دقيقاً بليغاً من أنهم كانوا في أشد الضيق من المنع والحصار والتضييق، بحيث أصبح لا حول له ولا قوة.. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنها عليها السلام قد ضمنت وصفها هذا التعامل السيء والقسوة التي تعامل بها ابن ميسون مع آل الرسول عليهم السلام التي تتم عن حقد واضح وأضعان دفينة.

(١) - يقال (قطار الإبل)، أي : عدد من الإبل على نسق واحد وفي طابور طويل.

(وأن ذلك لعظم خطرك، وجلالة قدرك).

وهنا تنبهه عليه السلام إلى توهم وظن خاطيء آخر استولى على ابن ميسون، وهو ظنه بأن ما حصل له من النصر الموهوم إنما هو لعلو منزلته، والمكانة السامية لمكانته عند الله تعالى، فكنت عليه السلام عن علو المنزلة وما شابهها بـ (عظم الخطر)، وعن المكانة السامية وما شابهها بجلالة القدر..

وفي ذلك توهين وتحقير بأسلوب آخر لابن ميسون، فهو يرى ذلك من نفسه فعلاً حتى قبل أن يقوم بفعلته في كربلاء، فكبحت جماح ظنونه تلك بهذه الكلمات التي لم يعهد سماعها من قبل، بل ولم يتوقع ذلك مطلقاً.

(فشمت بأنفك).

شمخ : الشامخات : العاليات. ومنه شمخ بأنفه أي ارتفع و تكبر. ومنه الأصلاب الشامخة أي العالية والعز الشامخ : أي العالي المرتفع. والجبال الشوامخ : هي الشواهد، يقال شمخ الجبل يشمخ بضممتين : ارتفع. وشامخ الأركان : عاليها^(١).

وقد عبرت عليه السلام بالشموخ بالأنف كناية عن الفخر والتكبر الذ كان عليه ابن ميسون من رفع أنفه عزاً وتكبراً، وهو نتيجة طبيعية لما ظنه من الظنون الباطلة التي ذكرتها عليه السلام قبل ذلك. وما كانت مقدماته باطلة فهو باطل أيضاً. وبتعبير آخر : اذا كانت المقدمات – أو إحداها – باطلة فإن النتيجة تكون باطلة بالضرورة، لان النتيجة تتبع أحس المقدمات – كما يعبر المناطقة –، وعليه : فإنها عليه السلام تعبر عن أن شموخ ابن ميسون بأنفه عزاً وفخراً وتكبراً يكون باطلاً، لأنه مبني على ظنون وأوهام باطلة.

(ونظرت في عطفك).

عطفاً كل شيء : جانباه من لدن رأسه إلى وركه. ويقال : ثنى عطفه : إذا أعرض وجفا^(١). قال الله جل وعز : ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله، جاء في التفسير أن معناه : لاوياً عنقه. وهذا يوصف به المتكبر. فالمعنى : ومن الناس من يجادل في الله بغير علم. وعطفاً الرجل : ناحيته عن يمين وشمال. ومنكب الرجل : عطفه، وإبطه عطفه^(٢).

العطف - بكسر العين - : جانب البدن، والإنسان المعجب بنفسه ينظر إلى جسمه وإلى ملابسه بنوع من الأناية وحب الذات والغرور. وهذه النتيجة الثانية التي ترتبت على الظنون الباطلة التي استولت على ابن ميسون، وهي باطلة أيضاً بنفس البيان السابق.

(تضرب أصدريك فرحاً).

الأصدْران، عِرْقان في العين^(٣). وجاء يضرب أزدريه إذا جاء فارغاً، وكذلك أصدريه^(٤).

ولعل المعنى : إن ابن ميسون بدأ يحرك رأسه ويدير عينيه بكيفية معينة بسبب شدة الفرح والإعجاب والغرور بالنفس إزاء ما حققه من انتصار حسب ظنه، والواقع أن انتصاره هذا انتصاراً موهوماً لا واقع له إلا على المستوى العسكري، أما

(١) - المحيط في اللغة، صاحب بن عباد : ٧٢ / ١.

(٢) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٢١٢ / ١.

(٣) - المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف (ابن سيده) : ٦٠ / ١.

(٤) - المزهر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي : ٢٥٧ / ١.

على مستوى تحقيق الأهداف فإن الواقع يشهد بانتصار الثورة الحسينية بعد أن حققت جميع أهدافها.

(وتنفض مذكرويك مرحاً) .

جاء ينفض مذكرويه : يختال، وهما فرعاً الأليتين. وقوس هنافه المذروين وهما موقعا الوتر من أعلا وأسفل^(١). ويقال : جاء الرجل ينفُض مذكرويه، إذا جاء متهدداً. قال عترة يهجو عمارة بن زياد العبسي :

أحولي تنفضُ إستك مذكرويه... لتقتلني فها أنا ذا عمارا

وقيل المذروان أطراف الأليتين ليس لهما واحد وهو أجود القولين^(٢). والمذروان : مؤخر الرأس في بعض اللغات^(٣). هذا ما ذكره اللغويون. ولعل المعنى : إن يزيد لعنه الله تعالى وصل به الحال أن يهز إليته، وهو نوع من حركات الرقص عند المطربين حينما تأخذهم حالة الطرب والخفة، فرحاً بقتل سبط النبي الأكرم ﷺ وسبي عياله.

(حين رأيت الدنيا لك مستوسقة) .

استوسق الشيء اجتمع وانضم، يقال : استوسقت الإبل والأمر انتظم، ويقال، استوسق له الأمر : أمكنه^(١). والوسق أيضاً : ضم الشيء إلى الشيء، ومنه خبر أحد استوسقوا : أي اجتمعوا وانضموا. ومنه استوسق الناس لبيعته^(٢).

(١) - أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري : ١ / ١٤٧.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٤ / ٢٨٢.

(٣) - جمهرة اللغة، ابن دريد : ١ / ٣٧٦.

ولعل المعنى : إن هذا هو احد الأسباب الذي جعل ابن ميسون يشمخ بأنفه، وينظر في عطفه، ويضرب اصدره فرحاً، وينفض مذرويه مرحاً.. فتقف السيدة زينب عليها السلام في وجه هذا الوهم الكبير وتقطع عليه هذا البهجة المقنعة.. فإن اجتماع الدنيا واستوساقها لظالم طاغ لا يعني إلا الاستدراج إلى أسفل دركات الجحيم.

(والأمر لديك متسقة) .

الاتساق : الانتظام، ومنه قوله تعالى والقمر إذا اتسق. أي : اجتمع وامتلاً وصار بدراً، وذلك في الليالي البيض^(٣).

ولعل المعنى : أن رؤية يزيد للأمور بأنها منتظمة على ما يحب ويريد، كان هو سبب آخر للوهم الكبير والبهجة الزائفة التي توهمها.

(وحين صفى لك ملكنا، وخلص لك سلطاننا) .

وهنا نخبره السيدة زينب عليها السلام بأن هذا أيضاً من أسباب فرحك، وقيامك بالحركات الطائشة التي تدل على شدة سرورك، أنك رأيت من نفسك ملكاً وسلطاناً قد نجح في ما خطط له لإبادة آل الرسول، وسبي عيالهم. لكن.. والحقيقة يا يزيد أن غرورك وطغيانك هو الذي أوهمك وصور لك أن هذا الملك والسلطان هو استحقاق لك.. وفي الواقع انه ملك وسلطان مغتصب من أهله الحقيقيين الذين هم آل الرسول الذين قتلهم في كربلاء، وادعيت زورا وبهتاناً أنهم خوارج خرجوا على خليفتهم.

إنها عليها السلام قامت بمحاولة رائعة وناجحة في نفس الوقت لقلب الطاولة على ابن ميسون، فأوضحت أن الملك حقيقة هو لآل الرسول وسيدهم حينها الإمام الحسين

(١) - المعجم الوسيط، مصدر سابق : ٢ / ٩٨٨.

(٢) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ٥ / ١٦٠.

(٣) - المصدر نفسه : ٥ / ١٦٠.

عليه السلام ، وان الخلافة هي من حق آل الرسول الذين نصبهم الله تعالى على لسان النبي ﷺ ، وان يزيد قد اغتصبها ، لأن يزيد كان يحكم بإسم خلافة رسول الله ﷺ .

(فمهلاً مهلاً) .

المهل والمهل والمهلة كله السكينة والتؤدة والرفق وأمهله أنظره ورفق به ولم يعجل عليه^١ ، قال الشاعر :

فيا ابن آدم ما أعددت في مهل... لله درك ما تأتني وما تذر

ولعل المعنى : إنها ﷺ بعد أن قدمت مقدمة بددت فيها ظنون يزيد الباطلة ، أكملت ذلك بان إسراع يزيد إلى تنفيذ رأيه بقتل الإمام الحسين والتفرد برأيه الذي أدى إلى شعور يزيد بالنصر والعزة جعل زينب ﷺ تصعقه بكلماتها الحادة ، فتخبره بأن الأمر ليس كما تعتقد ، وليس هذا الإسراع صحيحاً منك ، فلا تعجل حتى تتبين لك حقيقة الأمر .

(لا تطش جهلاً) .

الطيش : خفة العقل ، وفي الصحاح : النَّزَقُ والخَفَّةُ ، وقد طاش يطيش طيشاً وطاش الرجل بعد رزائته^(٢) .

والمعنى : يا يزيد ! لا تأخذك خفة العقل إلى الجهل بالحقائق ، والخلط بين أوهامك وأحلامك وبين الواقع والحقيقة ، فإن سبب أوهامك هذه هو الإغترار بالظواهر ، أما الحقيقة فهي انك متوهم كثيراً ، فإن ما حصلت عليه هو في الحقيقة استدراج لك لتزداد من الآثام ما يجعلك حيس جهنم خالدا فيها .

(١) - لسان العرب ، مصدر سابق : ١١ / ٦٣٣ .

(٢) - لسان العرب ، مصدر سابق : ٦ / ٣١٢ .

(أنسيت قول الله (عز وجل) : {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} ^(١)!!) .
 الملاوة والملاوة والملاوة والملا والملا والملي كله مدة العيش، وقد تملئ العيش، ومليّه وأملاه الله إياه، وملاه وأملئ الله له أمهله وطول له، وفي الحديث : إن الله ليُملي للظالم. الإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر ^(٢) .

وفي ذلك تنبيه ليزيد منها ^{إِلَيْهَا} لأن الإمهال الذي أنت فيه لا يعني أن ذلك لمصلحتك، بل إن ذلك ضدك، فإن الله تعالى إذا علم من شخص أن لا خير فيه ولن يهتدي بعدها أبداً يمهل ويجعله في فسحة من العيش ليزداد إثماً ليكون جزاءه الخلود في جهنم في الآخرة مزوجاً مع الإهانة والتحقير جراء ما قام به من الجرائم والآثام في دار الدنيا.

(أَمِنَ الْعَدْلُ يَا بَنَ الطَّلَاءِ) .

طلقت القوم : إذا تركتهم.. وأطلقت الأسير: إذا حللت إيساره وخلت عنه فانطلق أي ذهب في سبيله.. والطلاق، بضم الطاء وفتح اللام والمد، هم الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم ولم يسترقهم، واحدهم طليق فعيل بمعنى مفعول وهو الأسير إذا خلى سبيله. قيل إن رسول الله ﷺ حين فتح مكة قال : يا معاشر قريش ما ترون أنني فاعل بكم ؟ قالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء. وكان فيهم معاوية، وأبو سفيان. والطلاق من قريش، والعتقاء من ثقيف. وفي الحديث الطليق لا يورث ^(٣) .

(١) - آل عمران : ١٧٨ .

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢٩٠ / ١٥ .

(٣) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ١٣٤ / ٥ .

ولعل السيدة زينب عليها السلام - هنا - قد بلغت ذروة التقريع ليزيد، إذ ذكرته بأصله السافل، ونسبه المخزي الوضع، لاسيما أن ذلك جاء على لسان الرسول ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى، إذ أنها عليها السلام أشارت إلى ما حدث يوم فتح مكة، إذ أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وصارت تحت سلطته - كان بإمكانه أن يقتل المشركين - ومنهم أب وجد يزيد، معاوية وأبا سفيان - لما صدرت منهم من مواقف عدائية وحروب طاحنة ومتتالية ضد النبي الكريم وأتباعه من المسلمين، لكنه ﷺ قام قائماً حين وقف على باب الكعبة، ثم قال : لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة، أو دم، أو مال يدعي ؛ فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ مثل العمدة ؛ السوط والعصا، فيهما الدية مغلظة مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها. يا معشر قريش ؛ إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم ؛ وآدم خلق من تراب. ثم تلا رسول الله ﷺ : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.. }^(١). يا معشر قريش، ويا أهل مكة ؛ ما ترون أنني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال : أذهبوا فأنتم الطلقاء.

فأعتقهم رسول الله ﷺ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء^(٢).

إن رسول الله ﷺ فتح مكة، فصارت البلدة ومن فيها تحت سلطته وقدرته، وكان بإمكانه أن ينتقم منهم أشد إنتقام، وخاصة من أبي سفيان الذي كان يؤجج نار الفتن، ويشير الناس ضد رسول الله، ويحشد الجيوش والعساكر ويقودها لمحاربة النبي والمسلمين، كما حدث ذلك يوم بدر وأحد وحنين والأحزاب، فقد كان ابو

(١) - الحجرات : ١٣.

(٢) - تاريخ الرسائل والملوك، مصدر سابق : ٢ / ٥٥.

سفيان اشد المشركين بغضاً وكرهاً وقسوة ضد دين الله ورسوله الكريم والمؤمنين به. وهكذا كان ابنه معاوية الذي سار على نفس النهج، ولكن الرسول الكريم أطلقهما وخلق سبيلهما في من أطلقهم تطبيقاً لقوله تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا..} ^(١)، فاختار الرسول الكريم المن، وأطلقهم بلا فداء ولا عوض. وهكذا، فقد سار الابن على منهج أسلافه في الحقد والبغض لآل الرسول ﷺ، والوقوف بوجه الدين الحنيف.

وبهذا، فإن السيدة زينب عليها السلام قد نبهت ابن ميسون إلى بعض الأمور، منها :
١/ التاريخ الأسود المخزي لأبيه وجده بسبب موقفيهما من الدين الإسلامي الحنيف، والرسول الكريم ﷺ الذي جاء بهذا الدين.

٢/ تذكيره بالإحسان الذي صدر من جدها رسول الله ﷺ تجاه جده وأبيه فيقبال الإساءة التي صدرت منهما ومنه ضد ذرية من أحسن إليهما.
٣/ إن تصرف يزيد إلي قام به ضد ذرية من أحسن إلى جده وأبيه هو خلاف العدل، إذ أن العدل يقتضي أن يُقابل الإحسان بالإحسان - على الأقل - كما صرح بذلك القرآن الكريم {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} ^(٢).

٤/ إن يزيد لعنه الله قد سار على ما كان عليه جده وأبيه، فالحقد والبغض والعداء للدين الحنيف و آل الرسول هو هو لم يتغير منه شيء.

٥/ إن أفعال الطلقاء ومن سار على نهجهم يدل بأقوى دلالة ويبيّن بأوضح بيان أن هؤلاء لم يعتنقوا الإسلام إيماناً واعتقاداً به وبرسوله الكريم ﷺ، وإنما كان الخيار الأوحده أمامهم بعد أن أسقط ما في أيديهم، فدخلوا الإسلام مجرد تغيير

(١) - محمد عليه السلام : ٤.

(٢) - الرحمن : ٦٠.

منهجية محاربة الدين ورعاته من آل الرسول، وليكونوا هم الأسياد والحكام كما كانوا في الجاهلية، فهم أناس دنيويون يرون أن الحكم والرئاسة هي التي تعطيهم المكانة والقيمة بين الناس، ولأن ذلك ينسجم من كونهم ظالمين طغاة متجبرين.. وهم على هذا الفهم إلى اليوم، وهذه نظرة دنيوية بحته تعكس عدم إيمانهم بالآخرة واليوم الآخر، وعدم الإيمان بذلك يعني وجود خلل في دينهم وعقيدتهم.

وقد تقدم القول من الواضح أن استخدام أسلوب الاستفهام في مثل تلك الموارد - اعني ممن هو على علم عما يسأل عنه - لا يعني أنها عَلَيْهَا تقصد من كلامها هذا السؤال والاستفهام حقيقة، بل تقصد الاستنكار من ذلك زيادة ومبالغة في توبيخ يزيد على سلوكه القبيح، وأخلاقياته المنحطة، تعامله السيئ.. بل أنه بعيد كل البعد عن بديهيات الفطرة البشرية وما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة من أن جزاء الإحسان هو الإحسان !!.

(تخديرك حرائرِك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا).

الْحَدْرُ سِتْرٌ يُمَدُّ لِلجارية في ناحية البيت ثم صار كلُّ ما وارك من بَيْتٍ ونحوه خَدْرًا.. وجارية مُخَدَّرَةٌ إذا أُلْزِمَتِ الْحَدْرَ وَمَخْدُورَةٌ.. وقد أَخْدَرَ الجارية إِخْدَارًا وَخَدَّرَهَا وَخَدَّرَتْ في خَدْرِهَا وَتَخَدَّرَتْ هي وَاخْتَدَّرَتْ.. وَاخْتَدَّرَتْ القارة بالسَّرَابِ استترت به فصار لها كالخدر، قال ذو الرمة :

حتى أَتَى فَلَكَ الدَّهْنَاءُ دُونَهُمْ... وَاعْتَمَّ قُورُ الضُّخَى بِالْأَلِّ وَاخْتَدَّرَا^(١).

الحرّة : خلاف الأمة، والجمع الحرائر، على غير القياس، لأن قياس فعلة أن يجمع على فعل كغرفة وغرف، وإنما جمعت حرّة على حرائر لأنها بمعنى كريمة^(٢).

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٢٣٠.

(٢) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ١ / ٤٦٧.

و (الأمّة) : المرأة ذات العبوديّة، وقد أقرّت بالأمّوة^(١).

و (السوق) معروف ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً.. وسواق يسوق بهن أي حاد يحدو الإبل فهو يسوقهن بحدائهن وسواق الإبل يقدمها ومنه رويدك سوقك بالقوارير وقد انسأقت وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت.. والمساوقة المتابعة كأن بعضها يسوق بعضاً^(٢).

هذا هو أول الأفعال التي خالف بها يزيد لعنه الله العدل، إذ منع نساءه وإماءه من البروز أمام الأجانب الغرباء بينما قام بإخراج بنات الرسالة اللاتي لم يعهدن الخروج أمام الأجانب من قبل.. مضافاً إلى انه اتبع أساليب غاية في الحقد والبغض خلال ذلك، وكما عبرت عليه السلام انه يسوقهن سوقاً، وهذا لا يكون إلا مع من كان بينه وبينهم عدااء وبغض وكراهية، كما يحدث مع السبايا من البلدان والقوميات والديانات الأخرى كالترك والديلم.

ولعلها عليها السلام عبرت بهذا التعبير إشارة إلى ان المطلوب من الحاكم هو العدل وإنصاف الرعية وعدم التمييز على أسس باطلة، فهو عندما ادعى الخلافة لنفسه على أساس البيعة التي أخذها أبوه معاوية له من الماس، كان المفروض والمتوقع منه أن يكون عادلاً.. ولهذا خاطبته السيدة زينب بقولها : أمن العدل أن تجعل جواريك والنساء الحرائر الساكنات في قصرك - وراء الخدر، وتسوق بنات الرسالة وعقائل النبوة، ومخدرات الوحي سبايا ؟!

الا انه من الطبيعي ان لا ينتظر من ظالم طاغٍ باغٍ معادٍ كيزيد غير هذه الأفعال الخسيسة التي تخالف العدل جملة وتفصيلاً.

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ٢ / ٢١٣.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٠ / ١٦٠.

(قد هتكت ستورهن، وأبدت وجوههن) .

ثم بدأت عليها السلام بذكر شواهد أخرى لمخالفة ابن ميسون لما ينبغي أن يقوم به من مجازاة الإحسان الذي أسداه جدها رسول الله ﷺ إلى جده وأبيه، فخالف بذلك منطق العدل، فمضافاً إلى انه ساق بنات الرسالة سبايا إلا انه لم يرعَ حرمتهم، إذ أبدى وجوههن أمام الرجال الأجانب بعد أن سلب جيش الطاغية منهن كل ما يمكن أن يستترن به من البراقع والمقانع وغيرها، حتى ورد أنهم قمن بتغطية وجوههن بأيديهن ، فبعد أن كن مخدرات مستورات، لا يرى أحد لهن ظلاً، وإذا بهن بارزات أمام أنظار الرجال الأجانب !. وفي ذلك إشارة الى ضرورة الحجاب والمحافظة عليه أمام الأجانب.

(تحذو بهن الأعداء من بلد إلى بلد) .

حَدَا الْإِبِلَ وَحَدَا بِهَا يَحْدُو حَدَوًا، وَحِدَاءً مَمْدُودَ زَجَرَهَا خَلْفَهَا وَسَاقَهَا وَتَحَادَتْ هِيَ حَدَا بَعْضُهَا بَعْضًا^(١).

وهذا شاهد آخر من أفعال يزيد تجاه بنات الرسالة، فبعد أن صار عليهن ما صار من المصائب العظيمة، والأهوال التي تندك لهولها شامخات الجبال، لاسيما ما وقع عليهن من الإهانة والإذلال في مجلس ذلك الطاغية نسل الأرزال ابن مرجانة.. سيرهن ذلك الطاغية اللعين إلى الشام، إلى طاعٍ وباغٍ آخر، العتل الزنيم ابن ميسون، رأس الفجور والفساد، فلم تزل تلك الحفريات الطاهرات وزين العابدين يسري بهن على تلك الحالة الفظيعة من قرية إلى قرية، ومن سوق إلى سوق، ومن لعين إلى لعين.. فمن كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى الشام، ويمرون بهن على البلاد الواقعة على الطريق. وحينما كان يمر موكبهن على البلاد والقرى والأرياف، كان

الناس، على اختلاف طبقاتهم، يخرجون للتفرج، في الطرقات و على أسطح المنازل للتفرج عليهن.

ولا أرى فجيعة حلت بهذا الكون أعظم من تلك الفجيعة، فأى صاحب عقل وحكمة يصدق أن هذا الأمر يحل بنات رسول الأمة بعد كل ما قدمه لها، إذ جعلها في عداد الأمم التي يشار لها بالبنان، بل في مقدمتها، وكما عبرت السيدة الزهراء عليها السلام عما كانت عليه تلك الأمة قبل بعثة النبي ﷺ، إذ قالت : (... وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله، بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني بهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب)^(١).

(ويستشرفهن أهل المناقل، ويتبرزن لأهل المناهل).

يستشرف إذا نظر من الشرفة، وهي أعلى الشيء، ومن البناء ما يوضع في أعلاه يحلّى به و بناء خارج من البيت يستشرف منه على ما حوله^(٢).

والمناقل جمع منقل، وهو الطريق في الجبل^(٣).

والنهل أول الشرب تقول أنهلت الإبل وهو أول سقيها.. والمناهل واحد وهي المنازل على الماء.. وتسمى المنازل التي في المفاوز على طريق السفار مناهل لأن فيها ماء^(٤).

لقد عمل يزيد على أن يعرض بنات الرسول ﷺ إلى اشد درجات الإهانة والإذلال، فبعد ان سلب طغاته منهن ما يسترن به وجوههن عن الناس، ساروا بهن سبايا على مرأى من جميع النظار الذي احتشدوا على الطرقات التي يمر بها موكب

(١) - بحار الأنوار : ٢٩ / ٢٢٤.

(٢) - ينظر المعجم الوسيط، مصدر سابق (باب الشين).

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٥ / ١٠.

(٤) - المصدر نفسه : ١١ / ٦٨٠.

السبي، في الوديان وبين الجبال، وفي الأماكن التي ينزلونها للاستراحة أو للتزود بالماء، وفي شوارع المدن والقرى والأمصار وأسطح المنازل وشرفاتها..

(ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والشريف والوضيع، والدنيء والرفيع)

يقال : تَصَفَّحَ الأمرَ وَصَفَحَهُ : نَظَرَ فِيهِ. وقال اللَّيْثُ : وَصَفَحَ القَوْمَ وَتَصَفَّحَهُمْ : نَظَرَ إِلَيْهِمْ طَالِباً لِلْإِنْسَانِ. وَصَفَّحَ وَجُوهَهُمْ وَتَصَفَّحَهَا : نَظَرَهَا مُتَعَرِّفاً لَهَا. وَتَصَفَّحْتُ وَجُوهَ القَوْمِ إِذَا تَأَمَّلْتُ وَجُوهَهُمْ تَنْظُرُ إِلَى حِلَالِهِمْ وَصُورِهِمْ وَتَتَعَرَّفُ أَمْرَهُمْ^(١).

الشريف : الرجل العالي. ورجلٌ شريفٌ من قومٍ أشرف^(٢). ورجلٌ وَضِيعٌ وَضِعَ يَوْضَعُ وَضَاعَةً وَضَعَةً وَضِعَةً صارَ وَضِيعاً فَهُوَ وَضِيعٌ وَهُوَ ضِدُّ الشَّرِيفِ^(٣). والدُّنْيَى الدُّنْيَى الْأَخْلَاقُ^(٤). والرفيع : الشريف، ومنه الدرجات الرفيعة، والبيت الرفيع. ورفعهُ رفعة : ارتفع قدره^(٥).

وهذا أيضاً مما تسببت فيه أفعال يزيد بدافع الحقد والبغض والعداء لآل الرسول ﷺ، إذ جعل جميع الناس وبمختلف أصنافهم، القريب والبعيد، والشريف والوضيع، والدنيء والرفيع.. ينظر إلى وجوه ما نظر إليها إلا من كان منها، إلا أن الطغاة بمقدتهم وعدائهم تنكروا لكل القيم والمبادئ الإنسانية فارتكبوا ما ارتكبوا ظناً منهم أن التاريخ سيغفر لهم هذه الجرائم، فوضعوا أنفسهم موضع يتمنون لو أن لم يفكروا بارتكاب ما ارتكبوا.

(١) - تاج العروس، مصدر سابق : (باب صفح).

(٢) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٣ / ٢٦٣.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٨ / ٣٩٦.

(٤) - القاموس المحيط، مصدر سابق : ٢ / ١٢٤.

(٥) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ٣ / ١٨٨.

(ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي).

ترى ! بأي مقياس يُنظر إلى أفعال ابن ميسون وجلاوزته ؟ فهل يمكن أن يُعد التهجم على النساء العفيفات اللاتي فقدن حماتهن، والمدافعين عنهن، ويحرق خيامهن، ويقتل أطفالهن، ويسلب ما يسترن به وجوههن، ويحدوا بهن من بلد إلى بلد.. من الشجاعة ؟

كلا، انه الجبن والهمجية والحقد والبغض والعداء بأجلى صورته.. فكيف إذا كانت تلك النساء بنات الرسول ﷺ وكريمات من اختارهم الله سبحانه لإقامة شرعه ودينه.

إنها الشجاعة التي انقدحت من لسان ما عرف المجاملة على حساب الحق، انه اللسان الذي ورث النطق بالحق والتفاني في ذات الله من ألسنة كانت كالسيوف البتارة في الدفاع عن حياض الشرع المقدس، من جد وأب وأُم ما وجد الضعف في سبيل الله إليهم سبيلاً..

إنها عَلَيْهِمَا تَضْرِبُ فِي الصِّمِيمِ، إنها تصف تصرفات يزيد بتصرفات الجبناء الذين تنكروا لقيم الإنسانية والرجولة التي اعتاد عليها الأحرار في العالم.

(عتواً منك على الله).

عَتَا : يَعْتُو عُتْوًا وَعِتِيًّا اسْتَكْبَرَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ^(١).

وهنا بدأت سياط التقريع الزينبي تذكر لكل من يصله خطابها الاسباب الحقيقية التي دفعت يزيد الى فعل ما فعل، وهذا اولها، إذ كان استكباره وتجبره على الاسلام والمسلمين وعلى ال الرسول يتجاوز الحد في البغي والظلم عليهم

عليه السلام، حتى بلغ به الامر ان يقتل رجالهم ويذبح اطفالهم ويسبي نساءهم بهذه الوحشية والهمجية، ثم يعلن فرحه بذلك امام الملأ وعلى رؤوس الاشهاد.

(وجحوداً لرسول الله).

الجحود الإنكار مع العلم^(١). وهذا هو الدافع الثاني لأفعال ابن ميسون الدنيئة، قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }^(٢).

ما أخس تلك الدوافع، فبالأمل فيها نجد حربه في حقيقتها ضد الله ورسوله (عتواً منك على الله، وجحوداً لرسول الله)، هذا من جهة. ومن جهة أخرى أنها كلامها عليه السلام يشير بوضوح إلى العلاقة الربانية بين الله تعالى وأهل البيت عليه السلام، كيف لا وهم على ما هم عليه من الطاعة لله والقرب منه ؟.

والعجيب في امر يزيد انه يعلم بذلك، ولذا استخدمت عليه السلام لفظ (الجحود) !

فإننا لله وإننا اليه راجعون.

(ودفعاً لما جاء به من عند الله).

الدفع الإزالة بقوة^(٣). وهذا أيضاً من أوضح دلائل محاربة ابن ميسون لله ورسوله، فقد عمل جاهداً، كما كان أبوه معاوية وجده أبو سفيان، على إزالة ما جاء به الدين الإسلامي الخفيف رغبة منهم الى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه في الجاهلية من

(١) - المصدر نفسه : ٣ / ١٠٦.

(٢) - النمل : ١٤.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٨ / ٨٧.

ظلم وتسلط بالقوة وقهر الناس بالنار والحديد، كفرأ منهم بما جاء به الرسول الكريم وحباً للدنيا وزخارفها.

لقد قرعت السيدة زينب أسماع ذلك الطاغية بحقيقته التي جهد ان يخفيها على المنخدعين به وبأسلافه الباغين على الدين وعلى من جاء به من عند الله سبحانه.

(ولا غرو منك، ولا عجب من فعلك).

الغَرَوْ : العَجَب . ولا غَرَوْ ولا غَرَوِي ، أي : لا عَجَب^(١).

ومع كل ذلك، فإن السيدة زينب عليها السلام تعد تلك الأفعال والجرائم التي صدرت من ابن ميسون أموراً طبيعية لا تثير العجب عند من يعرف حقيقة هذا الجرم، لاسيما بعد ان ذكرت عليها السلام الأسباب والدوافع الحقيقية لها، ف (كل إناء بالذي فيه ينضح)، فالجرم والطاغي والظالم لا يصدر منه إلا ما يتناسب مع هذه الصفات من الإجرام والبغي والظلم.

(وأنى ترتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الشهداء، ونبت لحمه بدماء السعداء ؟).

وهنا تشير السيدة زينب عليها السلام إلى أمور مهمة، منها :

١/ إن العامل الوراثي كان احد الأسباب لأفعال يزيد وجرائمه التي ورثها من أبيه وجده ضد الإسلام والمسلمين وأهل البيت عليهم السلام.
ومن دلائل وراثته لجدّه وأبيه انه سار على نفس النهج الذي كانوا عليه من شرب الخمر والفحشاء والفجور.. وهذه كلها أسباب كان لها دورها في إيجاد هذه النتائج والعواقب السيئة للطاغية يزيد، مضافاً إلى دلالتها على عدم إيمانه بما جاء به الرسول ﷺ من واجبات ومحرمات.

٢ / إن أفعال يزيد وجرائمه تنسب إلى أبيه وجده الذين كان لهم الدور الواضح في تلك التربية الفاسدة والعقيدة المنحرفة التي كان عليها يزيد، وفي المقابل نسبة أفعال وجرائم آبائه له بلا فرق، فالهدف واحد والمنهجية واحدة. فالذي لفظ فوه أكباد الشهداء هي جدته هند التي التي أمرت بتمزيق أحشاء الشهيد السعيد حمزة بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ ولكت كبده الشريف، تعبيراً عن حقدها وبغضها وعداوتها للرسول واله، ولكن الله تعالى أبى أن تدخل قطعة من كبده سيدنا حمزة في جوف تلك المرأة السافلة، فلم تؤثر أسنانها فيها، فلفظتها ورمتها من فمها، فاكسبت بذلك لقب (أكلة الأكباد) !!.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى صحة مثل هذه النسبة، إذ قال : (الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاحِلِ فِيهِ مَعَهُمْ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانٍ : إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضَى بِهِ (والراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم)^(١)، ويشهد له قوله تعالى في ثمود قوم النبي صالح عليه السلام : {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}^(٢)، وما شاكلها من الآيات. فقد نسب سبحانه عقر الناقة إلى الجميع، فأهلكهم جميعاً، مع كون العاقر واحداً، ذلك لكون الباقيين راضين بفعله.

وهكذا كان استيلاء على ممتلكات المسلمين باسم الخلافة الإسلامية عن طريق قتلهم والتكيل بهم واخذ حقوقهم، فنبت لحمه من هذه الأموال والممتلكات المغصوبة.

٣ / إنها عليه السلام تنبه إلى التاريخ السيء والأسود لتلك العائلة المتسافلة ومواقفها من الرسالة الإسلامية والمبعوث بها ﷺ.

(١) - نهج البلاغة، مصدر سابق : قسم الحكم، الحكمة ١٥٤.

(٢) - الشمس : ١٤ - ١٥.

(ونصب الحرب لسيد الأنبياء).

وهذه نسبة أخرى تنسب فيها السيدة زينب عليها السلام أفعال السلف إلى الخلف لنفس العلة السابقة، فهي تنسب العداء المقيت الذي يختلج في صدر جد يزيد أبو سفيان وأبوه معاوية للرسول ﷺ حتى وصل الأمر إلى شن الحرب ضد من بعثه الله تعالى برسائله وجعله أميناً على وحيه.

(وجمع الأحزاب).

الحزبُ : أصحاب الرجل معه على رأيه، والمنافقون والكافرون حزبُ الشيطان، وكل قوم تشاكت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب، وإن لم يلق بعضهم بعضاً، بمنزلة عادٍ وثمود وفرعون {.. أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ} ^(١)، {.. كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} ^(٢)، أي كل طائفة : هواهم واحد ^(٣).

والحزبُ الطائفةُ والأحزابُ الطوائفُ التي تجتمع على مُحاربةِ الأنبياء عليهم السلام وفي الحديث ذكر يوم الأحزاب وهو غزوة الخندق ^(٤). فأبو سفيان هو الذي كان يجمع الناس، ويجعل منهم جيشاً في مكة، ويتحالف مع اليهود والنصارى وغيرهم من القبائل ويخرج لحرب رسول الله ﷺ وقاتل المسلمين، كما في معركة بدر الكبرى، ومعركة أحد، وغزوة الأحزاب التي عرفت فيما بعد - ب (غزوة الخندق).

(١) - ص : ١٣.

(٢) - المؤمنون : ٥٣.

(٣) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٥٧ / ٢.

(٤) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣٠٨ / ١.

(وشهر الحراب، وهز السيوف في وجه رسول الله ﷺ) .

الحرابُ : جمع الحربة دون الرُمح^(١).

و (هز السيوف) كناية عن الاستعداد والخروج للحرب. وهذه إشارة أخرى إلى أن من جمع سيوف الأحزاب والقبائل ضد رسالة الله ورسوله هو جد يزيد أبو سفيان، ولذا قالت عائشة السيوف ولم تقل (هز السيف).

(أشد العرب لله جوداً، وأنكرهم له رسولاً، وأظهرهم له عدواناً، وأعتاهم على الرب كفرأً وطنياً) .

الجُحودُ : الإنكار مع العلم^(٢).

و (الإنكار) : الجُحودُ والمناكرةُ المحاربة^(٣).

و (عتاً) يَعْتُو عْتَوْاً وَعْتِيّاً اسْتَكْبَرَ وجاوزَ الحدَّ^(٤).

و (طغى) : جاوزَ القَدْرَ وارتفع وغلا في الكُفْرِ^(٥).

ما زالت السيدة زينب عائشة تكشف للرأي العام حقيقة الحزب الاموي وكبيره ابي سفيان، ومن هذه الحقائق التي وكزت عليها السيدة زينب عائشة هنا هي ان ابا سفيان - وتبعه على ذلك معاوية ويزيد - كان اشد العرب، الذين بُعث فيهم النبي ﷺ إنكاراً لله لوجود الله ودينه ورسوله الكريم ﷺ، وترتب على ذلك ان كان عداءه لله ودينه ورسوله الكريم ظاهراً بيناً حتى وصل به الامر الى ان يكون اكثرهم استكباراً على الله تعالى. إذ انه من الواضح أن العرب في مكة وغيرها كانوا على

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ٢١٤.

(٢) - لسان العرب : ٣ / ١٠٦.

(٣) - المصدر نفسه : ٥ / ٢٣٢.

(٤) - المصدر نفسه : ١٥ / ٢٧.

(٥) - المصدر نفسه : ١٥ / ٧.

درجات متفاوتة في نسبة إنكارهم لوجود الله تعالى، فمنهم من هو جاحد ومنكر تماماً لذلك الامر، ومنهم من كان يحيك المؤامرات ضد النبي الكريم بصورة سرية، ومنهم من كان يخرج لحرب رسول الله ﷺ بشكل مكشوف، ومنهم من هو كافر به رغم علمه بحقيقة الامر، ومنهم من كان يعيش حالة الشك في الإستمرار في الكفر أو الشرك، ومنهم من كان منكراً لله تعالى، ولكنه يتخذ موقف المحايد تجاه النبي الكريم، ولا يبذل أي نشاط ضد الإسلام والمسلمين، ومنهم من هو دون ذلك، وهكذا.. والسيدة زينب ؑ تصرح بأن ابا سفيان ومن هم على نهجه قد جمعوا جميع ذلك الا الصنف الاخير، فكان الاشد جحوداً والانكر لرسول الله ﷺ والظاهر لعدائه له والاعتى في كفره وطغيانه على الله جل وعلا، فضرب بذلك الرقم القياسي في البغض والعداء للرسول واله الاطهار! فماذا ينتظر منه افضل من ذلك؟!.

هذه هي صفات أبي سفيان، زعيم الحزب الاموي في حربه ضد الله ورسوله، وقد ورثها منه ابنه معاوية في عدائه ضد أمير المؤمنين ؑ، ثم يزيد، فلو تتبعنا ما فعله ابو سفيان في حروبه ضد الرسول والمسلمين، وكذلك ما فعلته زوجته هند، سنجد انه قام بنفس الافعال، وان اختلفت الالية، فقد قاتل اهل البيت كما قاتل جده الرسول، وقد مثل بجسد الامام الحسين عندما حز رأسه وداس صدره الشريف بحوافر الخيول كما فعلت ذلك جدته هند بحمزة (رض)، بل زاد هو في الوحشية والهمجية.

فهل يشك احد - بعد ذلك - بأن هذه الزمرة لم تكن تنتمي للإسلام؟
ان ادنى ما تدل عليه هذه المواقف هو ان هؤلاء هم الاعداء الحقيقيون للإسلام والله ولوسوله ولال بيته، فهم لم يكونوا مسلمين لحظة واحدة، بل ان بعض

المؤرخين قد اعلن صراحة ان معاوية مات على غير ملة الاسلام، ومنهم صاحب كتاب (تاريخ بغداد)، إذ قال : (مات معاوية على غير ملة)^(١).
وقد استفاد اعداء الاسلام هؤلاء من الجيش الكبير الذي كان ينفذ أوامرههم بلا مناقشة، ويطيعهم طاعة عمياء، دون رعاية الجوانب الإنسانية أو الدينية. كما انه كان مُستغلاً من قبل مستشارٍ مسيحي حاقد كان له، ورد ان إسمه (سرجون)، يملّي عليه الخطط الخبيثة في كيفية القضاء على الإسلام !.

(ألا إنها نتيجة خلال الكفر).

ألا : حرف لجلب الانتباه، أو للتأكيد على ما يجبر عنه^(٢).
النتيجة - هنا - العاقبة.

خلال : جمع خلة - وهي الخصلة، وفي الدعاء : و تحذوني عليها خلة واحدة.
أي : تبعثنّي و تسوقني عليها خصلة واحدة^(٣).

ولعل المعنى : إنها ﷺ تلفت الانتباه إلى أن هذه الأفعال والجرائم التي قام بها ابن ميسون وكل ما سيطرت عليها من نتائج، سواء كانت مقصودة له أم لا - إنما كانت بسبب ما يتصف به هو وقبيله من الصفات التي ذكرتها ﷺ آنفاً، وهنا تصريح منها ﷺ بأن هذه الصفات إنما هي صفات الكافرين بالله وبرسوله وبالرسالة التي جاء بها.

ولا نحتاج أن نشير هنا إلى الشجاعة الفريدة التي أحاطت بها السيدة زينب ﷺ نفسها ومشروعها الإصلاحية، فليس من المعتاد ان يتهم شخص (خليفة المسلمين) بأنه كافر يحمل جميع صفات الكافرين عن عمد وقصد !.

(١) - تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي : ١٤ / ١٧٦.

(٢) - ينظر : كتاب (مغني اللبيب) لإبن هشام.

(٣) - ينظر : مجمع البحرين، مصدر سابق : ١ / ٦٦.

ترى ! ما الذي فعله ابن ميسون بنفسه عندما أمر بجمل بنات الرسالة سبايا ؟!

(وضب يجر جر في الصدر لقتلى يوم بدر).

الضَبُّ : الحقد في الصدر، والضَبُّ : ورم في خُفِّ البعير. وقال الليث : أَضَبَ الرجل على حَقْدٍ في القلب وهو يُضَبُّ إضباباً^(١).
الجرَجَرَةُ : صوت يردده البعير في حنجرتة، فهو بعير جَرَجَارٌ، كما تقول: ثرثر الرجل فهو ثرثار^(٢). وقد جَرَجَرَ إذا ضَجَّ وصاح^(٣).

ولعل المعنى : إن حقد يزيد الذي ازدحم في صدره حتى صار كالورم الخبيث فخرج على شكل أفعال خبيثة مقبلة تمثلت في قتل سليل خاتم الأنبياء وسبي عياله.. كل ذلك طلباً للأخذ بثارات المقتولين في يوم بدر.

وهذا توهين وتحقير آخر منها ﷺ لهذا الطاغية في مجلسه وأمام أعوانه وأنصاره وأتباعه، إذ أن (خليفة المسلمين) يطالب بثارات أقطاب الشرك الذين كانوا قد خرجوا من مكة لمحاربة رسول الله ﷺ وقتال المسلمين. إذ ظهر ذلك جلياً على لسانه عندما تمنى حضورهم بقوله : (ليت أشياخي ببدر شهدوا).. انه يعلن صراحة موالاته لهم بقوله (أشياخي) وهم : عتبة بن ربيعة، وشيبة، والوليد بن شيبة. أما عتبة فقتله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وأما شيبة وابنه الوليد فقد قتلتهما الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

انها الجرأة الواضحة على الله تعالى ورسوله ! والغريب ان لا احد لا ينكر عليه ذلك إلا هذه المرأة المستتبسة في الدفاع عن الدين وأهله.

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٤ / ١٤٢.

(٢) - الصحاح في اللغة، مصدر سابق : ١ / ٨٥.

(٣) - تاج العروس، مصدر سابق : (مادة جر).

إن جميع ما قام به الطاغية يزيد، من قتله الإمام الحسين وأصحابه وأهل بيته، وسبي الطاهرات من نسائه وحرمه، وإهائته لرأس الإمام الحسين عليه السلام تعتبر نتيجة طبيعية للكفر المكشوف والحقْد الدفين في قلب يزيد، وهذا هو شأن الذي لم يدخل الإيمان قلبه، واتخذ منصب خلافة الرسول الكريم، وسيلة لسلطته على الناس، وانهماكه في الشهوات، ومحاربه للدين وأهله. وكان يتجاهر بارتكاب المحرمات، كبشرب الخمر، ولعب القمار، واللعب بالقرود وما الى ذلك من المنكرات التي حرّمها الله سبحانه، فأعطى بذلك الجرأة لجميع الناس بأن يتجرأوا على ارتكاب الجرام في الأماكن العامة دون وجل او حذر، أو حياء أو خجل.

(فلا يستبطئ في بغضنا - أهل البيت - من كان نظره إلينا شنفًا وإحنًا وضغناً . وفي نسخة : (وكيف يستطئ في بغضنا ..) .

الشفنُ إلى الشيء والشفنُ إليه : النظر في اعتراض. وقيل : الشنفُ النظر إلى الشيء كالمتعجب منه أو كالكاره له^(١).

و(أحن) الإحنةُ : الحقدُ في الصدر^(٢).

ويقال : ضغن صدره انطوى على حقد فهو ضغن وضاغن^(٣).

ولعل المعنى : فكيف لا يسرع إلى بغض وكره وعداوة أهل بيت رسول الله ﷺ من كان يتصف بمثل هذه الصفات التي يبطنها ويؤطرها الحقد والبغض والعداء والشفن والشنآن والإحن والأضغان ؟

وهنا تعبر السيدة زينب عليها السلام عن حقيقة العقيدة التي تختلج في صدر هذا الطاغية تجاه أهل بيت الرسول ﷺ، فهو إعلان منها عليها السلام إلى مخالفة يزيد الصريحة

(١) - العباب الزاخر، الصاغاني : ١ / ٤٤٩.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٣ / ٨.

(٣) - ينظر : المعجم الوسيط، مصدر سابق : (باب الضاد).

لما جاء به الكتاب المجيد من وجوب مودة أهل البيت ومحبتهم، إذ قال تعالى : {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} ^(١).

(يظهر كفره برسوله، ويفصح ذلك بلسانه).

أَفْصَحَ : يريد به بيان القول ^(٢).

وفي ذلك إشارة منها ﷺ إلى جرأة يزيد على الله ورسوله بحيث انه لا يخشى من اظهار كفره قولاً وفعلاً، فإن كان قد خدع أتباعه بأن أفعاله كانت ضد من خرج على الدين وشق عصى المسلمين، إذ جاء لهم بأحاديث موضوعة من قبل الحزب الأموي لتبرير أفعاله وشرعتها.. فكيف ولماذا سكت (المسلمون) عن تصريحات يزيد العلنية التي يعبر فيها عن كفره الصريح ؟! ومن ذلك البيت الذي أنشده أمام الملاء :

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
وهل يوجد تصريح أوضح من ذلك في إنكار المرسل الرسالة والرسول ؟. لقد أظهر كفره برسالة النبي ﷺ وتجاهر بذلك، واعتبر النبوة والرسالة والوحي والقرآن كلها من صنع بني هاشم لكي يصلوا إلى السلطة.
وفي ظني إن نفس هذا الاعتقاد يعبر عن حقيقة يزيد في دفاعه عن السلطة والملك، إذ أن الشخص يعبر بألفاظه عما يعتقد، وقد يتعامل مع الآخرين بنفس تلك العقيدة والمنطق، فمثلاً إن الكاذب لا يثق بالناس لأنه يرى صورة لنفسه في الآخرين، وهكذا الخائن وغيرهما.. فيزيد يرى في جميع من يعترض عليه انه طامع

(١) - الشورى : ٢٣.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ٥٤٤.

في السلطة والملك مثله تماماً، فهذا في الحقيقة اعتراف ضمني منه بأنه محب للملك ويسعى إليه بكل الوسائل.

(وهو يقول — فرحاً بقتل ولده، وسبي ذريته، غير متحوب ولا مستعظم — :
لأهلوا واستهلوا فرحاً، ولقالوا : يا يزيد لا تشل) .

الحُوبُ : الحزنُ وقيل الوحشة.. والحُوبُ : الوجع، والتَّحُوبُ : التَّوجعُ
والشَّكْوَى والتَّحْزَنُ، ويقال فلان يتحوب من كذا : أي يتغيظ منه ويتوجع^(١).
وعظم الشيء عظماً وعظامة بالفتح أيضاً : كبر، فهو عظيم^(٢).

ولعل المعنى : إن يزيد — مع كل ذلك — لا يشعر من جراء مواقفه تلك بالألم واللوعة والحزن، بل ولم يشعر بأن أفعاله تلك أفعال عظيمة لم يقم بها عدو مثله.. بل الأمر على العكس كم ذلك تماماً، فهو قد قال ما قال — وهو يصرح بكفره البواح، وأخذ به ثأر أوليائه وأشياخه المشركين — وهو في قمة الشعور بالفرح والسرور، فأعلن أمام الملأ أن أشياخه الذين نزلت بشركهم آيات الذكر الحكيم، لو كانوا حاضرين يرون ما فعل بذرية الرسول ﷺ لغشيتهم الفرحة ولقاموا بتأييده على هذا الفعل الجبان. وفي ذلك إشارة واضحة من هذا الطاغوي إلى أنه يسعى إلى مرضاة أسلافه المشركين وإن كان على حساب سخط الله ورسوله وعدم رضاهم ! وهي دلالة أخرى على عدم إيمانه بوجود الله وبعثة النبي ﷺ، أو قل هي نتيجة طبيعية لعدم إيمانه بذلك.

وبتعبير آخر : أن السيدة زينب عليها السلام قد أعلنت حقيقة أخرى تخص هذا الزنديق، وهي أنه كان يعيش حالة عدم الإكتراث واللامبالاة بما قام به من جرائم بحق الدين وأهله، وبما يصرح به من كلمات كفرية، بل أنه يشعر بالفرح والسرور لقتله ابن رسول الله، وسبي ذريته الطاهرة. إذ من الواضح أن الذي لا يؤمن بيوم

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣٣٨ / ١.

(٢) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ٨٥ / ٦.

الجزء لا يفكر في مضاعفات جرائمه، ولا يشعر بالخرج أو الخوف من أعماله التي سوف تجر إليه الويل !!.

(منحنيًا على ثنايا أبي عبد الله — وكان مقبل^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — ينكتها بمخصرته).

الثنية : هي تجمع على ثنايا، وهي الأسنان المتقدمة، اثنان فوق واثنان تحت^(٢).
النَّكَتُ أَنْ تَنَكَتَ بِقَضِيبٍ فِي الْأَرْضِ فَتُؤَثِّرَ بِطَرَفِهِ فِيهَا^(٣).
والمَخْصَرَةُ كَمَكْنَسَةٍ كَالسُّوْطِ وَقِيلَ : هُوَ مَا يَأْخُذُهُ الرَّجُلُ بِيَدِهِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ كَالْعَصَا وَنَحْوِهِ. يُقَالُ : نَكَتَ الْأَرْضَ بِالْمَخْصَرَةِ هُوَ مَا يَأْخُذُهُ الْمَلِكُ يُشِيرُ بِهِ إِذَا خَاطَبَ وَيَصِلُ بِهِ كَلَامُهُ كَذَلِكَ الْخَطِيبُ إِذَا خَطَبَ. وَالْمَخْصَرَةُ : كَانَتْ مِنْ شِعَارِ الْمُلُوكِ وَالْجَمْعُ الْمَخَاصِرُ، قَالَ :

يَكَادُ يَزِيلُ الْأَرْضَ وَقَعَ خِطَابُهُمْ... إِذَا وَصَلُوا أَيْمَانَهُمْ بِالْمَخَاصِرِ
وفي الحديث : " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبَقِيعِ وَبِيَدِهِ مَخْصَرَةٌ لَهُ فَجَلَسَ فَنَكَتَ بِهَا الْأَرْضَ " قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : الْمَخْصَرَةُ : مَا اخْتَصَرَ الْإِنْسَانُ بِيَدِهِ فَأَمْسَكَهُ مِنْ عَصَا أَوْ مِقْرَعَةٍ أَوْ عِزَّةٍ أَوْ عَكَازَةٍ أَوْ قَضِيبٍ وَمَا أَشْبَهَهَا وَقَدْ يُتَكَأُ عَلَيْهِ^(٤).

تري ! أي حقد هذا الذي يختلج في صدر ابن الطلقاء هذا ضد النبي وآله ؟،
إن الالفاظ لتعجز عن وصف وبيان هذا المقطع من خطبتها ﷺ !! فهي تصف نوع خاص من المآسي التي أوجدها الحزب الاموي البغيض ضد اهل البيت ﷺ،

(١) - مقبل : موضع التقبيل.

(٢) - كتاب الكلديات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري : ١ / ٥٠٠.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ١٠٠.

(٤) - تاج العروس، مصدر سابق : باب (خصر).

فكيف يمكن لمن يدعي الانتماء لدين محمد ﷺ ان يتجرأ، وأمام مرآى الجميع، على أن يضرب تلك الثنايا المقدسة، التي كانت موضع تقبيل رسول الله ﷺ ؟! .
والذي يدعوا الى التأمل في مدى بغض هؤلاء لال البيت ﷺ هو ان هذا الفعل قد تكرر من ابن مرجانة وابن ميسون في الكوفة والشام، دون اتفاق منهم، مما يدعوا الى القول الى ان ما يختلج في صدورهم من غل لاهل هذا البيت الطاهر لا يُحد بحدود.

لقد كان همُّ هؤلاء الطغاة الاول ان يشبعوا حقدهم وعداءهم لال النبي، فلم يكتفوا بقتل الحسين وسبي عياله، بل قاموا بوضع الرأس الشريف امام اطفاله ونسائه ﷺ وراحوا يروون غليلهم بهذا الفعل المشين، هذا من جهة. ومن جهة اخرى إمعاناً منهم في زيادة الاذى على أطفال وبنات الرسالة، فكيف يمكن لهم الصبر على هذا المشهد الفضيع اذا كان من لا تربطه بالحسين ﷺ صلة رحم ولا قرابة، بل وكان ممن يؤيد الحزب الاموي في افعاله، لم يتحمل ذلك وراح ينهر يزيد على فعله هذا متحملاً جميع العواقب، كزيد ابن أرقم وأنس بن مالك، وما ذلك الا لانه يرى ان مثل هذا الفعل مما لا يمكن تحمله والصبر عليه.. فقد ورد عن سعد بن معاذ وعمر بن سهل أنهما حضرا عبيد الله يضرب بقضيبه أنف الحسين وعينه ويطنن في فمه.

فقال له زيد بن أرقم : ارفع قضيبك، إني رأيت رسول الله ﷺ واضعاً شفتيه على موضع قضيبك. ثم انتحب باكياً.

فقال له : أبكى الله عينيك يا عدو الله، لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك. فقال زيد : لأحدثك حديثاً هو أغلظ عليك من هذا.. رأيت رسول الله ﷺ أقعد حسناً على فخذه اليمنى وحسينا على فخذه اليسرى، فوضع يده على يافوخ كل واحد منهما، وقال : إني أستودعك إياهما وصالح المؤمنين.

فكيف كانت وديعتك لرسول الله ﷺ^(١).

وذكر ابن الاثير في البداية والنهاية ردة فعل انس بن مالك، إذ قال : وذهبوا برأسه إلى عبيد الله بن زياد فوضعوه بين يديه، فجعل ينكت بقضيب في يده على ثناياه، وعنده أنس بن مالك جالس، فقال له : يا هذا ارفع قضيبك، قد طالما رأيت رسول الله يقبل هذه الثنايا^(٢).

انه نوع فريد من الصبر ذلك الذي كان على زينب - وهي امرأة - ان تتحمله ! فتحملته ما دام ذلك في عين الله، ورسمت بذلك لوحة العشق الالهي الذي لا تحده حدود هذه الدنيا البغيضة، ولتعلن ان على المؤمن ان يخلق في أجواء الطاعة لله سبحانه ليكون جزاءه (رضوان من الله اكبر).

(قد التمع السرور بوجهه).

لَمَعَ الشَّيْءُ يَلْمَعُ لَمْعًا وَلَمَعَانًا وَلُمُوعًا وَلَمِيعًا وَتَلْمَاعًا وَتَلْمَعٌ كُلُّهُ بَرَقَ وَأَضَاءٌ^(٣).

إن استخدامها ﷺ هذا التعبير يُعبر عن الفرح الشديد وليس مجرد الفرح، لان الفرح الشديد يؤدي إلى تدفق الدم إلى الوجه فيحمر، وبذلك تظهر آثار الفرح على ملامحه، فيقال : إلتمع السرور بوجهه. هكذا كانت فرحة يزيد حين ضرب تلك الثنايا الشريفة.

لقد دفع الحقد والعداء ابن ميسون إلى أن ينكت ثنايا أبي عبد الله، ويضرب على شفثيه ووجهه الشريف، ويفرق بين شفثيه بعصاه ليضرب على أسنانه عدة مرات، متلذذاً بذلك، وهو في أوج الفرح والإنتعاش !! ولا ارى اننا نحتاج الى بيان

(١) - مشير الأحزان، ابن نما الحلبي : ٤ / ١٠.

(٢) - البداية والنهاية، مصدر سابق : ٦ / ٢٣٢.

(٣) لسان العرب، مصدر سابق : ٨ / ٣٢٤.

ان ذلك دليلاً ناصعاً على ان يزيد كان يشعر بالاسى من وجود آل الرسول وهممتهم على قلوب الناس، هذا من جهة. ومن جهة اخرى فإنه كان يشعر بالخوف منهم على كرسي الحكم لعلمه بأن الامر اليهم وليس له وانهم الاحق به وليس هو.. لذا كان قتل الامام الحسين وسبي عياله يبعث الفرح والسرور في قلبه حتى بان ذلك على وجهه دون خجل او وجل.

(لعمرى لقد نكأت القرحة)

الْقَرْحُ الْأَلَمُ.. وفي حديث جابر كنا نَخْتَبِطُ بِقَسِينَا، ونَأْكُلُ حَتَّى قَرَحَتْ أَشْدَاقُنَا، أَي : تَجَرَّحَتْ مِنْ أَكْلِ الْخَبَطِ، وَرَجُلٌ قَرِحٌ وَقَرِيحٌ ذُو قَرْحٍ، وَبِهِ قَرْحَةٌ دَائِمَةٌ. وَالْقَرِيحُ الْجَرِيحُ مِنْ قَوْمٍ قَرِحَى وَقَرَاخَى، وَقَدْ قَرَحَهُ إِذَا جَرَّحَهُ.. وَقِيلَ سَمَّيْتُ الْجَرَاحَاتِ قَرْحاً بِالمصدر، والصحيح أن القَرْحَةَ الجِرَاحَةُ^(١).
و (نَكَأْتُ الْقَرْحَةَ) : أَنْكَؤُهَا نَكَأً. أَي : قَرَفْتُهَا وَقَشَرْتُهَا بَعْدَمَا كَادَتْ تَبْرَأُ^(٢).
لعل المعنى هو احد أمرين أو كلاهما :

الأول/ أن ضرب يزيد بمخصرته لثنايا سيد الشهداء قد تسبب في زيادة أحزان السيدة زينب عليها السلام والعائلة الكريمة، وفجر لديها دموع الأسى والألم، فاستولى عليهن البكاء والنحيب، حتى أن بنتين من بنات الإمام الحسين عليه السلام جعلتا تتطاولان - أي : تقفان على رؤوس أصابع أرجلهن - تنتظرا إلى الرأس الشريف، من وراء كراسي الجالسين، فلما نظرتا إلى يزيد وهو يضرب الرأس الشريف، ضجتا بالبكاء والعيول، ولادتا بعمتهما السيدة زينب، وقالتا : يا عمته ! إن يزيد يضرب ثنايا أبينا، فقولني له : لا يفعل ذلك^(٣).

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ٥٥٧.

(٢) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ٤٥٢.

(٣) - المعجم الكبير، للطبراني، طبع بغداد : ٣ / ١٠٩.

فقامت السيدة زينب عليها السلام ولطمت على وجهها ونادت : (واحسيناه ! يابن مَكَّة ومنى !. يا يزيد : إرفع عودك عن ثنايا أبي عبد الله).
الثاني / ما ذكرناه من استعمال السيدة زينب عليها السلام لسلح اثاره العاطفه ، وهو سلح فعال في مثل تلك الحالات .

(واستأصلت الشافه) .

استأصله أي قلعه من أصله .. وقيل هو من الأصيلة بمعنى الهلاك واستأصل القوم قطع أصلهم^(١) .
والشافه قرحة تخرج في القدم وقيل في أسفل القدم وقيل هو ورم يخرج في اليد والقدم من عود يدخل في البخسه أو باطن الكف فيبقى في جوفها فيرم الموضع ويعظم وفي الدعاء استأصل الله شافتهم وذلك أن الشافه تكوى فتذهب فيقال أذهبهم الله كما أذهب ذلك وقيل شافه الرجل أهله وماله^(٢) .
يقال : استأصل شافته : أي أزاله من أصله^(٣) .

ولعل المعنى : إنها عليها السلام قد أعلنت لكل من يصله كلامها عبر الأجيال نتيجة مهمة لفعل ابن ميسون هذا يجعل منه جريمة لا يماثلها مثيل ولا يقابلها نظير .. فقد استأصل شجرة النبوة من جذورها بقتله الإمام الحسين عليه السلام ، فالإمام آخر من بقي من أصحاب الكساء ، الذين نزلت فيهم آية التطهير : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }^(٤) ، ومن لطائف تلك الآية المباركة إن الله تعالى هو الذي سماهم (أهل البيت) .

(١) - لسان العرب ، مصدر سابق : ١١ / ١٦ .

(٢) - المصدر نفسه : ٩ / ١٦٧ .

(٣) - المعجم الوسيط ، مصدر سابق : ١ / ٩٧٤ .

(٤) - الأحزاب : ٣٣ .

وقد كان لهؤلاء الخمسة مكانة خاصة في نفوس المسلمين، وكلما قُتل منهم واحد كان في الباقيين سلوى للمسلمين، حتى قتلوا جميعهم وبقي الإمام الحسين عليه السلام، فكان هو سلوى المسلمين، وكانوا يرون جميع أهل البيت فيه، حتى اجتمعت تلك المحبة لهؤلاء الخمسة فيه عليه السلام، لذا، لم يكن قتل الإمام الحسين عليه السلام بالأمر الهيب على المسلمين عموماً من هذه الجهة، مضافاً إلى تلك الحقيقة التي أشارت إليها السيدة زينب عليها السلام من أن قتل الحسين هو قتل لجميع الخمسة باعتبار أنه كان آخرهم، وبقتله أستاذل جميع الخمسة.

(بإراقتك دم سيد شباب أهل الجنة، وابن يعسوب الدين، وشمس آل عبد المطلب).

اليَعْسُوب : أمير النحل وذكرها. ثم كثر ذلك حتى سَمَوْا كل رئيسٍ يَعْسُوباً^(١). وقد لَقِبَ رسول الله ﷺ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بلقب (يعسوب الدين)، وشبهه شيعته بالنحل الذي يعيش في ظل تلك المملكة ويتبع ذلك اليعسوب، واشتهر بين المسلمين - حينذاك - هذا اللقب للإمام علي عليه السلام، ولذلك قال الشاعر :

ولايتي لأمر النحل تكفيني ... عند الممات وتغسيلي وتكفيني
وطينتي عَجَنْت من قَبْل تكويني ... بحب حيدر، كيف النار تكويني ؟!
ثم بدأت السيدة زينب عليها السلام بذكر بعض ما يتعلق بموقع الإمام الحسين من المسلمين عموماً ومن آل عبد المطلب خصوصاً، ومن الرسول ﷺ على الأخص، وكذلك مكانته في الآخرة حسب ما ورد على لسان سيد الرسل محمد ﷺ، إذ ورد عنه ﷺ إن الحسين سيد شباب أهل الجنة، فعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ :

(من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي^(١))، وهذه هي الخصيصة الأولى. ثم ذكرت عليها السلام الخصيصة الثانية للإمام عليه السلام وهي التذكير بنسبه الشريف، إذ انه ابن أمير المؤمنين عليه السلام، ويعسوب الدين، وسيد الوصيين.. في قبال نسب يزيد الذي تفوح منه رائحة الكفر والعداء لأهل بيت النبوة. ثم ذكرت عليها السلام الخصوصية الثالثة، وهي موقعه عليها السلام من آل عبد المطلب، ويا لهذا التعبير الذي يحمل بلاغة راقية، وتشبيه جميل، فإن الإمام الحسين كان هو الوجه المشرق الوضاء والواجهة المتلألأة لآل عبد المطلب بن هاشم، وسبب الفخر والإعتزاز لهم، ولا تخفى المكانة والموقع الطيب لقبيلة قريش بين قبائل العرب.

وبذلك، فقد أوضحت عليها السلام بدقة الوجه القبيح ليزيد وفعلته النكراء التي قام بها، فإن من يريق دم من كان بهذه الخصائص - ومع ذلك فإنه يشعر بالفرح والسرور ويظهر ذلك منه علناً غير متحوب ولا مستعظم - لابد أن يكون اكبر وأخطر مجرم عرفه تاريخ الإنسانية.

(وهتفت بأشياخك).

الهتافُ : الصوت الجافي العالي وقيل الصوت الشديد وقد هتف به هتافاً أي صاح به^(٢).

وهنا تشير السيدة زينب عليها السلام إلى قول يزيد (ليت أشياخي بيدر شهدوا..)، فهو يتمنى ساداته وجده وأبيه وبقية أئمة الكفر الذين حاربوا الله ورسوله ليروا انتصاره الموهوم، وكيف انه قطع رؤوس ذرية الرسول وسبى نساءه، وهو فرح بأخذ الثأر لهم من آل رسول الله ﷺ.

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٣ / ٢٩٨.

(٢) - لسان العرب : ٩ / ٣٤٤.

(وتقربت بدمه إلى الكفرة من أسلافك).

سلف الرجل آباؤه المتقدمون والجمع أسلاف^(١).

وفي ذلك إشارة منها ﷺ إلى قول يزيد :

قد قتلنا القرم^(٢) من ساداتهم ... وأقمنا ميل بدر فاعتدل

إنها المعادلة المقلوبة التي يؤمن بها يزيد، فبدلاً من قيامه بما يتقرب به إلى الله تعالى فإنه تقرب إلى آبائه وأسلافه الكفرة ! وبهذا فإنها ﷺ تشير ضمناً إلى أن ما قام به هو عمل شرير ولا يمكن أن يكون غير ذلك، إذ لا يتقرب إلى الكفرة الفجرة، ويبعث السرور في نفوسهم الا ما كان شراً وإثماً مبيناً.

(ثم صرخت بندائك).

انه إعلان صريح من ابن ميسون بأنه لا يعير اهتماماً لكل المعارضين على موقفه، لذا فهو يعلن كفره الصريح وبغضه للإسلام والرسول واله علناً وأمام الجميع وبصوت عال واضح ومسموع، هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن الموقف يعبر عن الحالة الإيمانية المتسافلة التي يعيشها المجتمع الإسلامي، بحيث بلغ الأمر ان يسمعوا (الخليفة) يصرح بكفره دون أي معترض، بل انه يجد التأييد والمؤازرة !. فها هو (خليفة) المسلمين يقرأ تلك الآيات الكفرية التي يعلن فيها ولاءه لأسلافه الكفرة، والثأر لهم من آل الرسول رافعاً صوته أمام الجميع !!.

(ولعمري لقد ناديتهم لو شهدوك).

المشاهدة : المعاينة. وشهده شهوداً، أي حضره، فهو شاهد. وقوم شهود، أي حضور^(١).

(١) - المصدر نفسه : ٩ / ١٥٨.

(٢) - القرم من الرجال : السيد المعظم (ينظر لسان العرب : ١٢ / ٤٧٢).

وحرف (لو) له استعمالات متعددة أشار إليها اللغويون في مصنفاتهم، ولعل المعنى الذي قصدته السيدة زينب عليها السلام هنا هو ما ذكره في (القاموس المحيط) : لَوْ حَرْفٌ يَقْتَضِي فِي الْمَاضِي امْتِنَاعَ مَا يَلِيهِ وَاسْتِزَامَهُ لِتَالِيهِ^(٢). وبناءً على هذا، يكون معنى كلام السيدة زينب عليها السلام : يا يزيد ! لقد تمنيت أسلافك من آبائك وأجدادك المشركين لو أنهم كانوا حاضرين معك الآن كي يشهدوك ويشهدوا أخذك لثأرهم، إلا أن أمنيئك هذه لن تتحقق، فأسلافك موتى قد أخرجوا من هذه الدنيا فاشلين، فهم معذبون في نار جهنم إلى الأبد، فأنت تتمنى المستحيل.

(ووشيكاً تشهدهم ولن يشهدوك) .

الوشيك : السريع، أمرٌ وشيكٌ : سريع^(٣). ولعل المعنى : يا يزيد ! إن طلبك للمستحيل لن يتحقق، فلن يشهدك أسلافك ليقولوا لك سلمت يداك، ولكن ما سيتحقق بعد زمن قصير هو أنك ستموت وستشهدهم أنت، وبموتك فإن ملكك الذي قتلت من أجله الحسين عليه السلام وسييت نسائه وذرائه سيزول سريعاً، وسترى ما ينتظر من العذاب المقيم الذي هم عليه مقيمون، وحينها ستسمع ما سيقولوه لك، هل سيقولون لك سلمت يداك، أم : شلت يداك ؟.

ولعل معنى قولها عليها السلام : (تشهدهم ولن يشهدوك)، بأنك ستري كيف يعذب أسلافك، ولكنهم لا يروك، بمعنى : أنك لا تجتمع معهم في مكان واحد، لأنك ستكون في دركة أسفل منهم في دركات جهنم.. وبذلك تعطي عليها السلام انطباعاً واضحاً بأن جرائم يزيد الموبقة تستوجب العذاب الأشد.

(١) - الصحاح في اللغة، مصدر سابق : ٣٧١ / ١.

(٢) - القاموس المحيط، مصدر سابق : ٤٩٤ / ٣.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٥١٣ / ١٠.

ويمكن أن نفهم معنى محتملاً آخر من كلامها عليها السلام، يتمثل في أن يزيد وهو يهوي إلى قعر جهنم سوف يراهم يُعذبون لأن طريقه سيكون مرورا بهم، فيراهم ولكنهم لا يرونه، ولعل السبب في أنهم لا يرونه هي شدة عذابهم الذي يشغلهم عن الالتفات إلى ما حولهم ومن حولهم من الجنة!.

ويمكن أن تكون جميع تلك الاحتمالات صحيحة، إذ لا تنافي بينها. وقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال : قال رسول الله ﷺ : إن قاتل الحسين بن علي عليه السلام في تابوت من نار، عليه نصف عذاب أهل الدنيا، وقد شد يداه ورجلاه بسلاسل من نار، منكس في النار، حتى يقع في قعر جهنم، وله ريح يتعوذ أهل النار إلى ربهم من شدة ننته، وهو فيها خالد ذائق العذاب الأليم، مع جميع من شايع على قتله، كلما نضجت جلودهم بدل الله عز وجل عليهم الجلود ﴿غيرها﴾ حتى يذوقوا العذاب الأليم لا يفتر عنهم ساعة، ويسقون من حميم جهنم، فالويل لهم من عذاب النار^(١).

ومن ذلك التعبير البليغ منها عليها السلام يمكن أن تنطبع في أذهاننا صورة لفضاعة جهنم والحال المزرية لأهلها بحيث أن نظرهم إلى الأعلى أملاً في الخروج منها، ولا يرغبون حتى بمجرد النظر إلى أسفل منهم، لأنهم لا يتحملون ذلك، فهو يراهم لأنهم في طريق نظره، وهم لا يرونه لأنه أسفل منهم.. أعاذنا الله وجميع المؤمنين من ذلك.

إنها عليها السلام تعطي الانطباع الواضح والقيمة المتدنية الحقيقية لجرائم ابن ميسون بعبارات جزلة واضحة عنيفة دكت أوهام يزيد وبددت أحلامه الوردية.

(وتودّ يمينك - كما زعمت - شئت بك عن مرفقها وجدت)

الشلّ : الطرد.. شلّته فانشل. وذهبوا شللاً، أي : انشلوا مطرودين. والشلّ :
ذهاب اليد.. شلت يده تشلّ شللاً.

و (الجذّ) : كسر الشيء الصلْب جذّذت الشيء كسرته وقطعته.. والجذّ :
القطع.. وفي التنزيل عطاء غير مجذوذ فسرهُ أبو عبيد : غير مقطوع.. قال يوم حنين
جذّوهم جذّاً، الجذّ : القطع، أي استأصلوهم قتلاً^(١).

ولعل المعنى : إن يزيد حينذاك، سيتمنى أن يمينه التي زعم أن أسلافه لو كانوا
حاضرين لقالوا له : (يا يزيد لا تُشلّ). أن تكون قد قطعت وليس تُشلّ فقط، ولم
يكن قد أمر بما أمر به من قتل الإمام الحسين عليه السلام وسبي ذراريه ونسائه عن طريق
قوادك وأعوانك، إذ انه يُعبر بالقائد والمساعد والوزير بأنه يمين الملك، إشارة إلى أن
ما يقوم به بأمر الملك يمكن نسبته إلى الملك مباشرة.. ذلك حين يُعاقب تلك العقوبة
الشديدة، ويرى مكانه من جهنم، وعلمه بأنه سيكون خالداً في ذلك العذاب الأليم.
كما يمكن أن تكون السيدة زينب عليها السلام هنا : إن يزيد سوف يتمنى أن يمينه
كانت مقطوعة قبل ان يقوم بضرب ثنايا الإمام الحسين عليها السلام بمخصرته.
وكلا المعنيين صحيح.

وهذا إخبارٌ من السيدة زينب عليها السلام بما سيلاقيه يزيد بعد موته جزاء أعماله
الإجرامية. وتتمنى أيضاً حينما تُلاقي أشدّ درجات العقوبة والتعذيب.

(١) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ٤٩٧.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣ / ٤٧٩.

(وَأَحْبَبْتُ أَنْ أُمَّكَ لَمْ تَحْمَلْكَ، وَإِيَّاكَ لَمْ تَلِدْ حِينَ تَصِيرُ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَمُخَاصَمِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ).

(أَحْبَبْتُ) - هنا - بمعنى تَمَنَّيْتُ.

تستمر السيدة زينب في وصف حال يزيد عندما يلاقي يومه إلي يوعده، ووصف شدة العقوبة التي سيلاقها في ذلك اليوم، إذ انه سيتمنى أيضاً أن أمه لم تحمله ولم تلده حتى يكون لم يفعل ما فعل ولم تكتسب يده ما اكتسبت.. إذ أن خروجه إلى الدنيا جعله يكون على هذه الدرجة من الانحطاط والتسافل، وحب الدنيا الذي جعله ينكر وجود الله وبعثة النبي والمعاد وما ترتب على هذا الإنكار من إنكار الإمامة وقتل الإمام ! وهل هناك شرك وكفر بعد هذا ؟!، فلا يشك أن مصير مثل هذا الشخص هو سخط الله سبحانه وما يترتب عليه من العذاب الأليم والخلود فيه الذي خص الله تعالى به الجنّة الذين جرّوا الويلات على البشرية جمعاء، وحرّموا الناس من خيرات الإسلام وبركاته، وأسّسوا الأسس ومهدّوا الطرق لمن يأتي من بعدهم من الطغاة والخونة، في أن يقوموا بكل جريمة، وبكل جرأة، وهذا هو من مصير الجاحد لوجود الله تعالى وعدله وبعثة أنبيائه وتنصيب خلفاء نبيه ﷺ، وسيكون رسول الله ﷺ خصيم من يقتل ذريته التي أوصى الله المسلمين بمودتهم. إذ ورد في بعض الأحاديث عنهم ﷺ وصف حالة خصومة الرسول ﷺ مثل هؤلاء الطغاة يوم القيامة، منها : عن ابن قولويه، عن أبيه، عن سعد، عن ابن عيسى، عن ابن محبوب عن أبي محمد الأنصاري، عن معاوية بن وهب قال : كنت جالسا عند جعفر بن محمد عليهما السلام إذ جاء شيخ قد انحنى من الكبر فقال : السلام عليك ورحمة الله فقال له أبو عبد الله : وعليك السلام ورحمة الله يا شيخ ادن مني، فدنا منه، وقبل يده وبكى فقال له أبو عبد الله عليه السلام: وما يبكيك يا شيخ ؟ قال له: يا ابن رسول الله أنا مقيم على رجاء منكم منذ نحو من مائة سنة أقول : هذه السنة، وهذا الشهر، وهذا اليوم، ولا أراه فيكم فتلومني أن أبكي، قال:

فبكى أبو عبد الله عليه السلام ثم قال : يا شيخ إن أشرت منيتك كنت معنا وإن عجلت كنت يوم القيامة مع ثقل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال الشيخ : ما أبالي ما فاتني بعد هذا يا ابن رسول الله، فقال له أبو عبد الله : يا شيخ إن رسول الله قال : إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله المنزل، وعترتي أهل بيتي تجيئ وأنت معنا يوم القيامة ثم قال : يا شيخ ما أحسبك من أهل الكوفة. قال : لا، قال: فمن أين ؟ قال : من سوادها جعلت فداك، قال: أين أنت من قبر جدي المظلوم الحسين ؟ قال : إني لقريب منه، قال : كيف إتيانك له ؟. قال : إني لآتيه وأكثر، قال : يا شيخ ذاك دم يطلب الله تعالى به، ما أصيب ولد فاطمة ولا يصابون بمثل الحسين، ولقد قتل عليه السلام في سبعة عشر من أهل بيته نصحوا الله وصبروا في جنب الله فجزاهم الله أحسن جزاء الصابرين إنه إذا كان يوم القيامة أقبل رسول الله ومعه الحسين ويده على رأسه يقطر دما فيقول : يا رب سل امتي فيم قتلوا ابني ؟!

(اللهم ! خذ بحصننا، وانتقم من ظالمنا، واحلل غضبك على من سفك دماءنا، ونقص ذمارنا، وقتل حماتنا، وهتك عنا سدولنا، وفعلت فعلتك التي فعلت).

النَّقْضُ إِفْسَادُ مَا أُبْرِمْتَ مِنْ عَقْدٍ أَوْ بِنَاءٍ^(١).
الذِّمَارُ : هو كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيَّعه
لزمه اللُّومُ^(٢).
الهِتْكَ : خَرَقَ السِّتْرَ عما وراءه^(٣).
السُّدُولُ : ما جُلِّلَ به اليهودج من الثياب وغيرها^(٤).

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٧ / ٢٤٢.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٣١١.

(٣) - المصدر نفسه : ١٠ / ٥٠٢.

وهنا، بدأت السيدة زينب عليها السلام بالدعاء من ذلك القلب الملتهب على يزيد ومن شاركه في ظلم آل رسول الله الطيبين الطاهرين، فالدعاء سلاح المؤمن، لاسيما بعد أن يكون في وضع لا يجد فيه ناصراً إلا الله سبحانه.

ثم بررت السيدة زينب عليها السلام دعاءها عليه، وانه مستحق للانتقام وغضب الله تعالى، لأنه ظلم آل الرسول بسبب ما فعله من جرائم يندى لها جبين الإنسانية، وأعطت عليها السلام أمثلة لذلك الظلم الذي مارسه ضد آل الرسول من سفك دمائهم، ونقض ما كان يجب على كل مسلم حفظه تجاه أهل البيت عليهم السلام، وقتل ذراريهم وصحابتهم وأنصارهم، وسبي نساءهم، وخرق ستورهم وأبدى وجوههم أما الأجانب.. والأدهى من ذلك انه يصرح علناً بفرحه وسروره بما فعله بآل البيت من خلال كلماته الكفرية التي أعلنها أمام الجميع.

إن فعل مثل هذه الأمور من أي شخص كان لا يمكن أن يوصف بأنه مسلم، كيف ! وجميع هذه الأفعال تتنافى مع أبسط واجبات المسلم تجاه عامة الناس، فما بالك لو كانت ضد آل الرسول الذين أوصى الله تعالى بمودتهم وحفظ ذمارهم !!.

(وما فریت إلا جلدك، وما جَزَرْتَ إلا لحمك).

الفری : الشَّقُّ.. خَلَقْتُ الأَديمَ ثم فریته، إذا أعلمت عليه علامات المقاطع ثم قطعته. وفریت الشَّيء بالسَّيف وبالشَّفرة : قطعته وشَقَّقْتَهُ^(٢).
الجَزَرُ : نَحَرَ الجَزَارَ الجُزُورَ وجَزَرْتُ الجُزُورَ أَجَزَرُهَا بالضم واجتَزَرْتُهَا إذا نَحَرْتُهَا وجَلَّدْتُهَا^(٣).

(١) - المزهر، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي : ١ / ١٧٥.

(٢) - كتاب العين، مصدر سابق : ٢ / ١٧٥.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ١٣٣.

ولعل المعنى : إن يزيد بفعله الطائش هذا كان يعتقد انه بقتله للحسين عليه السلام وسبي نسائه وذرائه قد قضى على المشروع الحسيني، إلا أن السيدة زينب عليها السلام تؤكد أن المسألة لا تؤخذ بقياسات النصر والهزيمة العسكرية، بل بتحقيق الأهداف من عدمه.

ومرة أخرى تعود السيدة زينب عليها السلام الأخبار عن مستقبل يزيد وحكمه بعد ما فعل من فعل ضد الحسين وأهل بيته الكرام، فبينت أن ما سيحدث بعد فري يزيد لجلد الحسين وجزر لحمه - وهذه كناية عن قتله والتمثيل به - إشارة إلى أن ذلك سيكون سبباً لانقلاب الرأي العام والخاص ضد يزيد، وقيام الثورات التي ستؤدي إلى نهاية حكم يزيد، وكشف حقيقته أمام الجميع.. هذا هو الأثر الوضعي في الدنيا، ثم أشارت عليها السلام إلى ما سيلقيه في الآخرة، اذ قالت :

(وسترد على رسول الله بما تحملت من دم ذريته، وانتهكت من حرمة، وسفكت من دماء عترته ولحمته).

الحُرْمَةُ : المَهَابَةُ. قال : وإذا كان للإنسان رَحِمٌ وكنا نستحي منه قلنا : له حُرْمَةٌ ومهابة^(١). وحرَمَ الرجل عياله ونسأؤه وما يَحْمِي^(٢). و (انتَهَكَ حُرْمَتَهُ) : تناولها بما لا يحل^(٣).

و (السَّفْكُ) : صَبُّ الدَّمِ وَنَثْرُ الْكَلَامِ وَسَفْكُ الدَّمِ وَالدَّمْعَ يَسْفِكُهُ سَفْكاً فهو مَسْفُوكٌ وَسَفِيكَ صَبَهُ وَهَرَقَهُ وَكَأَنَّهُ بِالدَّمِ أَخْص^(٤). و (عِترَةُ الرجل) أَقْرَبَاؤُهُ مِنْ وَلَدٍ وَغَيْرِهِ^(٥).

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٢ / ١١٠.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٢ / ١١٩.

(٣) - المخصص، مصدر سابق : ٣ / ٣٦.

(٤) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٠ / ٤٣٩.

(٥) - المصدر نفسه : ٤ / ٥٣٦.

و(اللَّحْمَةُ) : القرابة^(١).

المعنى : وهنا توجه ﷺ إنذاراً شديداً للهجة لم يعهده يزيد سابقاً من أعدائه من الرجال، فكيف إذا كان من امرأة أراد يزيد أن يعن في إذلالها وتحقيرها؟! إنها ﷺ تخبره لعنه الله تعالى بأن عقوبته ستكون من نوع خاص، لأنه سيأتي يوم القيامة وخصمه رسول الله، ولا أظن أننا بحاجة إلى بيان عقوبة من كان خصمه رسول الله يوم القيامة، ذلك بما ارتكب من جرائم بشعة حرّمها الله تعالى بحق عامة الناس ولو لم يكونوا مسلمين، فكيف إذا كانت بحق من أوصى الله بمودتهم؟، مضافاً إلى أنهم ذرية حبيبه ورسوله الكريم، اذ سيرد على رسول الله ﷺ وقد تحمل وزر سفك دمائهم وهتك حرمة فيهم.. ومن كان رسول الله خصمه يوم القيامة، فالله تعالى خصمه، وهو الذي سيأخذ لرسوله بحقه ممن ظلمه، ولا اعلم عقوبة اشد ولا أقسى ممن كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة.

(حيثُ يُجمع به شملهم، ويُلمّ به شعّهم، وينتقم من ظالمهم، ويأخذ لهم بحقّهم من أعدائهم).

جمع الله شملهم، أي ما تشّت من أمرهم^(٢) و (التشعث): التفرّق^(٣). ولعل المعنى : إنها ﷺ تخبر بالنتيجة التي ستحدث من ان الله تعالى - بعد اكمال الخصومة مع يزيد وحزبه اللعناء لعنهم الله - سوف يجمع آل الرسول عند النبي الكريم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيشكو كل واحد من منهم إلى النبي الكريم ما لقي من أعداء الله ورسوله من عداء وظلم، فينتقم الله من أعدائهم أشدّ الانتقام.

(١) - المصدر نفسه : ١٢ / ٥٣٥.

(٢) - الصحاح في اللغة، مصدر سابق : ١ / ٣٦٨.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ١٦٠.

(فلا يستفزك الفرح بقتلهم) .

استَفَزَه : خَتَلَه ، حتى ألقاه في مهلكة . واستَفَزَه الخوفُ أي استخفه ، وفي حديث صفية : لا يُغْضِبُهُ شيء ولا يَسْتَفِزُهُ أي لا يستخفه . ورجل فَزٌّ : أي خفيف . وفي التنزيل العزيز : { وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ .. }^(١) ، قال الفراء : أي استخف بصوتك ودعائك ، قال وكذلك قوله عز وجل : { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ .. }^(٢) ، أي ليستخفونك^(٣) .

ولعل المعنى : إنها عليها السلام تقول ليزيد - بعد أن أخبرته بالنتائج التي ستؤول إليها أفعاله الطائشة بحق آل الرسول - أن لا فائدة من هذه الخفة التي اعترته بسبب فرحه المزعوم الذي تعيشه أنت وأعوانك ، فهو فرح لن يدوم ، وسيعقبه حزن دائم ، وعذاب أليم ، وخلود في جهنم .. فكيف - بعد ذلك - يهنأ الإنسان بمثل ذلك الفرح الموهوم ؟!

وفي ذلك دلالة أخرى على عدم إيمان يزيد بالنبوة والنبى ، اذ كيف يمكن لشخص ان يفرح بإنكار نبوة بني وقتل ذريته لو كان يؤمن بنبوته فعلاً ؟ .

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... }^(٤) .

ثم استشهدت عليها السلام لكلامها بما جاء في الذكر الحكيم من أن الإمام الحسين عليه السلام إنما قدم نفسه وأهل بيته وصحبه للقتل في سبيل أحياء الدين الحنيف الذي

(١) - الإسراء : ٦٤ .

(٢) - الإسراء : ٧٦ .

(٣) - لسان العرب ، مصدر سابق : ٥ / ٣٩١ .

(٤) - آل عمران : ١٦٩ - ١٧٠ .

أراد يزيد وحزبه الطغاة طمسه دون رقيب أو حسيب، وأنهم أحياء عند ربهم يأتيهم رزقهم الذي وعد الله أولياءه.

وهي هنا تذكر عاقبة من قتلهم يزيد في قبال عاقبته المخزية، فالفرح الحقيقي يكون لهم وليس ليزيد.. إذ أن الفرح الحقيقي هو الفرح الذي يحصل عليه الإنسان بسبب رضا الله تبارك وتعالى عنه وفضله إليه، إذ أنه فرح دائم لا يزول، لا أن يفرح الشخص بقتل أولياء الله الذين أوجب مودتهم وطاعتهم، فهو فرح موهوم ليس له واقع.. وهذه التفاته لطيفة منها ﷺ تناسب المقام.

ولكن ! لماذا الاستشهاد بالقرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ على الرغم من أن يزيد الطاغية منكر وجاحد للتنزيل والنبوة ؟
ويبدو أن في ذلك عدة غايات، منها :

١/ إن في ذلك إحراج ليزيد، إذ لا يمكن أن يواجه الرأي العام بالرد صراحة على آيات القرآن وكلام النبي ﷺ.
٢/ إن في ذلك بيان للحقائق للمنخدعين بيزيد ومنهجه المنحرف.

(وحسبك بالله ولياً وحاكماً، وبرسول الله خصماً، وبجبرائيل ظهيراً).

حَسْبُ : الاكتفاء. وحسبك درهم أي كفاك وهو اسم^(١). تقول: حسبك ذاك أي كفاك ذاك.. ويقال أحسبي ما أعطاني أي كفاني. وقال الفراء في قول الله عز وجل : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }^(٢)، جاء في التفسير : يكفيك الله ويكفي من اتبعك^(٣).

(١) - تاج العروس، مصدر سابق : ٤١٠ / ١.

(٢) - الأنفال : ٦٤.

(٣) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٤٢ / ٢.

لعل المقصود من قولها عليها السلام : يكفيك يا يزيد ان الله هو ولي الثار لدماء الحسين عليه السلام واهل بيته وانصاره، وهو الذي سيحكم بينك وبينه يوم القيامة، فنعم الحكم الله وهو يتولى الصالحين، وحينها لن ينفعك انكارك لجرائمك والمماطلة والجدال، فالحاكم هو الشاهد، وهو العارف بحقائق الامور، والمطلع على نواياك الخبيثة واهدافك السيئة من قتل الامام الحسين عليه السلام.

وهنا اشارة لطيفة منها عليها السلام الى ان العقوبة الالهية ستطالك حتماً، فالحكم - وهو الله تعالى - لا تنفع معه المماطلة والمجادلة والرشوة التي بنيت عليها حكومتك الفاسدة، فحكومة الاخرة غير حكومة الدنيا. وان الخصم هو رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي ما ينطق عن الهوى حين يعرض شكواها امام الحاكم العادل ويدلي بشهادته على تلك الفاجعة الاليمة.. وجبرائيل - امين الوحي - هو الظهير والمؤيد، فكذلك امين الوحي لا يكذب ولا ينسى ولا يسهو، والا لما كان امينا لوحي الله تعالى الى العالمين، اذ كيف ينتدب الله تعالى لتبليغ احكامه الواجبة الى العباد من يحتمل فيه الكذب او السهو او النسيان ؟.

وفي كلامها عليها السلام تؤكد على شناعة فعل يزيد من جهة، ومن جهة اخرى على بشاعة العقوبة لتي ستناله يوم القيامة، وما يؤكد هذه الحقيقة انها عليها السلام قد اشارت الى ان ولي الامر في هذه القصية هو الله تعالى، وان الخصم رسول الله وحيه، والمؤيد لهذه الدعوى هو جبرائيل امين الله على وحيه.

ان نتيجة تلك المحكمة الالهية واضحة، وان الحكم فيها معروف مسبقاً، لكن من الطبيعي ان نجد الفرح والسرور بمثل هذه الافعال الشنيعة ممن يحدد وجود الله تعالى وينكر اليوم الاخر، ولكنه سيفاجأ بما سيحل به في ذلك اليوم الذي سيشهده جميع الخلائق.

(وسيعلم من بؤاك ومكنك من رقاب المسلمين أن بئس للظالمين بدلاً، وأيّكم شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً).

بؤاك : أي مكنك من اتخاذ موقع معين. قال الفراهيدي في كتاب العين : الباءة والمباءة : منزل القوم حين يتبوءون في قبل واد، أو سند جبل، ويقال : بل هو كل منزل ينزله القوم، يقال : تبوءوا منزلاً.. وقال تعالى : { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبَآءَ صِدْقٍ .. }^(١) (٢). وقال تعالى : { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُوبِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }^(٣). وباء بذنبه وبإثمه يَبُوءُ بؤءاً وبؤاءً احتمله وصار المذنب مأوى الذنب وقيل اعترف به وقوله تعالى إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك.. قال الأخفش وباؤوا بغضب من الله رجعوا به أي صار عليهم وقال أبو إسحق في قوله تعالى فباؤوا بغضب على غضب قال باؤوا في اللغة احتملوا يقال قد بُؤْتُ بهذا الذنب أي احتملته وقيل باؤوا بغضب أي بإثم استحقوا به النار على إثم استحقوا به النار أيضاً قال الأصمعي بَاءَ بإثمه فهو يَبُوءُ به بؤءاً إذا أقر به وفي الحديث أَبُوءُ بنعمتك عليَّ وأبُوءُ بذنبي أي ألتزم وأرجع وأقر وأصل البؤاء اللزوم^(٤).

بنفس الشجاعة والبسالة والإصرار صعدت السيدة زينب عليها السلام من لهجتها في تهديد يزيد وإنذاره، إمعاناً منها في حربها الكلامية في كشف الحقائق، وإهانتها للطاغية يزيد، ولآبائه وأسلافه الذين افتخر بهم وأعلن انه قد اخذ بثأرهم، فأخبرت عليها السلام بان مصيرهم لن يكون أحسن حالاً من مصيره، وإلى ذلك أشارت إلى قوله

(١) - يونس : ٩٣.

(٢) - العين، مصدر سابق : ٢ / ٢٠٨.

(٣) - الأعراف : ٧٤.

(٤) - لسان العرب، مصدر سابق : ١ / ٣٦.

تعالى : { ... بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا }^(١)، واستشهادها عليها السلام بهذا المقطع من الآية الكريمة فيه تصريح جريء على أن عقوبة يزيد وأسلافه هي نفسها عقوبة إبليس، إذ أن الآية قالت في صدرها : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا }، وفي ذلك تأكيد منها عليها السلام لما ذكرناه من أن أشد العقوبات هي عقوبة من كان خصمه الله ورسوله، وخصم إبليس يوم القيامة الله ورسوله، وهكذا هو مصير يزيد وأسلافه.

والحقت عليها السلام ذلك الاستشهاد الرائع باستشهاد قراني آخر، هو قوله تعالى : { ... شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا }^(٢). وفي ذلك إعلان جريء آخر منها عليها السلام بأن عقوبته وأسلافه يوم القيامة هو أن يلقون على وجوههم في نار جهنم، إذ أن صدر الآية أوضح تلك العقوبة لمثل تلك الأفعال التي وصفتها الآيات الكريمة التي سبقت تلك الآية بأن مثل هؤلاء هم أعداء الأنبياء ورسالاتهم، وهم شياطين الإنس، قال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا. وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا. الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا }^٣

إن المنطق السليم يحكم بأن من يُمكّن ويمهد ويوفر مقدمات الجريمة يكون مساهماً فيها، وأسلاف يزيد أمثال جده أبو سفيان وأبوه معاوية قد مكنوه من

(١) - الكهف : ٥٠.

(٢) - الفرقان : ٣٤.

(٣) - الفرقان : ٣١ - ٣٤.

التسلط على رقاب المسلمين عندما هياؤا أسباب ذلك بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى.

وثمة نتيجة مهمة تترتب على كلام السيدة زينب عليها السلام هذا وما سبقه، وهي عدم شرعية السلطة التي تمكن يزيد بها على رقاب الناس، بل وعدم شرعية السلطة التي اغتصبها أسلافه فمهدوا من خلالها له هذه السلطة. فالذين مهدوا له ذلك يتحملون معه نصيبهم من ذلك الوزر العظيم، فما أروع استشهادها عليها السلام بهذا المقطع من الآية الكريمة : (أَيْكُمْ شَرٌّ مَكَانًا)، فلعلها عليها السلام تقارن بين شدة عذابه وشدة عذاب أسلافه الذين مكنوه من ارتكاب تلك الجرائم، فلا تجد تعبيراً يلائم الواقع إلا هذا المقطع من هذه الآية الكريمة لتصف أن عذابهما متساوٍ وهو عذاب الخالدين في قعر جهنم.

(وما استصغاري قدرك، ولا استعظامي تقريعتك. وفي نسخة : (ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك) ^(١) .

الصغار : المذلة. قال تعالى : { .. سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ.. } ^(٢) ، أي : هم وإن كانوا أكابر في الدنيا فسيصيبهم صغار عند الله، أي مذلة.. والصغار مصدر الصغير في القدر ^(٣) . والتقرع : التعنيف ^(٤) . والدواهي : جمع داهية : وهي الأمر المنكر العظيم. ودواهي الدهر : ما يصيب الناس من عظيم نوبه ^(٥) .

(٢) - الأنعام : ١٢٤.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٤٥٨.

(٤) - تاج العروس، مصدر سابق : (مادة قرع).

(٥) - المعجم الوسيط، مصدر سابق : ١ / ٦٢٥.

وهنا تجسد السيدة زينب عليها السلام تلك الشجاعة الفذة بإعلانها الصريح بأنها لا تخشى يزيد وبطشه، وأنها مستعدة للتضحية بنفسها في سبيل الله ودينه الحنيف.. إنها تعلن أمام الملأ أنها تفرع يزيد بسياط كلمات أمضى من السيف وأحد من حد السنان، لم يعهد ابن ميسون سماعها من قبل، بل ولم يكن بإمكان الناس التكلم بها حتى مع أنفسهم. انها تستصغر قدره ومكانته التي أحاطها هو وجلالته بهالة من العز المكذوب، بل وتعدّه لا يستحق الكلام منها عليها السلام وان كان تقريعاً وتعنيفاً وذماً.. نعم، إنها تقول إن الذم كثير على يزيد ومن نهج منهجه !!، لذا فهي تصرح أن الذي دعاها لمخاطبته هو ما أصاب الدين الحنيف وأهله النجاء من ظلم على يد هذا الطاغية، وذلك ما جر هذه الحرة الكريمة إلى مخاطبة هذا الظالم اللئيم.. فهل ينتظر المتكلم بمثل هذا الكلام أمام اعنى الطغاة أن يبقى على قيد الحياة بعد ذلك ؟. انه الاستعداد الكامن في النفس للتضحية في سبيل الحق العقيدة.

إنها عليها السلام تعطي درساً لا يحتاج إلى بيان بأن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.

(تَوْهَمًا لِإِنْتِجَاعِ الْخَطَابِ فِيكَ) .

يقال : أُنْجِعَ إِذَا نَفَعَ . وَنَجَّعَ فِيهِ الْقَوْلُ وَالْخِطَابُ وَالْوَعْدُ عَمِلَ فِيهِ وَدَخَلَ وَآثَرَ^(١).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام تدفع التوهم الذي قد يتوهمه يزيد بأن هدفها من مخاطبته هو احتمال تأثير خطابها فيه، بل هو رد فعل طبيعي لما شاهده وعاشته من مصائب، وعسى أن يؤثر كلامها في بعض الجالسين في مجلس الطاغية عندما قرعته بسياط التعنيف، مَن خَفِيَ عَنْهُمْ الْحَقَائِقُ، بسبب تأثير الدعايات. ثم لتبطل ما توهمه من الانتصارات الموهومة.

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٨ / ٣٤٧.

(بعد أن تركت عيون المسلمين به عبرى).

قال الليث : عبّرة الدمع : جريّه. قال: والدمع نفسه يقال له: عبّرة. ومنه قوله : وإن شفائي عبّرة إن سفحتها^(١). وعينٌ عبرى أي باكية^(٢).

ولعل المعنى : ان عيون المسلمين مغرورة بالدموع بسبب قتلك الإمام الحسين عليه السلام بلا سبب يستوجب ذلك، وبتلك الكيفية الفجيعة !.

ولعل في ذلك إشارة إلى أن يزيد ومن شاركه ذلك الفعل البشع ليسوا من المسلمين، لأنهم كانوا في قمة النشوة والفرح والسرور، والمفروض أن عيونهم تكون عبرى لو كانوا مسلمين.. فإذا كان حال من لا يحزن ولا يجزع لقتل الحسين عليه السلام، فما بالك بمن يقتل الإمام عليه السلام !؟.

(وصدورهم عند ذكره حرى).

الليث : حرّت كبده، وهي تحرّ حرة ومصدره الحرر. وهو يُيس الكبد عند العطش أو الحزن^(٣).

ولعل المعنى : إن قلوب المسلمين ملتهبة من الحزن والأسى، بسبب تذكر ما جرى عليه من المصائب المقرحة للقلوب. وهذا أمر متوقع من كل مسلم، بل كلّ إنسان لم تتغير فيه الفطرة الإنسانية النقية التي فطر الله الناس عليها، فالتألم من هكذا فاجعة هو رد فعل طبيعي لكل من تكون صفة العاطفة سليمة لديه.

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ١ / ٢٨٧.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٥٢٩.

(٣) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ١ / ٤٣٤.

(قتلك قلوب قاسية، ونفوس طاغية، وأجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول، قد عثش فيها الشيطان وفرّخ).

العرب تقول لجميع ما في البطن حشوة ما عدا الشحم فإنه ليس من الحشوة.. وحشا الوسادة والفرش وغيرهما يحشوها حشواً ملأها^(١).
و (العش) : ما يتخذ الطائر في رؤوس الأشجار للتفريخ، ويجمع عششة. واعتش الطائر إذا اتخذ عشاً^(٢).

وهنا ذكرت السيدة زينب عليها السلام أهم أسباب عدم احتمال تأثير خطابها في نفسية يزيد وحاشيته، مسيرة إلى إن قسوة القلب، وطغيان والنفس، وامتلاء الجسم بسخط الله تعالى ورسوله، سوف يجعل من الشخص مرتعا وأرضية خصبة لان يعمل فيها الشيطان ما أراد، وإرادة الشيطان من الإنسان واضحة، إذ أنها إرادة العدو لعدوه، والشيطان عدو الإنسان، قال تعالى : { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ }^(٣). وهذه الأمور الثلاثة تجعل النفس الإنسانية غير مستعدة لتقبل الوعظ والإرشاد، ويبدو أن امتلاء الجسم بسخط الله تعالى وسخط رسوله ﷺ هي نتيجة للسبيين الأول والثاني.

وهنا ينبغي الالتفات إلى الشيطان لا يمكن أن يتمكن من الإنسان الا بسبب الإنسان نفسه : { إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا }^(٤)، فعندما يتسبب الإنسان - بسوء اختياره - بأن يكون قلبه قاسياً، ونفسه طاغية، فأن ذلك سيؤدي إلى أن نكون تلك النفس مقراً للشيطان على الأمد البعيد بحيث انه يتخذ من تلك النفس ومن ذلك القلب منزلاً يسكنه ويكون عائلة كاملة تتخذ من ذلك المكان مكاناً لعملها وتحقيق

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٨ / ١٧٨.

(٢) - كتاب العين، مصدر سابق : ١ / ٨.

(٣) - فاطر : ٦.

(٤) - النساء : ٧٦.

أهدافها ضد ذلك الإنسان.. فما أتعب أن يكون قلب الإنسان بيتاً وعشاً للشيطان وأعوانه بعد أن كان المفروض أن يستوعب القيم الإلهية ليكون محط رحمة الله تبارك وتعالى.

لذا تجد أن الإمام السجاد عليه السلام في مناجاة الشاكين يبدأ بالشكوى من النفس الأمانة بالسوء قبل الشكوى من الشيطان، إذ قال عليه السلام : (... الهي ! اشكوا إليك نفساً بالسوء أمانة). ولعل في ذلك إشارة منه عليه السلام إلى ذلك المعنى، وهو أن الشيطان لن يتمكن من الإنسان إلا إذا كان يمتلك نفساً بالسوء أمانة، فالإمام عليه السلام يدعونا إلى معالجة الأسباب لا معالجة النتائج، لأن معالجة النتيجة مع بقاء سببها لن ينجح، وإن نجح فسيكون لفترة محدودة، وستعود نفس النتيجة ما دام سببها موجوداً.. فإصلاح النفس سيؤدي بالضرورة إلى عدم تمكن الشيطان منها، وحينها سيتخلص الإنسان من الاثنين معاً (النفس الأمانة بالسوء والشيطان).

والخلاصة : إن الشيطان الرجيم إذا وجد تلك الأرضية في داخل الإنسان، والمتمثلة بالنفس الأمانة بالسوء والطغيان، فإنه سوف يترفع في فكره وذنه، ويتخذ لنفسه عشاً ووكراً، ومسكناً ومحلاً للإقامة فيه، ويكون بمنزلة جهاز التحكم في الأشياء، يتحكم في ميوله واتجاهاته، فيوجه الشخص حيثما يريد، ويأمره بأنواع الانحراف والانسلاخ عن الفطرة الإنسانية والعاطفة وجميع الصفات الحميدة، ويعطيه الجرأة على اقتحام المخاطر التي ستؤدي إلى إدخاله جهنم.

(ومن هناك مثلك ما درج) .

قولها عليها السلام : (ومن هناك)، أي : وبسبب ذلك، أو نتيجة لتلك الأسباب.
درج الرجل والضرب يدرج درجاً أي مشى ودرج ودرج أي مضى لسبيله،
و درج القوم إذا انقضوا^(١). وقد تكون (ما) في (ما درج) زائدة.

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٢ / ٢٦٦.

ولعل المعنى : إن هذه الأسباب التي اتصف بها يزيد - مضافاً إلى أنها أدت إلى سخط الله ورسوله - فأنها هي التي أدت إلى أن يمشي هو وأعوانه على هذا النهج المنحرف الشاذ، ليس على المستوى الديني حسب، وإنما على المستوى الإنساني أيضاً، وإن كان الدين لا يتنافى مع الإنسانية. وهي ذات الأسباب التي ستؤدي بالنتيجة إلى هلاك ملك يزيد وعدم انتفاعه بما حققه من نصر موهوم، ولعل ذلك المعنى منسجم مع ما ستذكره عليه السلام من قولها : (ما فريت إلا لحملك...).

(فالعجب كل العجب لقتل الأتقياء، وأسباط الأنبياء، وسليل الأوصياء، بأيدي الطلقاء الخبيثة، ونسل العهرة الفجرة).

رجل تقيٍّ ويجمع أتقياء معناه أنه موقَّ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح وأصله من وقَّيت نفسي أقيها^(١). والمقصود بالأتقياء - هنا - : الإمام الحسين عليه السلام والمستشهدين معه.

و (السبط) : ولد الابن والابنة. وفي الحديث الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهما، ومعناه : أي طائفتان وقطعتان منه. وقيل الأسباط خاصة الأولاد. وقيل أولاد الأولاد. وقيل أولاد البنات، وفي الحديث أيضاً الحسين سبط من الأسباط، أي أمة من الأمم في الخير، فهو واقع على الأمة والأمة واقعة عليه^(٢).

وقال أبو الهيثم السلالة ما سلَّ من صلب الرجل وترائب المرأة كما يسَلُّ الشيء سلاً والسليل الولد سمي سليلاً لأنه خلق من السلالة والسليل الولد حين يخرج من بطن أمه وروي عن عكرمة أنه قال في السلالة إنه الماء يسَلُّ من الظهر سلاً وقال الأخفش السلالة الولد والنطفة السلالة وقد جعل الشماخ السلالة الماء في قوله

(١) - المصدر نفسه : ١٥ / ٤٠١.

(٢) - المصدر نفسه : ٧ / ٣٠٨.

على مَشَجِ سُلَالَتِهِ مَهِينٌ قَالَ والدليل على أنه الماء قوله تعالى وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ يعني آدمَ ثم جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ ثُمَّ تَرَجَّمَ عَنْهُ فَقَالَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ أَرَادَ بِالْإِنْسَانِ وَلَدَ آدَمَ جَعَلَ الْإِنْسَانَ اسماً لِلْجِنْسِ وَقَوْلُهُ مِنْ طِينٍ أَرَادَ أَنَّ تِلْكَ السُّلَالَةَ تَوَلَّدَتْ مِنْ طِينٍ خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ فِي الْأَصْلِ وَقَالَ قَتَادَةُ اسْتُلَّ آدَمُ مِنْ طِينٍ فَسُمِّيَ سُلَالَةً قَالَ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْفَرَاءُ وَقَالَ الزَّجَّاجُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ سُلَالَةٌ فُعَالَةٌ فَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

ويقال للإنسان إذا عَتَقَ طَلِيقٌ أَيْ صَارَ حُرّاً.. وَالطَّلَاقُ الْأَسْرَاءُ الْعِتْقَاءُ، وَالطَّلِيقُ الْأَسِيرُ الَّذِي أُطْلِقَ عَنْهُ إِسَارُهُ وَخَلِيَ سَبِيلَهُ.. وَأُطْلِقْتُ الْأَسِيرَ أَيْ خَلَيْتُهُ، وَفِي حَدِيثِ حَنِينٍ : خَرَجَ وَمَعَهُ الطَّلَاقُ. هُمُ الَّذِينَ خَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَأُطْلِقَهُمْ فَلَمْ يَسْتَرْقَهُمْ، وَاحِدُهُمْ طَلِيقٌ وَهُوَ الْأَسِيرُ إِذَا أُطْلِقَ سَبِيلَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ : الطَّلَاقُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْعِتْقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ. كَأَنَّهُ مِيزَ قُرَيْشاً بِهَذَا الْاسْمِ، حَيْثُ هُوَ أَحْسَنُ مِنَ الْعِتْقَاءِ، وَالطَّلَاقُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا فِي الْإِسْلَامِ كَرَهًا^(٢). وَ (النَّسْلُ) : الْوَلَدُ وَالذَّرِيَّةُ^(٣). وَ (الْعَاهِرُ) : هُوَ الزَّانِي. وَحَكَى عَنْ رُؤْبَةٍ، قَالَ : الْعَاهِرُ الَّذِي يَتَّبِعُ الشَّرَّ زَانِياً كَانَ أَوْ فَاسِقاً^(٤). وَ (فَجَرَ) الْفَاءَ وَالْجِيمَ وَالرَّاءَ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّفْتِاحُ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ الْفَجَرُ: انْفِجَارُ الظُّلْمَةِ عَنِ الصُّبْحِ. وَمِنْهُ: انْفَجَرَ الْمَاءُ انْفِجَاراً: تَفْتَحَ. وَالْفُجْرَةُ: مَوْضِعُ تَفْتِاحِ الْمَاءِ. ثُمَّ كَثُرَ هَذَا حَتَّى صَارَ الْإِنْبِعَاطُ وَالتَّفْتِاحُ فِي الْمَعَاصِي فُجُوراً. وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْكَذِبُ فُجُوراً. ثُمَّ كَثُرَ هَذَا حَتَّى سُمِّيَ كُلُّ مَائِلٍ عَنِ الْحَقِّ فَاجِراً. وَكُلُّ مَائِلٍ عَنْهُمْ فَاجِرٌ^(٥).

(١) - المصدر نفسه : ١١ / ٣٣٨.

(٢) - المصدر نفسه : ١٠ / ٢٢٥.

(٣) - المصدر نفسه : ١١ / ٦٦٠.

(٤) - المصدر نفسه : ٤ / ٦١١.

(٥) - معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق : ٤ / ٤٧٥.

لقد عبرت السيدة زينب عليها السلام عن تلك الأحداث بأدق تعبير، ووصفت ذلك الحزب الباغي بأبلغ وصف.. حقاً إنه عجيب، بل هو من أعجب الأعاجيب أن يُقتل أشرف وأطيب خلق الله تعالى على أيدي ذرية العهرة الفجرة ومع ذلك يلقَ الكثير ممن يؤيده على ذلك وينتصر له ويدافع عنه !! وفي ذلك تصعيد لخطابها ضد الطاغية، وفضح له خصوصاً ولنسبه المشبوه وصفات آبائه وأمهاته.. أفلا يكون ذلك غريباً حقاً أن يقتل يزيد الفاجر من نسل الفجرة الحسين بن علي ليليل النبوة وسبط الرسول الأكرم ﷺ؟!.

إن الذين انصبّت عليهم مصيبة القتل أو السبي في هذه الفاجعة، كانوا هم أفضل طبقات البشر، وأشرف خلق الله تعالى، رجالاً ونساءً، بل كانوا في قمة شاهقة، ودرجة عالية من العظمة والجلالة والإيمان بالله تعالى، والنفسية الطيبة، بحيث لا مجال لأن نقيس بهم غيرهم من البشر مهما كانوا عظماء.

إن الذين ارتكبوا الجرائم في هذه الفاجعة كانوا أخبث البشر، وأكثر الناس لؤماً، وأنزلهم نفسيةً.

إن هذه الفاجعة مهّدت الطريق لسلسلة من الفجائع والجرائم والجنايات، فأعطت الناس الجرأة بأن لا يخافوا من أحد، ولا يلتزموا بعقيدة أو دين، فكان عمل مرتكبي هذه الفاجعة بمنزلة تأسيس الأسس وفتح الطريق أمام كل خبيث ولئيم، في أن يقوم بما تطيب له نفسه القدرة من الجرائم والجنايات !. ولقد جاء في التاريخ : أن الإمام الحسين عليه السلام صرح بهذه الحقيقة، أثناء مُقاتلته مع أهل الكوفة، فقال : (... يا أمة السوء ! بئسما خلفتهم محمداً في عترته، أما إنكم لن تقتلوا بعدي عبداً من عباد الله فتهابوا قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي..)^(١).

ونلاحظ أيضاً إن السيدة زينب عليها السلام قد عادت مرة أخرى لتركز على نسبة ذلك الفعل الجبان إلى الطلقاء من آباء وأجداد يزيد مباشرة، فيزيد لم يكن موجوداً

حين أطلقهم الرسول ﷺ، ولكن ميزان نسبة الفعل إلى شخص وعدمها هو الرضا بالفعل وعدمه، وهذه حقيقة يؤكدتها القرآن الكريم.

إن طبيعة الحياة هي أن التاريخ يُعيد نفسه، لكن مع اختلاف الأفراد والأجيال، فكان ضرورياً على كل مسلم أن يستلهم الدروس والعبر من هذه الفاجعة الكبرى، ويقوم بدراستها ومعرفة تحليلها بشكل شامل، لكي لا يسقط في الإمتحانات الإلهية الصعبة، والمنعطفات الحادة الخطيرة، وحتى لا تتكرر مآسي وفجائع مشابهة. وحتى لو تكررت ذلك فإنه يبادر إلى صفوف الأخيار، ويتخذ موقف الإنسان المؤمن الذي يخاف الله تعالى، ويؤمن بيوم الحساب، وذلك لأن لديه خلفية دينية واسعة وشاملة عن فاجعة كربلاء ومضاعفاتها.

لقد أكدت السيدة زينب عليها السلام على الحقيقة التي كان عليها كل من القاتل والمقتول، وفي ذلك تصوير رائع لإعطاء تلك الجريمة صفة البشاعة والمقت من الجميع، فإن قتل الأتقياء وأحفاد الأنبياء وابن الأوصياء، كان على أيدي الطلقاء الخبيثة، ونسل العهرة الفجرة. وعندما نراجع التاريخ الصحيح نجد أن الذين ارتكبوا فاجعة كربلاء الدامية كانوا من أولاد الحرام!! بدءاً من يزيد، إلى ابن زياد، إلى الشمر، إلى العشرة الذين سحقوا جسد الإمام الحسين عليه السلام بعد شهادته، بحوافر خيولهم!! ولإلتحاق كل واحد منهم بأبيه قصة مذكورة في كتب (علم الأنساب)^(١). فقد جاء في التاريخ: أن امرأة نصرانية إسمها: (ميسون بنت بحدل الكلبي)، زنت مع عبد أبيها، فحملت به (يزيد)، وبعد الحمل بشهور تزوجها معاوية^(٢). وأما عبيد الله بن زياد، فإن أمه (مرجانة) كانت مشهورة عند الجميع بالزنا المستمر^(٣)!! وكلام الإمام الحسين عليه السلام مشهور وصريح بأن عبيد الله وأباه

(١) - يُنظر كتاب (مثالب العرب)، هشام بن الكلبي. وكذلك: كتاب (إلزام النواصب)، الشيخ مفلح

بن الحسين البحراني.

(٢) - يُنظر: كتاب (معالي السبطين): ج ١، الفصل السابع، المجلس الرابع.

زياد كانا إبني زنا، حيث قال الإمام : (... الا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين : بين السّلة والذّلة، وهيهات منّا الذّلة...). وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال : (قاتل الحسين عليه السلام ولد زنا)^(١).

(تَنْطِفُ أَكْثَهُمْ مِنْ دِمَائِنَا).

النَّطْفُ : الصَّبُّ. والنَّطْفُ القَطْرُ، ونَطَفَ الماءُ ونَطَفَ الحُبُّ والكوزُ وغيرهما يَنْطِفُ وَيَنْطِفُ نَطْفًا ونُطُوفًا ونَطَافًا ونَطَفَانًا قَطْرًا، والقَرْبَةُ تَنْطِفُ : أي تقطُر من وهي أو سَرَبٌ أو سُخْفٌ، ونَطَفَانُ الماءِ سَيْلَانُهُ، ونَطَفَ الماءُ يَنْطِفُ وينطِفُ إذا قطر قليلاً قليلاً^(٢).

ولعل المعنى : أنّ هذا الكلام أيضاً إستعارة بلاغية، وتعني السيدة زينب عليها السلام تلك الأيدي والأكف التي كانت تضرب بسيوفها ورماحها على أجسام آل رسول الله بدءاً من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ثم السيدة الزهراء عليها السلام فالإمام الحسن عليه السلام والآن الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته، فتتقاطر أكفهم وسيوفهم من دماء أولئك الطيّين. وهي تهمة صريحة وجريئة للحزب الأموي الفاسق.

(وَتَتَحَلَّبُ أَفْوَاهُهُمْ مِنْ لَحْمِنَا).

الحَلَبُ استِخْرَاجُ ما في الضَّرْعِ من اللَّبَنِ يكونُ في الشَّاءِ والإِبِلِّ والبَقَرِ^(٣). ولعل المعنى : إنّ هذه الجملة أيضاً إستعارة بلاغية وكناية عن شدة حقدهم وعدائهم، بمعنى أنّه كما أنّ ولد الشاة أو الناقة أو البقر تتحلّب وتمتصّ بفمها الحليب

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ١٤ / ١٨٣.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٩ / ٣٣٤.

(٣) - المصدر نفسه : ١ / ٣٣٢.

من محالب أمّها، كذلك كان الأعداء يمتصّون بأفواههم من لحوم ودماء آل رسول الله ﷺ مصّاً قوياً بدافع الحقد والبغضاء !!.

أو أنها إشارة إلى ما حدث فعلاً من جدته هند مع حمزة (رض) بعد معركة احد، إذ ورد أنها أمرت بشق بطن سيّدنا حمزة بن عبد المطلب، وإخراج كبده، ثم حاولت وضعه في فمها لكي تمضغه وتأكل منه، حقداً منها عليه، لكونه عمّاً لرسول الله ﷺ، وقائداً كفوءاً في جيش المسلمين.

وهنا تشير عائشة مرة أخرى إلى نسبة مثل تلك الأفعال من أجداده إليه، وقد اشرنا إلى عدة حالات فيما سبق إلى مثل تلك النسبة، وهذا التركيز المستمر منها عائشة يدل بوضوح ان القوم على منهج واحد وهو منهج البغض والعداء لأهل البيت عليهم السلام، وقد تقدم انه يصح نسبة الفعل إلى شخص إذا كان راضياً به.

(تلك الجثث الزاكية، على الجبّوب الضاحية).

الجبّوب - بالفتح - الأرض الغليظة، وفي حديث عليّ (كرم الله وجهه) رأيتُ المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يصلي أو يسجد على الجبّوب. ابن الأعرابي : الجبّوب الأرض الصلبة والجبّوب المدرّ المقتّ^(١). وعن السهيلي في روضه : سميت جبّوباً لأنها تجبّ، أي تحفر أو تجبّ من يدفن فيها، أي تقطعه، ثم قال شيخنا : ومنه قيل : جبان وجبانة للأرض التي يدفن بها الموتى، وهي فعلان من الجبّ والجبّوب، قاله الخليل وغيره جعله فعلاً من الجبن أو وجهها ومتنها من سهل أو حزن أو جبل، قاله ابن شميل وبه صدر في لسان العرب أو غليظها، نقله القتيبي عن الأصمعي، ففي حديث عليّ " رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ويسجد على

الجَبُوب "، قال ابن الأعرابي: الجَبُوب الأرضُ الصُّلْبَةُ أو الغَلِيظَةُ من الصَّخْرِ لا من الطِّينِ، أو الجَبُوبُ التُّرابُ^(١).

الضاحية: الضَّحُو والضَّحَوَةُ والضَّحِيَّةُ على مثال العَشِيَّةِ ارتفاعُ النهار^(٢). و يُقال ضحا ضَحواً: برز للشمس، أو أصابه حرُّ الشمس، وأرض ضاحية الظلال: أي: لا شجر فيها^(٣).

ولعل المعنى: إن السيدة زينب عليها السلام تتحدث عن مصيبة أخرى نتجت عن الجريمة الشنعاء التي ارتكبتها ابن ميسون بقتله الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وهي مصيبة بقاء الأجساد الطاهرة على وجه الأرض عدة أيام من غير دفن، تصهرها شمس الصيف اللاهبة، مع الأخذ بنظر الاعتبار خصوصية تلك الأجساد الطاهرة، فلو كانت غيرها من أجساد الذين تسبب يزيد في قتلهم لما كان يؤثر ذلك التأثير الكبير في نفوس المسلمين.

(تنتابها العواسل).

تنتابها: تأتي إليها مرة بعد مرة. العواسل - جمع عاسِل، و (العاسِل) : الذئب^(٤). والعَسَلانُ: شدة اهتزاز، إذا هز زته. عَسَلَ يَعْسِلُ عَسَلَاناً كما يعسل الذئب إذا مشي مسرعاً، وهز رأسه فالذئب عاسِلٌ، ويجمع على عَسَلٍ وعواسِلٍ، والرُّمَح عَسَالٌ. قال: بكل عَسَالٍ إذا هَزَّ عَسَلَ^(٥). وهنا احتمالان في المقصود من هذا الكلام:

(١) - تاج العروس، مصدر سابق: ١ / ٣٣٥.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق: ١٤ / ٤٧٤.

(٣) - المعجم الوسيط، مصدر سابق: (باب الضاد).

(٤) - ينظر: المعجم الوسيط، مصدر سابق: ٢ / ١٠٨.

(٥) - كتاب العين، مصدر سابق: ١ / ٧٧.

الاحتمال الأول / إن السيدة زينب عليها السلام عبرت عن أولئك الأعداء بالذئاب، لأنهم كانوا يحملون صفة الذئاب وهي الافتراس، ويعبر عن هذا النوع من التشبيه في علم البلاغة والأدب بـ (الإستعارة)، بأن يكون المقصود من (العواسل) : هم الذين حضروا يوم عاشوراء لقتل الإمام الحسين عليه السلام والصفوة الطيبة من ذريته وأهل بيته وأصحابه.

وقد استعمل الإمام الحسين عليه السلام هذا النوع من الإستعارة في خطبته التي ألقاها قبل خروجه من مكة نحو العراق، حيث قال - فيها : (... خير لي مصرع أنا لاقيه، وكأني بأوصالي تُقطّعها عُسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء...) ^(١). وبناءً على هذا، يكون المقصود من كلمة (تتناها) الهجوم المتوالي والغارات المتتالية التي كان الأعداء يشنونها على أصحاب الإمام الحسين وخيامه يوم عاشوراء.

الاحتمال الثاني / هو أن الشأن والعادة تقتضي أن لو بقيت جثث أناس على الأرض من غير دفن، وكانت المنطقة تتواجد فيها الذئاب، فإنها تأتي إلى تلك الجثث وتأكل من لحومها.

إلا أن المعنى الثاني لم يحصل، بكل تأكيد، بالنسبة إلى الجسد الطاهر للإمام الحسين عليه السلام وأجساد أصحابه وأهل بيته الطاهرين، الذين قُتلوا معه، وبقيت أجسادهم على الأرض لمدة ثلاثة أيام، من غير دفن أو مواراة في الأرض، من دون أن يتعرض لها ذئب أو أي حيوان مفترس آخر.

(وَتَعَفَّرْهَا أُمَّهَاتُ الْفِرَاعِلِ).

العَفَرُ : والعَفَرُ ظاهر التراب، والجمع أَعْفَارٌ، وَعَفَرَهُ فِي التُّرَابِ يَعْفِرُهُ عَفْرًا وَعَفَرَهُ تَعْفِيرًا فَانْعَفَرَ، وَتَعَفَّرَ مَرَّغَهُ فِيهِ أَوْ دَسَّهُ وَالْعَفَرُ التُّرَابُ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ يُرِيدُ بِهِ سَجُودَهُ فِي التُّرَابِ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي

آخره : لأطآن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب. يريد إذلاله^(١). وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سجد جافى عضديه حتى يرى من خلفه غفرة إبطيه. قال أبو عبيد : قال أبو زيد والأصمعي : الغفرة : البياض، ولكن ليس بالبياض الناصع الشديد، ولكنه لون الأرض. ومنه قيل للطباء : عُفر، إذا كانت ألوانها كذلك، وإنما سميت بعفر الأرض وهو وجهها، ويقال: ما على عفر الأرض مثله أي ما على وجهها^(٢).

الفراعل : أولاد الضباع بعضها من بعض^{(٣) (٤)}.

ولعل المعنى : إن الظاهر أن هذا الكلام – أيضاً – إستعارة بلاغية، ولعلها تشير إلى أولئك الأفراد العشرة الذين ركبوا خيولهم وسحقوا جسد الإمام الحسين ﷺ بعد قتله.. بحوافر الخيل، في يوم عاشوراء، أو اليوم الحادي عشر من المحرم.

قال الراوي : ثم نادى عمر بن سعد في أصحابه : من يتدب للحسين فيوطئ الخيل ظهره ؟ فانتدب منهم عشرة وهم : إسحاق بن حوية، وأخنس بن مرثد، وحكيم بن طفيل، وعمر بن صبيح الصيداوي، ورجاء بن منقذ العبدي، وسالم بن خيثمة الجعفي، وصالح بن وهب الجعفي، وواظ بن غانم، وهاني بن ثبيت الحضرمي، وأسيد بن مالك (لعنهم الله) فداسوا الحسين بحوافر خيولهم حتى رضوا ظهره وصدره !! قال الراوي : وجاء هؤلاء العشرة حتى وقفوا عند ابن زياد.

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٤ / ٥٨٣.

(٢) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ١ / ٢٧٥.

(٣) - قال (بعضها من بعض) إشارة لما يتولد من ذكر الضبع واثاء، تمييزاً لها من (العساير)، والعساير أولاد الضباع من الذئاب، واحدها : عسبار وعسبارة.

(٤) - غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، ١٣٩٦ تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١ : ٤ / ٢٠٠.

قال الراوي: وجاء هؤلاء العشرة حتى وقفوا على ابن زياد لعنه الله، فقال أسيد بن مالك أحد العشرة.

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر ❖ بكل يعبوب شديد الأسر

فقال ابن زياد لعنه الله: من أنتم؟

قالوا: نحن الذين وطئنا بخيولنا ظهر الحسين حتى طحنا حناجر صدره.
قال: فأمر لهم بجائزة يسيرة.

قال أبو عمر الزاهد: فطرنا في هؤلاء العشرة، فوجدناهم جميعاً أولاد زنا. وهؤلاء أخذهم المختار، فشد أيديهم وأرجلهم بسكك الحديد، وأوطأ الخيل ظهورهم حتى هلكوا^(١)!

(فلئن اتخذتنا مغنماً، لتجد بنا وشيكاً مغرمًا، حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك، وما الله بظلام للعبيد).

المَغْنَمُ والغَنِيمُ والغَنِيمةُ والغَنَمُ بالضم: الفَيءُ غَنِمَ بالكسر غُنْمًا بالضم وبالفَتْح وبالتَّحْرِيكِ وغَنِيمةً وغُنْمَانًا بالضم والفَوْزُ بالشَّيْءِ بلا مَشَقَّةٍ أو هذا الغَنَمُ والفَيءُ: الغَنِيمةُ^٢. والمغنم والغنيمة: ما أصيب من المحاربين من أهل الشرك عنوة. والفَيءُ: ما نيل منهم بعد أن تضع الحرب أوزارها. واغتنمه وتغنمه: عده غنيمة، وجمع الغنيمة غنائم^(٣).

غَرِمَ يَغْرِمُ غُرْمًا وَغَرَامَةً وَأَغْرَمَهُ وَغَرَمَهُ والغَرَمُ الدَّيْنُ وَرَجُلٌ غَارِمٌ عَلَيْهِ دَيْنٌ وفي الحديث لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ أَيِ ذِي حَاجَةٍ لَازِمَةٍ مِنْ غَرَامَةٍ مُثْقَلَةٍ وفي الحديث أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ وهو مصدر وضع موضع الاسم ويريد به

(١) - الملهوف على قتلى الطفوف، ابن طاووس: ١٨٣.

(٢) - القاموس المحيط، مصدر سابق: (فصل الغين).

(٣) - مجمع البحرين، مصدر سابق: ٥ / ٣٣٤.

مَغْرَمَ الذنوب والمعاصي وقيل المَغْرَم كالمَغْرَم وهو الدين ويريد به ما استدين فيما يكرهه الله أو فيما يجوز ثم عجز عن أدائه^(١).

ولعل المعنى : إن هذا الكلام منها ﷺ هي إحدى حلقات التصعيد والتفريع العنيف، إذ أن الملاحظ أنها ﷺ تصعد من وتيرة خطابها شيئاً فشيئاً، وفي ذلك التدرج حكمة بالغة في تحقيق هدفها من إكمال خطابها الذي تريد أن تقوله قبل أن يقوم الجلاوزة بمنعها، إذ أن ذلك محتمل جداً من هؤلاء الطغاة.

ولعلها - هنا - قد انتقلت من جريمة قتل الإمام وأهل بيته وصحبه الكرام إلى حادثة سبي النساء والأطفال والجرحى والمرضى من آل الحسين ﷺ، فهي ﷺ توضح ليزيد وعلى أسماع الحاضرين أنه حين أمر بسبيهم، وتعامل هو وجلاوزته معهم تعامل السبايا والغنائم الحربية، هي جريمة أخرى تضاف إلى جريمة هذا الطاغية وجلاوزته.

كما أنها ﷺ بينت له ولطغاته بأن ذلك سيتحول في القريب العاجل إلى خلاف ما أراد حين تتضح الحقائق للمخدوعين والمغفلين ويتنصر الله تعالى لأوليائه الصالحين، حينها سوف يجد نفسه مثقلاً بالذنوب ومحاصراً بالمعاصي التي يلزم عليك دفع ضربيتها، والدفاع عن نفسه في محكمة العدل الإلهية، ولن ينفعه ذلك، بل لن يجد معه إلا ما قدمت يداه من جرائم وجنایات يندى لها جبين الإنسانية، والتي من أبرزها سبي نساء آل رسول الله ﷺ وبقية عياله. وعندها سيرى نفسه وحيداً ذليلاً مهاناً، من غير عذر يبرر به أعماله الشنيعة، ولا شفيع يشفع له، ولا تنفعه سلطته وماله ليرشي به الحاكم.. وهنالك سيخسر المبطلون !!

وفي كل ذلك دلالة واضحة على إن الإيمان العميق لدى السيدة زينب ﷺ لا يتطرق إليه الشك بمشروعية القيام الحسيني الذي يمثل موقفها ركناً أساسياً فيه، وأنه في سبيل الله تعالى.

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٢ / ٤٣٦.

(فإلى الله المشتكى والمُعول، وإليه الملجأ والمؤمل).

عَوَّلَ عَلَيْهِ اتَّكَلَ واعْتَمَدَ عَنْ ثَعْلَبَ قَالَ اللّٰحْيَانِي وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ الْمُشْتَكَى وَالْمُعَوَّلُ وَيُقَالُ عَوَّلْنَا إِلَى فُلَانٍ فِي حَاجَتِنَا فَوَجَدْنَاهُ نِعَمَ الْمُعَوَّلِ أَيْ فَرَعْنَا إِلَيْهِ حِينَ أَعُوْزْنَا كُلُّ شَيْءٍ^(١).

والمؤمل : المرجو والمرتبب^(٢).

وبعد ما ذكّرت السيدة زينب عليها السلام ما جرى على آل الرسول الطاهرين من المصائب، وعاقبة الطاغية وجلالوزته، انتقلت لتشتكى إلى الحاكم العادل الذي لا يظلم عنده أحد، وعليه الإعتماد والاتكال والإستعانة به لا إلى غيره، فقد كان تعالى هو الشاهد على ما جرى، وسيكون هو المنتقم من الأعداء، المقتدر على إبادتهم وعقوبتهم. وهو سبحانه الملجأ لها ولبقية أفراد العائلة المكرّمة، وخاصة بعد فقدهم الناصر والمحامي، وتواجههم بين يدي أعداءهم وأعداء الله ورسوله واله الطاهرين في عاصمة بني أمية، في قيد الأسر والسبي ! وهو المرجو والمرتبب أن يعينهم على ما أصابهم، ويعطيهم الصبر الجميل على تحمل ذلك، ويمنحهم الأجر الجزيل إزاء ما لاقوه من المكارّه والنوائب.

(ثُمَّ كِدْ كَيْدَكَ، واجهد جهدك).

الكَيْدُ : مِنَ الْمَكِيدَةِ، وَقَدْ كَادَهُ مَكِيدَةً. وَالْكَيْدُ : الْخُبْتُ وَالْمَكْرُ كَادَهُ يَكِيدُهُ كَيْدًا وَمَكِيدَةً وَكَذَلِكَ الْمَكَايِدَةُ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَعَالَجُهُ فَأَنْتَ تَكِيدُهُ، وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَا قَوْلِكَ فِي عَقُولِ كَادَهَا خَالِقَهَا ؟ وَفِي رَوَايَةِ تِلْكَ عَقُولُ كَادَهَا بَارِئُهَا أَيْ

(١) - المصدر نفسه : ١١ : ٤٨١.

(٢) - يُنْظَرُ : الْمَعْجَمُ الْوَسِيطُ، مَصْدَرُ سَابِقٍ : ١ / ٥٦.

أرادها بسوء يقال كَذْتُ الرجل أَكِيدُهُ والكَيْدُ الاحتيالُ والاجتهادُ وبه سميت الحرب كيداً^(١).

قال الفراء: بلغتُ به الجُهدُ: أي الغاية، واجهَدُ جَهْدَكَ في هذا الأمر: أي ابلغْ فيه غايَتَكَ. وأما الجُهدُ فالطاقة، يقال: اجهدْ جُهدَكَ. قال: وجَهَدْتُ فلاناً: بلغتْ مشقَّتَهُ، وأجهدتُهُ على أن يفعل كذا وكذا، وأجهدَ القومُ علينا في العداوة وجاهدتُ العدوَّ مُجاهدةً^(٢).

ثمَّ عادت السيدة زينب عليها السلام لتصبَّ جاماً آخر من غضبها على زعيم المجرمين لفاجعة كربلاء، ولكن هذه المرة بأسلوب آخر، انه أسلوب التحدي الواثق المرتكز على أسس متينة من الاعتقاد الواعي بأحقية القضية ومبادئها. وكأنها ترى أن كلَّ ما خاطبته به غير كافٍ لما يستحقه من شجبٍ وتعنيفٍ !

انه نوع آخر فريد من أنواع التقرُّيع والتعنيف الكلامي الذي له وقع أمضى من وقع السيوف، إنها حالة لا يجود بها الزمن إلا من مثل سيدات حرائر كالزهراء وزينب. ترى ! بماذا يصف الكاتب تحدياً يطغى عليه طابع التهديد الشديد، يصدر من امرأة أسيرة، مرت عليها أقسى وأعتى المصائب والشدائد، ولكنها - مع ذلك - واثقة من نفسها بأعلى درجات الثقة..

أنها تخبِر الطاغية العتل الزنيم بأن جميع مخططاته وما سيتبعها مما خطط له سوف تفشل، وسوف لا يتوصَّل إلى أيِّ هدف من أهدافه !! بل ان جميع النتائج ستكون بشكل مُعاكس، فكرسيه سوف يتزعزع، وسلطته سوف تضعف، وقدرته سوف تذهب ! فالسيدة زينب عليها السلام تريد أن تقول ليزيد : إصنع ما بدا لك، من تخطيط وتفكير، وقتل وإبادة، وسبي وأسر، وابذل ما في وسعك من جهود، فسوف لا تصل إلى الهدف الذي حلمت به، وهو إستئصال شجرة النبوة من جذورها بكافة

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣ / ٣٨٣.

(٢) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٢ / ٢٥٢.

أغصانها وفروعها وأوراقها، وعدم إبقاء صغير أو كبير من آل رسول الله ﷺ رجلاً كان أو امرأة !.

(فوالله الذي شرفنا بالوحي والكتاب، والنبوة والانتخاب).

القسم من أساليب التوكيد، وهو في الواقع انعكاس آخر لعلو مستوى درجة الثقة بالنفس والأتكال على الله تعالى، واليقين بما يقوله الإنسان ويحلف من أجله، وعلم السيدة بحوادث المستقبل، وما ستؤول إليه الأمور.

مضافاً إلى أنها ﷺ قد اختارت من الصفات ما يخرج الطاغية يزيد أما العامة، إنها تذكر الجميع وبكل شجاعة بأنها من أهل بيت - وهم الذين قتلهم يزيد وأعوانه وسبى عيالهم - قد شرفهم الله تعالى بأن اختارهم - عن استحقاق - بأن جعلهم أمناء على وحيه وتبليغه للناس وتبينه لهم والدفاع عما جاء به من الشريعة السمحاء والدين القيم الذي أراد له الباري سبحانه أن يكون خاتم الديانات والمهيمن عليها، والكتاب المجيد المعجزة الخالدة، فهم أهله واليهم ينتهي كل علم من علوم الكتاب المجيد.. فجعل منهم النبي الكريم الذي قاتل على تنزيل الكتاب، وجعل منهم الوصي والخليفة المنتخب الذي قاتل على تأويل الكتاب.

إننا نتلمس من كلمات القسم هذه المعنويات العالية التي كانت تمتاز بها السيدة زينب ﷺ حين إلقائها لخطبتها، فهي تفتخر وتعتز بمزاياها الفريدة فتقول : (فو الله الذي شرفنا بالوحي والكتاب)، فالقرآن الكريم نزل على جد السيدة زينب وهو رسول الله سيدنا محمد ﷺ وفي دارها، وكذلك اختار الله هذه الأسرة وانتخبها لتكون فيهم النبوة، وكأنها تعرض بكلامها ليزيد : أنت بماذا تعتز ؟ وبماذا تفتخر ؟! وهل توجد فيك فضيلة واحدة حتى تفتخر بها ؟! ولعل السيدة زينب كانت تقصد أيضاً إسماع الجماهير المتواجدة في ذلك المجلس هذه الحقائق، ومن باب المثل الذي يقول : (إياك أعني واسمعي يا جاره).

(لا تدرك أمدنا، ولا تبُلغ غايتنا، ولا تمحو ذكرنا).

الأمَدُ : الغاية كالمَدَى يقال ما أمدك ؟ أي منتهى عمرك وفي التنزيل العزيز :
{ .. وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
قُلُوبُهُمْ... }^(١) (٢).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام بعد كلمات القسم ذكرت الأمور التي أقسمت من أجلها، من انه مهما اجتهد، ومهما بذل من الجهود، وحاولت من المحاولات، في سبيل تحقيق أهدافه التي قصدها من قتله للإمام الحسين عليه السلام وسبي عياله، فسوف يفشل في ذلك، ولن يصل إلى أي هدف منها.. إنها نفس الأهداف التي اجتهد من أجلها من كان قبله من آبائه وأجداده الطلقاء ففشلوا فيها فشلاً ذريعاً، وكانت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وثمة دلالة أخرى في كلامها عليها السلام توحى بأن حوادث اليوم، وأحداث المستقبل تُعد في نظر السيدة زينب عليها السلام على حدّ سواء، أما بتعليم أهل بيتها المعصومين لها، أو لأن الله تعالى ميّزها عن بقية النساء بأن يوصل إليها العلوم عن طريق الإلهام، ودون تعلّم من البشر، كما أشار إلى ذلك الإمام السجاد عليه السلام حين وصفها بأنها عالمة غير معلمة. ولذلك فإنّ حوادث المستقبل معلومة وواضحة لها كالحوادث المعاصرة.

(١) - الحديد : ١٦.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣ / ٧٤.

(ولا ترخصُ عنك عارنا) .

رحض : رَحَضَهُ يَرَحُضُهُ كَمَنَعَهُ رَحَضاً : غَسَلَهُ كَأَرَحَضَهُ .. ومنه حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذِكْرِ الْخَوَارِجِ " وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ مُرْحَضَةٌ " أَي مَغْسُولَةٌ .. وَأَنشَدَ الصَّاعِقَانِيُّ لِلْمُتَلَمِّسِ :

لَنْ يَرَحُضَ السَّوَّاتِ عَنْ أَحْسَابِكُمْ... نَعَمْ الْخَوَاطِرُ إِذْ تُسَاقُ لِمَعْبَدٍ
وهو مَجَاز. وَمَعْبَدٌ هُوَ أَخُو طَرْفَةِ الْمُقْتُولِ. يَقُولُ : لَنْ يَغْسِلَ عَنْ أَحْسَابِكُمْ
الْعَارَ وَالذَّنْسَ .. فَهُوَ رَحِيضٌ وَمَرْحُوضٌ مَغْسُولٌ^(١).

وتضيف السيدة زينب عليها السلام حقيقة واقعية أخرى، استشرافاً منها عليها السلام للمستقبل وما ستؤول إليه الأمور، وهي أَنَّ العار والخزي وسبب التاريخ، سوف تكون ملازمة ليزيد إلى الأبد، ولن يتمكن هو ومن سيدافع عنه من غسلها.

إنَّ التاريخ يقول : حينما بدأت الأمور تنقلب على يزيد، فقد صارت مجالس تعليم القرآن الكريم في الشام يتحدث فيها المعلم عن جرائم يزيد في قتله الإمام الحسين عليه السلام وسببه نساء آل رسول الله، ثم بدأ الناس يُنقبون ويُنبشون في ملف يزيد، ليروا الفارق الواسع بين سيرته وأعماله، وبين ما سمعوه أو قرأوه عن سيرة الرسول الأعظم ﷺ. ولما حدث كل هذا بدأ يزيد يلقي باللوم على ابن زياد، وصار يلعنه ويقول : إِنَّهُ قَتَلَ الْحُسَيْنَ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِهِ. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل والفضيحة الأكثر ليزيد !.

(وهل رأيك إلا قنَد، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد) .

القنَدُ : الخَرْفُ وإنكار العقل من الهرم أو المرض، وقد يستعمل في غير الكبر، وأصله في الكبر.. والقنَدُ : الخطأ في الرأي والقول، وأقنَدَه : خطأ رأيَه، وفي التنزيل

(١) - تاج العروس، مصدر سابق : مادة (رحض).

العزير حكاية عن يعقوب ﷺ {..لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ} ^(١) ، قال الفراء : يقول لولا أن تكذبوني وتعجزوني وتضعفوني ^(٢).

العدد : العدُّ إحصاء الشيء ^(٣) . و (بدد) : التبديد التفريق يقال شملٌ مُبَدَّدٌ وبَدَّدَ الشيءَ فَبَدَّدَ فرقه ففرَّق وتَبَدَّدَ القوم إذا تفرَّقوا وتَبَدَّدَ الشيءُ تفرَّق وبَدَّ يَبْدُ بدأ فرقه وجاءت الخيل باداً أي متفرقة متبَدِّدة ^(٤).

ولعل المعنى : أن رأيك فيما قمت به من جرائم ضد آل الرسول ﷺ ، وفي تخطيطك ومحاولتك للتخلص من مضاعفات جريمتك هو رأي خاطيء، بل ولا يصدر من عاقل يحترم عقله.. وسيوضح لك ذلك بعد أن تجد أن أيامك في الحكم الذي فعلت ما فعلت من أجل البقاء فيه، بل وأيامك في الحياة الدنيا معدودة، ثم ترد إلى عالم الغيب والشهادة فينبئك ما اقترفناه يداك، وستلاقي جزاءك العدل أنت ومن مكنك من رقاب المسلمين.

وسوف يفرِّق جمعك وجلالوتك، وحاشيتك التي كنت تنادمهم على موائد الخمر والفجور، وسوف يصيبهم نفس المصير الذي سيصيبك، ولربما تغيرت نظرهم بالنسبة إليك بعد أن بينت السيدة زينب ﷺ تلك الحقائق المهمة التي مارس الطاغية يزيد التعتيم عليها، وقد يتغير ولاؤهم له بعد عدم وفائه لهم بما وعدهم به من متاع الدنيا إذا هم انتصروا على الإمام الحسين ﷺ وأهل بيته وقتلوه. أو غير ذلك من الأسباب التي تجعل كل يوم من الأيام يحمل لك حزناً وهماً جديداً، فلا تتهنأ بمن حولك.

(١) - يوسف : ٩٤.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ٣ / ٣٣٨.

(٣) - المصدر نفسه : ٣ / ٢٨١.

(٤) - المصدر نفسه : ٣ / ٧٨.

وثمة دلالة مهمة في كلامها عليها السلام تتمثل في الإشارة الى الآثار الوضعية لتلك الجريمة البشعة، فجريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام أثرت تأثيراً سلبياً في مقدار عمر يزيد في الحكم وفي الحياة هموماً، فجعلته قصيراً جداً. فقد جاء في التاريخ أن يزيد عاش بعد فاجعة كربلاء سنتين وشهرين وأربعة أيام^(١)، فلم يَتَهَنَّأ بطول الحياة وطول مدة السلطة، كما كان يتمنى ذلك، وكما كان يُتَوَقَّعه بعد القضاء على منافسه، حسب زعمه، وهو الإمام الحسين عليه السلام.

(يوم ينادي المنادي ألا لعن الله الظالم العادي).

اللعن : الطرد من الرحمة، و منه قوله تعالى: { .. أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا.. }^(٢)، أي: نطردهم من الرحمة بالمسخ، قوله : { .. لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ.. }^(٣) : أي أبعدهم وطردهم من الرحمة. واللعن : الإبعاد، وكانت العرب إذا تمرد الرجل منهم أبعده منهم وطردوه لئلا تلحقهم جرائمه، فيقال : لعن بني فلان^(٤). والعادي : العدو المتعدي^(٥).

لعل المعنى : إنها عليها السلام تشير - هنا - إلى الفئة التي سيحضر معها ابن ميسون والصفة التي سينادي عليه بها يوم القيامة، بأنه سيكون من فئة الظالمين المتعدين حدود الظلم المألوفة، باعتبار أن ظلمه وقع على من نهى الله تعالى عن ظلمهم وتوعد على ذلك اشد الوعيد، بل وأمر بمودتهم وطاعتهم، ففي ذلك اليوم المخيف سيسمع صوتاً مرعباً لمناد ينادي من عند الله الملك الجبار بهذه الصفة التي ابسط

(١) - تاريخ الطبري، مصدر سابق : ٥ / ٤٩٩.

(٢) - النساء ٤٧.

(٣) - البقرة : ٨٨. و : النساء : ٤٦.

(٤) - مجمع البحرين، مصدر سابق : ٦ / ٢٢٧.

(٥) - يُنظر : المعجم الوسيط، مصدر سابق : ٢ / ٨١.

نتائجها الطرد عن رحمة الله تعالى، وبعد ذلك ماذا ينتظر المرء فيما لو طرد من رحمة الله إلا العذاب المهين !.

(والحمد لله الذي حَكَمَ لأوليائه بالسعادة، وختم لأوصيائه ببلوغ الإرادة).

الحكم : القضاء بالعدل^(١). والوليُّ : هو الناصر^(٢). الوليُّ : التابع المحب^(٣).
و ختمَ : أي طبع، والختمُ : الذي يُختمُ به على كتاب^(٤).
وكما بدأت السيدة زينب عليها السلام خطابها بالحمد والثناء على الله تعالى، وبذات القلب المقعم بالإيمان بالله تعالى، والرضا بما يختاره لعباده المؤمنين فها هي تمهد لختام خطبتها الخالدة بالحمد أيضاً، الذي قضى لأوليائه بقيادة الإمام الحسين عليه السلام الذي هو سيد أولياء الله تعالى وأصحابه الذي قُتلوا معه يوم عاشوراء، ونالوا بذلك شرف الشهادة بالسعادة.

ولم يفتها عليها السلام في ختام خطبتها ان تبين الصفات التي امتازت بها الثلة المؤمنة بقيادة إمامهم الحسين عليه السلام، إنها مقانات لا يبلغها إلا من باع نفسه ابتغاء مرضاة الله ونصرة دينه الحنيف.. إنهم أولياء الله واصفياءه وأحبابه الذين وفقوا لخير عظيم فبلغوا بتوفيق الله ما أرادوا : {.. وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }^(٥)، فهؤلاء الأولياء هم الذين أرادوا أن يكون ختام حياتهم بالشهادة، وسألوا من الله سبحانه ذلك، فاستجاب لهم دعاءهم، وقدر لهم الشهادة في سبيله، ولعل هذا هو المقصود من كلام السيدة زينب عليها السلام : (ببلوغ الإرادة).

(١) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ١ / ٤٧٦.

(٢) - لسان العرب، مصدر سابق : ١٥ / ٤٠٥.

(٣) - تهذيب اللغة، مصدر سابق : ٥ / ٢٠٤.

(٤) - المصدر نفسه : ٢ / ٤٧٤.

(٥) - البقرة : ١٠٥.

إنَّ المؤمن الذي يجعل من نفسه ولياً لله وذلك بطاعته وطاعة رسوله الكريم وأهل بيته الطاهرين سوف يحظى بنتائج إلهية فريدة ومميزة، وألطف خاصة يُفيضها الله عليه، والتي لا تشمل غيره من الناس، ومن أبرز تلك الألفاف الخاصة السعادة الأبدية التي تكون خاتمة جهاد الإنسان في سبيل الله خلال حياته الدنيا ونصرة دينه وأوليائه، فيتوج ذلك المجهود الدنيوي بالسعادة الأبدية الخالدة في جنات النعيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فكان ذلك خير ختام من الله تعالى لأصفيائه، إذ كانت بالشهادة هي مسك الختام {خَتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} ^(١)، فقد كانت حياتهم كلها خير وبركة منذ البداية إلى النهاية، فمن المؤسف حقاً أن يموت الولي على الفراش حتف انفه، بل المؤمل له أن يوفقه الله تعالى للشهادة والقتل في سبيله، لكي تكون لموته أصداء تعود للدين بالفائدة، كما كانت حياته كذلك. فقتلهم يوقظ الغافلين غير الملتزمين بالدين، ويجعلهم يفكرون ويتساءلون عن سبب قتله رغم كونه إنساناً طيباً، فيتعرفون على ماضيه المشرق خلال أيام حياته، وأيضاً نوايا وأهداف من قتل هذا المؤمن المجاهد ! فتكون هذه الأصداء سبباً لعودة الكثيرين إلى الإلتزام الشديد بالدين ومبادئه.. ولعل ذلك هو أهم دواعي التذكير بالقضية الحسينية وفصولها الجهادية.

(نقلهم إلى الرحمة والرأفة، والرضوان والمغفرة).

لعل المعنى : إن في ذلك تصحيحاً لما كان يعتقد أتباع يزيد المغرر بهم من أن الحسين خارجي قد شق عصا المسلمين وان مصيره سيكون إلى النار، فصححت ^(١) ذلك بأن الله تعالى قد نقلهم من عالم الدنيا الدنية إلى عالم تُرْفَرَف على رؤوسهم رحمة الهية خاصة قوامها الرأفة وهي العاطفة المزيجة باللطف والحنان، والرضوان الذي هو اثن عطاء يمكن ان يحصل عليه العبد يوم القيامة، لان هبه

سيحصل على كل شيء دونه، لان الله إذا رضي عن عبد أعطاه ما يريد، والمغفرة التي هي هدف من يشعر بالتقصير تجاه ربه، وكلنا كذلك. وهذه الأمور هي غاية ما يبتغي العبد الوصول إليه من خلال عمله في هذه الدنيا، فالله تعالى قد اختصر الطريق لمن يقتل في سبيله في الوصول إليها، فالجهاد في سبيل الله باب فتحه الله تعالى لخاصة أوليائه.

إنها عليها السلام تريد أن توصل للسامعين - ومنهم الطاغية يزيد - إن من ارتكب هذه الجريمة البشعة لا يمكن أن يجتمع هو والذين قتلهم في مكان واحد يوم الجزاء، وما دامت هذه هي الميزات التي سيحصل عليها الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، فإن من قتلهم سيكون مثواهم النار خالدين فيها وبئس المصير.

وبذلك، فهي عليها السلام تؤكد حقيقة صرح بها القرآن الكريم، وهي أن أعلى وأغلى وألذ نعمة يتنعم بها بعض أهل الجنة، هو شعورهم وإحساسهم بأن الله تعالى راض عنهم، لذا فإنه تعالى قد وعدهم أعلى الدرجات في الجنة، وما ذلك إلا لأنه تعالى راض عنهم، قال تعالى : {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ^(١). وكما ذكرنا، فإن العبد إذا حقق رضا الله تعالى فإنه سيحصل

على جميع النعم الأخروية الأخرى، لأنها كلها دون رضا سبحانه، ولان الله يحقق لهم ما يريدون.. وفي طليعة هؤلاء هم شهداء كربلاء. هذا، سوى ما سيهبه الله لهم مما يغبطهم عليه جميع أهل المحشر الذين لم يصلوا إلى ذلك المقام الرفيع !.

بل إن من يُقتل في سبيل الله بنية خالصة سوف يمرّ نسيم العفو والمغفرة على ما صدر منه من مخالفات، فيصير ملفه أبيض لا سواد فيه قبل يوم الحساب. بل إن

المقتول في سبيل الله سبحانه يختص بمنح فريدة لا يختص بها غيره، وان اختص بها غيره فإنها تكون بدرجة أدنى مما له، كالشفاعة للآخرين مثلاً.

هذا إذا كان المقتول في سبيل الله تعالى من عامة المؤمنين، فكيف إذا كان الإمام المعصوم، سيد شباب أهل الجنة؟! بالتأكيد إن الأمر سيكون مختلفاً بما لا يمكن التعبير عنه، لذا تجد أي الذكر الحكيم قد نزلت تمجد بموقف الحسين عليه السلام وجهاده واستشهاده في سبيل الله سبحانه، كما في قوله تعالى : {.. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّاتِي} ^(١)، فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أن المقصود والمخاطب بهذه الآية هي نفس الإمام الحسين عليه السلام ^(٢).

(ولم يشقّ بهم غيرك، ولا ابتليّ بهم سواك).

الشقاوة خلاف السعادة.. وكما أن السعادة في الأصل ضربان : سعادة أخروية وسعادة دنيوية، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية، وبدنية، وخارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب، وهى : الشقاوة الأخروية والدنيوية، قال : وقال بعضهم، قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا، وكل شقاوة تعب، وليس كل تعب شقاوة، فاتعب أعم من الشقاوة (وشقاء الله وأشقاء) ضد أسعده الله، وهو شقي من قوم أشقياء ^(٣).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام تنسب الفعل إليه ولكن بإسلوب آخر، وهو تأكيدها على أن الذي يستحق العقوبة دون غيره بسبب تلك الجريمة هو يزيد، فهو الحاكم وهو الذي أمر بذلك، ونسبة الفعل إلى الأمر به نسبة صحيحة بلا خلاف، فلو أن

(١) - الفجر : ٢٧ - ٣٠.

(٢) - تفسير البرهان، السيد هاشم البحراني، (تفسير الآية ٢٧ - ٣٠ من سورة الفجر).

(٣) - تاج العروس، مصدر سابق : (فصل الشين).

رئيس الدولة قد أمر بجائزة للطلبة الأوائل في الدولة، ثم قام مدير المدرسة بتنفيذ ذلك الأمر، فإنه يصح القول إن رئيس الدولة قد كرم الطلبة الأوائل، مع أن الذي قام بالتكريم فعلاً وتوزيع الجوائز هو مدير المدرسة. فتكون نسبتها الجريمة ليزيد باللازم، بمعنى أن لازم الشقاء يوم القيامة هو ارتكابه للجريمة فاستحق ذلك الشقاء وكذلك فإن المبتلى بتلك الفاجعة الأليمة والمسئول الأول والرئيسي عنها هو يزيد دون سواء. وبذلك فهي عليها السلام قد قطعت الطريق على ابن ميسون من تنصله عن تلك الجريمة، وفعلاً فقد وقع ذلك منه عندما القى باللوم على ابن مرجانه في قتله للإمام الحسين عليه السلام وسبي عياله، ولكن دون جدوى.

إن القدرة والسلطة واعتلاء كرسي الملك والحكم.. كلها ابتلاءات اذا لم يحسن المبتلى بها التصرف كأن يطغى ويتجبر وينسى قدرة الله عليه، فإن مصيره السقوط في هاوية ذلك الإمتحان والابتلاء سقوطاً ذريعاً !

وفي المقابل، فإن الذين وقعوا ضحية لذلك التجبر والطغيان، دون أن يكون لهم حول ولا قوة، فهم قد نجحوا في الإمتحان نجاحاً باهراً وفوزاً متوالياً متواصلًا، لاسيما إذا ما قام هؤلاء الضحايا بالوقوف بوجه ذلك الطغيان والتجبر في سبيل الله مخلصين له الدين، وهو ما كان عليه الحسين عليه السلام وأهل بيته وعياله وأصحابه.

(ونَسْأَلُهُ أَنْ يُكَمِّلَ لَهُمُ الْأَجْرَ، وَيُجْزِلَ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالذَّخْرَ).

الْكَمَالُ : التَّامُّ (١). وَالْجَزِيلُ الْعَظِيمُ وَأُجْزِلَتْ لَهُ مِنْ الْعَطَاءِ أَيُّ أَكْثَرَتْ وَعَطَاءُ جَزَلٌ وَجَزِيلٌ إِذَا كَانَ كَثِيرًا وَقَدْ أُجْزِلَ لَهُ الْعَطَاءُ إِذَا عَظُمَ وَالْجَمْعُ جَزَالٌ (٢). وَ (الثَّوَابُ) : جَزَاءُ الطَّاعَةِ وَكَذَلِكَ الْمَثُوبَةُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَثُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَعْطَاهُ ثَوَابَهُ وَمَثُوبَتَهُ وَمَثُوبَتَهُ أَيُّ جَزَاءٍ مَا عَمِلَهُ وَأَثَابَهُ اللَّهُ ثَوَابَهُ وَأَثُوبَهُ وَثَوْبَهُ مَثُوبَتَهُ

(١) - لسان العرب، مصدر سابق : ١١ / ٥٩٨.

(٢) - المصدر نفسه : ١١، ١٠٩.

أَعْطَاهُ إِيَّاهَا. وَ (ذَخَرَ الشَّيْءَ) يَذْخُرُهُ ذُخْرًا وَادْخَرَهُ ادْخَارًا اخْتَارَهُ وَقِيلَ اتَّخَذَهُ.. وَذَخَرَ لِنَفْسِهِ حَدِيثًا حَسَنًا أَبْقَاهُ^(١).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام بعد أن ختمت ما أرادت قوله ليزيد وجلالته، أطرت ذلك بسؤالها الله تعالى أن يُكْمِلَ لهم ما بدأهم به من التوفيق العظيم لطاعته والشهادة في سبيله، بأن يتم لهم الجزاء وما اختص به سبحانه الشهداء في سبيله، جزاءً تاماً يليقُ بتقدير الله سبحانه لأوليائه المخلصين المضحين في سبيله، الذين تركوا الدنيا وزبرجها الزائل، وزخرفها الخادع، وعجلوا إلى ربهم ليرضى، فخلفوا وراءهم زوجات أرامل، وأطفال أيتام، وأمّهات ثكلى.. كل ذلك في سبيل الله ! فيكون عطاؤهم من الله تعالى العطاء الكثير الوافر.

هذا، مضافاً إلى ما سيكون لمثل هؤلاء الأولياء من ثناء جميل وذكر حسن في الدنيا على ألسن الناس وفي صفحات التاريخ جيلاً بعد جيل.

وقد جعل الله تعالى لاستجابة ذلك الدعاء أسباباً يمارسها الناس في حياتهم الدنيا ليتحقق ذلك الأمر في الآخرة، فكان الثناء الجميل والذكر الحسن في الدنيا سبباً لإكمال الثواب في الآخرة، وفي ذلك حكمة إلهية بالغة لتحقيق الغرضين (الديني والأخروي) معاً، وإيجاد علاقة وارتباط بينهما لكي يبقى ذكر هذه التضحية العظيمة للإمام الحسين عليه السلام ومن معه في أذهان الناس على مر الدهور والأزمان، وكذلك تبقى تلك الجريمة البشعة للطاغية ابن ميسون وجلالته حاضرة في أذهان المنصفين من الناس ليكون في ذلك ميزاناً بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأنصاره والمدافعين عن دينه والذين جحدوا وأنكروا نبوة النبي وما جاء به من عند الله تعالى ووقفوا بوجه الأولياء والصالحين.

بل إن الحث الكبير قد ورد عن المعصومين عليهم السلام لتأكيد ذلك، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام : (ما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام ولعن قاتله إلا

كتب الله له مائة ألف حسنة، وحط عنه مائة ألف سيئة، ورفع له مائة ألف درجة، وكأنما أعتق مائة ألف نسمة، وحشره الله تعالى يوم القيامة ثلج الفؤاد^(١) ومن ذلك أيضاً ما روي عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد عليهما السلام يقولان : إن الله تعالى عوض الحسين عليه السلام من قتله أن جعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعد أيام زائريه جائئاً وراجعاً من عمره. قال محمد بن مسلم : فقلت لأبي عبد الله عليه السلام : هذه الخلال تنال بالحسين عليه السلام فماله في نفسه ؟ قال : إن الله تعالى ألحقه بالنبى، فكان معه في درجته ومنزلته، ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام : " والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم " الآية^(٢).

وبذلك فقد استجاب الله تعالى دعاء السيدة زينب عليها السلام دنيوياً وأخروياً.

(ونسأله حسنَ الخلافة، وجميلَ الإنابة، إنه رحيم ودود) .

استخلف فلاناً من فلان جعله مكانه وخلف فلان فلاناً إذا كان خليفته يقال خلفه في قومه خلافة وفي التنزيل العزيز وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وخلفته أيضاً إذا جئت بعده ويقال خلفت فلاناً أخلفه تخليفاً واستخلفته أنا جعلته خليفتي واستخلفه جعله خليفة والخليفة الذي يستخلف من قبله والجمع خلائف^(٣). وناب فلان إلى الله تعالى وأُنب إليه إنابة فهو مُنبٍ أقبلَ وتابَ ورجع إلى الطاعة وقيل ناب لزم الطاعة وأُنب تابَ ورجع وفي حديث الدعاء وإليك أنبت الإنابة الرجوع إلى الله بالتوبة وفي التنزيل العزيز مُبين إليه أي راجعين إلى ما أمر به غير

(١) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ١٠٣ / ٢٥٢.

(٢) - بحار الأنوار، مصدر سابق : ٤٤ / ٢٢١.

(٣) - لسان العرب، مصدر سابق : ٩ / ٨٢.

خارجين عن شيءٍ من أمره وقوله عز وجل وأنبيؤا إلى ربكم وأسلموا له أي توبوا إليه وارجعوا^(١). و (الود): الحبُّ يكون في جميع مداخل الخير^(٢).

ولعل المعنى : إنها عليها السلام تسأل الله تعالى فيما يتعلق بمن بقي بعد استشهاد الثلة المؤمنة المتمثلة بالإمام الحسين عليه السلام والمضحين معه، ومنهم هي والإمام السجاد عليه السلام، بأن يجعل ممن يخلف من فقدوه في سبيله أناساً صالحين مضحين مجاهدين يكملون الطريق ، ويسدّون الفراغ الذي تركه مقتل أولئك الصفوة الطيبة من رجال آل رسول الله ﷺ فيكونوا خير خلف لخير سلف، منيين إلى الله تعالى في جميع أحوالهم وشؤونهم وان تطلب ذلك التضحية بالنفس والنفيس، كما كان عليه سلفهم شهداء الطف.. ولا يكون ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ورحمته ووده !!.

(١) - المصدر نفسه : ١ / ٧٧٤.

(٢) - المصدر نفسه : ٣ / ٤٥٣.

ما بعد الخطبة

والآن.. توجّهت أنظار الحاضرين إلى يزيد الحاقِد ليرَوا منه ردود الفعل.. فما كان منه سوى أن علّق على هذه الخطبة المفصّلة بقوله :

يا صحبةُ تُحمدُ من صوائِح ما أهون الموت على النوائِح^(١)

سبحان الله !! ما علاقة هذا بذاك ؟!!؟. فليست هناك أية مناسبة بين ذلك الخطاب الثوري الذي أبرزت فيه عقيلة الوحي واقع يزيد وجردته من جميع القيم والمبادئ الإنسانية، وبين هذا البيت من الشعر الذي يحكي أن الصيحة تحمد من الصوائِح، وأن النوح يهون على النائحات، فأَي ربط موضوعي بين الأمرين ؟!!؟. فهل إنعقد لسانه عن إجابة كلّ بند من بنود تلك الخطبة ؟! أم أن أعصابه أُصيّبت بالانهيار والاهتزاز، فلم يستطع التركيز والرد ؟! أم أنه أراد أن يفهم السامعين بأن ذلك الكلام هو نوع من الانفعال الطبيعي لما تعانیه من السيدة زينب من مصيبة ! متجاهلاً كل المفاهيم والحقائق الدامغة التي تضمنها كلامها عليها السلام، أم أنه رأى أن الإجابة والتعليق يُسبّب له مزيداً من الفضيحة أمام تلك الجماهير الغفيرة الحاشدة في المجلس، فصار (أذكي) من ابن مرجانة ورأى السكوت خيراً له من خلق أجواء الحوار مع ابنة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام التي أظهرت جدارتها الفائقة على مقارعة أكبر طاغوت، بكلام كلّ صدق، واستدلال منطقي وعقلي مُقنع. وخاصة أن الجُمْل الأخيرة، التي كانت تحمل في طياتها التهديد المرعب، جعلت يزيد ينهار رغم ما كان يشعر به من تجرّب وكبرياء.

(١) - وفي نسخة : (ما أهون النوح على النوائِح)، ولعلّه (لعنه الله) يقصد من قراءته لهذا الشعر : أنها امرأة مفجوعة.. دَعها تتكلّم بما تريد، فإن ذلك لا يهمني. (منقول عن السيد محمد كاظم القزويني).

آفاق ودلالات خطاب السيدة زينب في مجلس الطاغية يزيد (لعنه الله)

إن خطاب السيدة زينب عليها السلام في مجلس يزيد يعتبر وثيقة فكرية سياسية تسلط الأضواء على خلفيات المعركة بين أهل البيت عليهم السلام والأمويين الحاقدين على الدين وأهله، كما أنها تناقش بعض التفاصيل والقضايا الهامة في تلك المعركة، وتقدم استشرافاً وتصوراً مستقبلياً لآثار المعركة ونتائجها.

ولا أريد تكرار ما ذكرناه خلال الشرح، إلا إنني أحببت هنا التركيز على بعض المفاهيم والحقائق التي أشارت إليها السيدة زينب عليها السلام خلال خطابها، التي تبرز أهم آفاق هذا الخطاب الرائع العظيم، منها :

أولاً / المعركة من منظار القيم والمبادئ.

إن الأمويين، وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام ويحكمون باسمه، إلا أنهم يتعاملون مع الأحداث في هذه الحياة حسب المعادلات المادية، وينظرون للأمور ضمن دائرة المصالح الدنيوية العاجلة بعيداً عن القيم والمبادئ. وقد خططوا إلى أن ينظر أبناء الأمة أن إلى واقعة كربلاء بنفس منظارهم المادي الجاهلي، إذ أن يزيد (لعنه الله) قد صرح بأنه قد قام بأخذ ثارات بدر ومعارك الإسلام الأولى ضد أسلافه المشركين، فالمسألة في نظر الأمويين لا تعدو أن تكون أخذاً لثأر، ودفاعاً عن عرش السلطة وكرسي الحكم، وهو أمر متوقع من العقلية المصلحية. ومن هذا المنطلق يرى الأمويون أن القوة التي بأيديهم، والانتصارات التي أحرزوها، تكفي دليلاً على أحقيتهم وشرعيتهم كواقع يفرض نفسه، وهي نظرة بائسة وناقصة يحاولون من خلالها تبرير جرائمهم.

وفي مواجهة هذا المنطق الأموي المادي الانتهازي، كانت السيدة زينب في خطابها تؤكد على الرجوع إلى القيم والمبادئ الدينية والاحتكام إليها في تقويم

الواقع وتفسير أحداثه، ولا يكون ذلك إلا بالنظر للأمور من خلال ما يجري على ضوء كتاب الله، والنظر إلى المعركة من خلال الرؤية الدينية التي يريد الأمويون تغييبها وإغائها من واقع حياة المسلمين.

لذلك تذكر عليه السلام يزيد بن ميسون بأن لا ينظر إلى نفسه من خلال ما يملك من قوة وسلطة : (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء). فليس في ذلك دلالة على الأحقية والمشروعية والرضا الإلهي - كما فهم يزيد ذلك، أو حاول تسويقه إلى المجتمع المسلم -، فقد يفسح الله المجال واسعاً أمام الكافرين لتتضاعف قوتهم وإمكاناتهم دون أن يعني ذلك أحقيتهم أو رضا الله عنهم، بل يكون ذلك سبباً لزيادة انخطاطهم وعذابهم عند الله من خلال الإهمال والاستدراج.

إن الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام ومن كان معه في كربلاء ليسوا مجرد ضحية للموت، بل هم وفق مقياس المبادئ الإلهية شهداء، والشهداء خالدون وأحياء عند ربهم يرزقون، لأن الشهادة من أفراد القتل في سبيل الله. فما حدث لهم لم يحدث في سياق صراع دنيوي مصلحي، وإنما حل بهم ذلك لأنهم يحملون رسالة الله ويدافعون عن دينه، وحسب المبادئ والقيم فهناك عدالة إلهية، وستكون النتائج الحاسمة هي التي ستنبأ عن الحكم الفصل الذي سيشهدده الكل في عرصات القيامة. وهذا ما عبرت عنه السيدة زينب عليها السلام، إذ أن الصراع بين أهل البيت والأمويين في نظرها عليها السلام ليس صراعاً قليلاً على الزعامة، بل هو مظهر وامتداد للصراع الأبدي الدائم بين الخير والشر، بين حزب الله النجباء وحزب الشيطان الطلقاء.

ثانياً/ إدانة وشجب جرائم الحزب الأموي.

أدانة السيدة زينب عليها السلام واستنكرت ما ارتكبه الحزب الأموي الذي يتزعم قوى الاستكبار حيثئذٍ بسبب ما ارتكبه من جرائم بحق أهل البيت عليهم السلام، ففي مجلس يزيد وبحضور أتباعه ومؤيديه، واجهته السيدة زينب عليها السلام وأوضحت مظلومية أهل البيت وعمق مأساتهم بقتل رجالاتهم وسبي ذرائعهم، وبتلك الأساليب البشعة، وترك جثثهم على رمضاء الهجير دون مواراة. كما وبخته بشدة على أقواله التي تنضح كفراً وتشكيكاً في الدين، كما عنفته على ما فعله برأس أخيها الحسين.

لقد بالغت السيدة زينب عليها السلام في توبيخ الطاغية يزيد (لعنه الله) بشكل قلما يكون له نظير، بحيث حطمت غروره. يقول المرحوم الأستاذ توفيق الفكيكي بهذا الشأن : (وكان الوثوب على أنياب الأفاعي، وركوب أطراف الرماح، أهون على يزيد من سماع هذا الإحتجاج الصارخ)^(١).

ثالثاً/ الأصول العائلية الفاسدة للطاغية يزيد.

إن تصرفات يزيد وسياساته المنحرفة الفاسدة لم تأت من فراغ، وإنما هي امتداد واستمرار لسلوكيات أسلافه المشركين والطلقاء والمنافقين، وقد ربطت السيدة زينب هذه السلوكيات المنحرفة ليزيد بمنهج أسلافه القذر ضد الإسلام والمسلمين، بل ضد الإنسانية عموماً، فذكرته بجدته لأبيه معاوية (هند) زوج أبي سفيان، فهي التي قادت حملة التآليب والتحريض على قتال رسول الله ﷺ والمسلمين في بداية الدعوة الإسلامية، وهي التي أغرت أحد العبيد المرتزقة بقتل عم النبي الحمزة بن عبد المطلب، وهي التي مثلت بجسمه وانتزعت كبده وحاولت مضغها بأسنانها، إظهاراً لحقد البشع، وبغضها لرسول الله ومن يرتبط به بنسب أو عقيدة، فيزيد في اعتدائه على أهل البيت - من وجهة نظر السيدة زينب عليها السلام - لم يأت بشيء

(١) - ينظر : حياة الإمام الحسين، مصدر سابق : ٣ / ٣٧٨. وكذلك : مقتل الحسين، المقم : ٣٥٧ -

جديد يثير الاستغراب من مثله، لذا أشارت عليها السلام إلى ذلك الميراث الخسيس بقولها : (وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكىاء). وعلى ضوء ذلك توعدته السيدة زينب عليها السلام بأن مصيره هو نفس مصير أسلافه الطلقاء في نار جهنم، وأنه لاحق بهم: (وتهتف بأشياخك، زعمت أنك تناديهم، فلتردن وشيكاً موردهم).

رابعاً/ تشبيه جريمة يزيد بجرائم اليهود والنصارى.

كما فعلت عليها السلام في خطابها مع أهل الكوفة، عندما شبهت جريمتهم تلك بجرائم الأقوام الكافرة، كأقوام عاد وثمود.. فقد شبهت جرائم يزيد بجرائم اليهود والنصارى، ويتضح ذلك من خلال الآيات القرآنية التي استشهدت بها لبيان ذلك، وبهذا فقد قرنتها بها من حيث الجريمة والعقاب.

خامساً/ الإشادة بأهل البيت وبيان منزلتهم.

إن الكلام بمثل ما تكلمت به السيدة زينب عليها السلام الذي أنطوى على بيان الحقائق، والإشادة بفضائل أهل البيت عليهم السلام وسط مجتمع درج على بغضهم عليهم السلام، وفي أجواء قد تم إعدادها ضد أبناء الرسول وعلي وفاطمة عليهم السلام، وفي مجلس تمت تهيئته خصيصاً ليكون مجلس شماتة بمقتل الحسين.. يمثل مرحلة مهمة من مراحل انتصار الحق على الباطل، إذ لا يمكن أن يتصور من عاش تلك الأجواء أن ينبري شخص، مهما كان، للتصدي لطاغية من نوع يزيد، فضلاً عن أن يكلمه بالأسلوب الذي كلمته به السيدة زينب. فقد خاطبته عليها السلام معلنة للأمة أن هذه الدولة والكيان الإسلامي إنما تم تشيده بجهاد بني هاشم، وتضحيات آل الرسول بالدرجة الأولى، لأنهم هم المحامي الأول عن حياض الدين وهم أهله الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا خلفاء رسوله الكريم، وذلك قولها عليها السلام : (وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا)، فأهل البيت هم القادة الحقيقيون لهذه الأمة وهم الأولى بالخلافة والحكم.

سادساً/ التذكير بفضل أهل البيت على أجداد يزيد.

أشارت عليها السلام إلى حقيقة أخرى شهدها الماضي القريب تتعلق بموقف أجدادها وآبائها من أهل البيت مع أجداد يزيد وآبائه الطلقاء، وبهذا فقد عقدت عليها السلام مقارنة سريعة بين أهل الفضل من أهلها وبين الذين تنكر لهذا الفضل وفعل فعلته الدنيئة بحق ذرية من كان لهم الفضل عليه وعلى آبائه. إن لأهل البيت فضل عظيم على يزيد، فأبوه وجده وأسرته هم طلقاء أطلقهم رسول الله ﷺ عند فتح مكة، لذا خاطبته السيدة زينب عليها السلام بقولها : (أمن العدل يا ابن الطلقاء). وكأنها تخبر عن حقيقة أخرى وهي أن هذه هي أخلاقيات الطلقاء وهذه هي شيمهم، غدر وخيانة ونكران للمعروف..

سابعاً/ الاعتزاز بشهداء الطف.

للشهداء منزلة عند ربهم يغبطهم عليها الأولون والآخرون، ويكفي بياناً لتلك المنزلة قول الرسول ﷺ للإمام الحسين : (... وإن لك في الجنة درجات لا تنالها إلا بالشهادة)^(١)، فبالرغم من أن للحسين عليه السلام منزلة عظيمة في الجنة، إلا أن هناك درجات لا تكون إلا للشهداء ولن ينالها إلا الشهيد. ولا يخفى أن من ابرز شهداء الإسلام الذين حافظوا عليه من تلاعب المتلاعبين هم شهداء الطف. لذا، واعتزازاً بهم وإشادة بمواقفهم وصفاتهم السيدة زينب بأنهم (ذرية محمد ونجوم الأرض).

ثامناً/ استشراف المستقبل.

لقد قطعت السيدة زينب عليها السلام على يزيد زهوه بانتصاره الموهوم على أهل البيت عليهم السلام، عندما ظن أنه كسب المعركة لصالحه، فراحت وسائل إعلامه تكرر وتجتز هذا الوهم على مسامع الناس، لكنها عليها السلام نسفت تلك الأوهام، وسفّتهت أحلامه، وأخبرته الحقيقة التي نزلت عليه كالصاعقة أمام مجلسه الحاشد

بأنه قد تلتطخ بأحوال الهزيمة، وسقط في حضيض الهوان، وإن تظاهر بالنصر وتراءى له الظفر.

أنه نوع من التحدي لم يألفه يزيد بطغيانه وتجبره وعنفوانه، ذلك عندما تحدته السيدة زينب عليها السلام في أن يتمكن من تحقيق هدفه بطمس خط أهل البيت ومهجمهم ومكاثتهم في قلوب المؤمنين، مهما جند من قوة واستخدم من قدرات، وذلك عندما صكت أسماعه وأسماع جلاوزته بقولها : (فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تمت وحيناً)، فخط أهل البيت باقٍ، وسوف تبقى البشرية متطلعة للحق والعدل الذي يمثله ذلك الخط والمنهج الشريف، وسوف يظهر الله دينه على الدين كله مهما حاولت ماكنة الإعلام الأموي طمس نور الحقيقة : {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} ^(١).

تاسعاً/ السخرية من مظاهر القوة التي أحاط يزيد بها نفسه وحكمه.

مضافاً إلى إخبار السيدة زينب عليها السلام بما سيحل بعدة يزيد وعدده، فإنها عليها السلام قد أظهرت بكل شجاعة واقتدار سخريتها واحتقارها لمظاهر القوة التي أحاط بها يزيد نفسه، ذلك حين خاطبته : (وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد). وذلك رهان شجاع منها عليها السلام على النصر لا يكون إلا بمن هو واثق بالظفر والفوز، ناظراً إلى أبعد من حدود هذه الدنيا الفانية، والمتطلع إلى الآخرة حيث عدالة الله، والنهايات الحقيقية، حيث تكون العاقبة للمتقين، والنار والحزى للظالمين.

عاشراً/ العزة الإيمانية.

لقد أراد الله تعالى للمؤمنين العزة، بل وقرنها بالعزة له سبحانه ولرسوله ﷺ : {.. وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} ^(١)، فزرع في قلوب الطواغيت والظلمة المهابة لهم. فتلك المرأة السبية الأسيرة التي سيقّت إلى مجلس الظالم الطاغوي مكتوفة الأيدي.. ثمّ لم تقتنع منه بكل ما قالته له، حتى أرادت أن تمثّل له وللحاضرين عنده ذلّة الباطل، وعزّة الحق وعدم الإكتراث واللامبالاة بالقوة والسلطة والهيبة والرهبة.. فوقفت أمام كل ذلك الطغيان والتجبر وتلك الغطرسة لتصفه بكل إيمان ورسوخ عقيدة بابن الطلقاء، وتنذره : (ولتودّن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت)، وداعية عليه : (اللهم خذلنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا)، ثم تتحداه بأن وبال جريمته سيقع عليه، قائلة : (فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حزرت إلا لحمك)، وتكرر ذلك التحدي هاتفة : (فكد كيدك واسع سعيك..).

حادي عشر/ الاحتقار الصريح للطاغية.

تعجز الألفاظ عن بيان ذلك الموقف الشجاع، والحالة البطولية التي ظهرت على السيدة زينب عليها السلام في ذلك الموقف الرهيب، وليس غريباً منها ذلك، فهب ابنة محمد وعلي وفاطمة عليها السلام وأخت الحسن والحسين، إنها سليلة ذلك المجد المؤثل الذي أشرق على دنيا الوجود، فصار منهلاً لكل الأحرار في العالم.. لقد أبدت تلك البطلة وبكل صراحة ووضوح احتقارها ليزيد، وأنها أكبر وأسمى من أن تكلمه أو تخاطبه، بل انه لا يستحق حتى كلمات الإهانة والتعنيف، لأنه ليس من حظيرة الإنسانية.. إلا أن متطلبات الدفاع عن الدين والعقيدة فرضت عليها ذلك،

لقد قالتها الحرة الأبيّة صراحة : (ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لاستصغر قدرك، واستعظم تقريعتك، وأستكثر توبييخك).

ثاني عشر/ بيان فضل الله تعالى على أسرتها الطاهرة.

واعترازاً من السيدة زينب بفضل أسرتها وأمجادها العظيمة التي كانت سبباً في تنال ذلك الفضل العظيم من الله سبحانه، فقد ختمت خطبتها عليها السلام ببيان ذلك الفضل حامدة الله جل وعلا على ذلك الفضل وهذه الرحمة، قائلة : (.. والحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة).

في المدينة المنورة

واستمرت عليها السلام ببث الفكر الحسيني الصحيح حتى بعد فاجعة عاشوراء وبعد فاجعة السبي حينما إعادتها يد القدر إلى المدينة مرة أخرى ليس معها إلا الأرامل والأيتام، بعد أن خرجت منها يحوطها العز من كل جانب، لكن ذلك لم ولن ينسها جسامه المسؤولية الملقاة على عاتقها، فالنجاح التام بانتظار دورها في المدينة أيضاً، ونتيجة لذلك الدور الذي مارسه السيدة زينب بعد عودتها إلى حرم جدها، كتب والي المدينة المنورة إلى يزيد ما يلي :

إن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر، وإنها فصيحة عاقلة لبيئة، وقد عزمت هي ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين، فكتب إليه : فرق بينها وبين أهلها^(١).

وهذا يلفت انتباهنا إلى أن الأسلوب الذي استخدمته السيدة زينب عليها السلام لنشر الدعوة بعد عودتها إلى المدينة اختلف عن الأساليب التي استخدمتها في كربلاء والكوفة والشام، وهذا أمر طبيعي لاختلاف الظرف الموضوعي والأشخاص المخاطبين، فكان ابرز أساليبها في المدينة هو أسلوب النياحة وإلقاء المحاضرات، وإقامة مجالس العزاء، وكانت هذه المجالس التي لا زالت مستمرة في العالم الإسلامي حتى اليوم، بمثابة مؤسسة إعلامية تتميز بالتعبئة العاطفية، والتوعية الدينية إلى جانب التزكية والتربية.

ولكن ! ينبغي الالتفات إلى أن نياحة السيدة زينب وبكاءها لم يكن نتيجة حالة انفعالية مجردة، ولم يكن ندماً على ما حدث، ولا جزعاً من المصائب، ولا مجرد حالة عاطفية ساذجة، ذلك لأنها كانت تلهب حماس أهل المدينة بدمعتها كما

(١) - تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن علي عليهما السلام، السيد صالح بن ابراهيم بن صالح الشهرستاني، تحقيق وإعداد : الشيخ نبيل رضا علوان : ٩١.

ألهمت حماس أهل الكوفة من قبل بخطابها الصاعق، إذ كان أهل الكوفة التي صعقها هول الفاجعة تستمع إليها وتتفاعل معها.. بل كان ذا هدف رسالي، وكان بكاء تحد وإيقاظ. وهكذا كانت سائر أفعالها التي تنوعت في أساليبها.

لقد كانت جميع الأساليب التي استخدمتها السيدة زينب عليها السلام في نصرة المشروع الحسيني الكبير واعية ومدركة للهدف النبيل لها.

إن زينب الصبورة التي كانت قد شاهدت كل تلك المأساة لم تكن لتجزع من ممارسات الأعداء ضدها وضد سبايا أهل البيت عليهم السلام لأنها تمارس دوراً جهادياً قد يتطلب البكاء في سبيل نجاحه، وذلك من أجل أن تثير أعماق المشاعر الإنسانية في الناس، وهو هدف مشروع وسلاح فتاك إذا ما توفر ظرفه الموضوعي، وكأنها ترسل برسالة إلى كل من يسمع كلامها ويرى منظرها تقول لهم فيها: إن المأساة عظيمة، وعظيمة إلى درجة أنها تستحق البكاء والحزن والجزع من أجلها، وأنها ستفعل كل ما من شأنه فضح المتآمرين على الدين ما دام ذلك في عين الله تعالى، وأنها مازالت مستعدة للتضحية من أجل دين السماء.

(٣١٢) امرأة تختصر النساء

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

مصادر التفسير وعلوم القرآن

- ١/ الأمل في تفسير كتاب الله المنزل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
- ٢/ تفسير القرآن ، محمد بن صالح العثيمين
- ٣/ تفسير الكشاف ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري
- ٤/ الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي
- ٥/ البيان في تفسير القرآن ، السيد أبو القاسم الخوئي
- ٦/ التفسير المنسوب للإمام العسكري (ع)
- ٧/ مجمع البيان ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، المجمع العالمي لأهل البيت (ع)
- ٨/ التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي
- ٩/ تفسير حقي (روح البيان في تفسير القرآن) ، إسماعيل حقي البروسوي
- ١٠/ فتح القدير في روائع التفسير ، رياض بن محمد المسميري
- ١١/ تفسير الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي
- ١٢/ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله
- ١٣/ تفسير القشيري ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري
- ١٤/ تفسير القمي ، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي
- ١٥/ الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ، أحمد أبو إسحاق الثعلبي
- ١٦/ تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ، أبو جعفر الطبري ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط ١
- ١٧/ تفسير مجاهد ، مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج ، المنشورات العلمية - بيروت ، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي
- ١٨/ الدر المنثور في التاويل بالمأثور ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي
- ١٩/ تفسير البرهان ، السيد هاشم البحراني

مصادر القواميس والمعاجم اللغوية

- ٢٠/ كتاب العين ، أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، دار ومكتبة الهلال ، تحقيق : د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي
- ٢١/ الصحاح في اللغة ، الجوهري
- ٢٢/ معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، المحقق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، الطبعة : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
- ٢٣/ تهذيب اللغة ، الأزهري
- ٢٤/ لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار صادر ، بيروت ، ط ١
- ٢٥/ القاموس ، الفيروز آبادي
- ٢٦/ تهذيب اللغة ، الأزهري
- ٢٧/ مجمع البحرين ، فجر الدين الطريحي .
- ٢٨/ المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، وآخرون ، تحقيق : مجمع اللغة العربية
- ٢٩/ معجم الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري
- ٣٠/ المغرب في ترتيب المعرب ، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز
- ٣١/ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقب بمرتضى ، الزبيدي
- ٣٢/ الموسوعة العربية العالمية ، علم البديع
- ٣٣/ المحيط في اللغة ، صاحب بن عباد
- ٣٤/ المخصص ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف (ابن سيده)
- ٣٥/ المزهر ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي
- ٣٦/ أساس البلاغة ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري
- ٣٧/ جمهرة اللغة ، ابن دريد
- ٣٨/ مغني اللبيب ، ابن هشام
- ٣٩/ العباب الزاخر ، الصاغاني
- ٤٠/ كتاب الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي ، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري ، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

المصادر الحديثية

- ٤١/ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، الشيخ محمد باقر المجلسي ، مؤسسة الوفاء ، بيروت . لبنان ، ط ٢ ، ١٤٠٣ - ١٩٨٣
- ٤٢/ مستدرک سفينة البحار ، الشيخ علي النمازي
- ٤٣/ مسند الإمام الرضا (ع) ، الشيخ عزيز الله عطاردي ، الناشر : المؤتمر العالمي للإمام الرضا (ع) ، مؤسسة طبع ونشر آستان قدس الرضوي ، ربيع الآخر ١٤٠٦ هـ
- ٤٤/ ميزان الحكمة ، محمدي الريشهري
- ٤٥/ غرر الحكم ودرر الكلم ، عبد الواحد بن محمد تميمي آمدي
- ٤٦/ غريب الحديث ، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ، ١٣٩٦ تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ١
- ٤٧/ الفصول المهمة في أصول الأئمة ، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ، تحقيق : محمد بن محمد الحسين القائيني ، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا (ع) ، ط ١
- ٤٨/ موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ ، محمد الري شهري وآخرون ، التحقيق : مركز بحوث دار الحديث ، الناشر : دار الحديث للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٤٢٥ هـ
- ٤٩/ العمدة ، أبو الحسين يحيى بن الحسن
- ٥٠/ صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
- ٥١/ مسند أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني
- ٥٢/ سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك ، الترمذي .

مصادر التربية والاخلاق

- ٥٣/ مجموعة ورام ، ورام بن أبي فراس ، مكتبة الفقيه ، قم

المصادر التاريخية

- ٥٤/ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط ١
- ٥٥/ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير
- ٥٦/ فجر الإسلام ، أحمد أمين

- ٥٧/ سيرة الأئمة الإثني عشر ، هاشم معروف الحسيني
٥٨/ تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي
٥٩/ تاريخ الكوفة ، السيد حسين البراق
٦٠/ البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، مكتبة المعارف - بيروت
٦١/ مقاتل الطالبين ، أبو الفرج الاصفهاني
٦٢/ مقتل الحسين للمقرم
٦٣/ حياة الإمام الحسين ، باقر شريف القرشي
٦٤/ فاجعة الطف ، السيد محمد كاظم القزويني
٦٥/ تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن علي (ع) ، السيد صالح بن ابراهيم بن صالح الشهرستاني ، تحقيق وإعداد : الشيخ نبيل رضا علوان
٦٦/ تاريخ بغداد ، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي

مصادر المتون والشروحات

- ٦٧/ نهج البلاغة المنسوب للإمام علي (ع)
٦٨/ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المعتزلي
٦٩/ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي
٧٠/ المعجم الكبير ، للطبراني ، طبع بغداد

مصادر البحوث والدراسات

- ٧١/ دراسات وبحوث مؤتمر الإمام الحسين (ع) ، المجمع العالمي لأهل البيت (ع) ، القسم الثالث .

مصادر اللغات الأخرى

- ٧٢/ تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان

المصادر العامة

- ٧٣/ موسوعة عاشوراء ، الشيخ جواد محدثي ، ترجمة خليل زامل العصامي
٧٤/ الحسين في طريق الشهادة ، علي بن الحسين الهاشمي
٧٥/ الخصائص الزينية ، السيد نور الدين الجزائري
٧٦/ بطلة كربلاء ، عائشة بنت الشاطيء
٧٧/ عوالم الإمام الحسين (ع) ، الشيخ عبد الله البحراني

- ٧٨/ الصديقة زينب ، السيد محمد تقي المدرسي
- ٧٩/ زينب الكبرى ، جعفر النقدي
- ٨٠/ السيدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام ، الشيخ باقر شريف القرشي
- ٨١/ من وحي الثورة الحسينية ، هاشم معروف الحسني ، دارُ القلم ، بيروت . لبنان
- ٨٢/ المرأة العظيمة ، الشيخ حسن الصقّار .
- ٨٣/ كلمات الإمام الحسين (ع) ، الشيخ الشريف ، دار المعروف للطباعة والنشر
- ٨٤/ تساؤلات حول النهضة الحسينية ، محمد صنقور
- ٨٥/ الحسين في مواجهة الضلال الأموي ، السيد سامي البديري
- ٨٦/ الشعائر الحسينية ، محاضرات الشيخ أحمد الماحوزي ، إعداد وتدوين : بشار الداود راضي حبيب ، دار أهل الذكر
- ٨٧/ مثير الأحران ، ابن نما الحلبي
- ٨٨/ مثالب العرب ، هشام بن الكلبي
- ٨٩/ إلزام النواصب ، الشيخ مفلح بن الحسين البحراني
- ٩٠/ معالي السبطين
- ٩١/ الملهوف على قتلى الطفوف ، ابن طاووس

(٣١٨) امرأة تختصر النساء

المحتويات

٩	مقدمة
١٥	تمهيد
١٨	تكلّموا تُعرفوا
٢٠	بلاغتها (ع)
٢١	علمها (ع) ومعرفتها بالله تعالى
٢٢	حكمتها (ع)
٢٥	بين الأم وابنتها
٢٩	شاء الله أن يراهن سبابا
٣١	هل كانت زينب (ع) مختارة في حضورها كربلاء أم مضطرة ؟
٣٥	الحكمة من حمل النساء والأطفال مع الإمام (ع)
٥٠	كيف يُفشل الإمام الحسين مخططهم الإعلامي المضاد بعد استشهاده ؟
٥١	من هو الشخص المناسب ؟
٥٣	هل كان إيجاد مواقف تثير العاطفة في كربلاء مقصوداً للإمام الحسين (ع) ؟
٥٥	في الطريق إلى العراق
٥٧	بين الماضي والحاضر
٥٨	قربان آل محمد (ص)
٦٢	ليلة الحادي عشر
٦٣	الصبر الفريد
٦٧	هل ارتكبت السيدة زينب (ع) معصية بلطم وجهها ؟
٧١	ظاهرة سبي النساء والأطفال
٧٥	مرتكزات الثورة
٧٦	عندما تكون الكلمات جنود الثورة
٧٨	ما الذي جعل كلمات السيدة زينب تنجح هذا النجاح الباهر في نصره الثورة ؟
٨١	مدخل إلى شرح خطبة السيدة زينب (ع) في الكوفة

- ٨٥ فلم أرَ خفرةً - والله - أنطق منها
- ٨٧ كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
- ٩٢ وقد أشارت إلى الناس بأن أنصتوا ، فارتدت الأنفاس ، وسكنت الأجراس
- ٩٣ الولاية التكوينية
- هل كانت (الولاية التكوينية) صادرة عن السيدة زينب (ع) ، أم عن الإمام السجاد (ع) ؟
- ٩٥
- ٩٦ نص خطبة السيدة زينب (ع) في أهل الكوفة
- ٩٨ الحمد لله
- ١٠٢ وَالصَّلَاةُ عَلَىٰ جَدِّي مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ . وفي رواية (على أبي)
- ١٠٧ بماذا تختلف شخصية الرسول (ص) وآله الطاهرين (ع) عن الآخرين ؟
- ١٠٩ أَمَّا بَعْدُ : يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ
- ١١٠ خصائص أهل الكوفة
- ١١١ تأثير زينب (ع) والسبايا في أهل الكوفة
- ١١٢ لماذا الكوفة ؟
- ١١٣ هل كان أهل الكوفة الوحيدون الذين كتبوا إلى الإمام الحسين (ع) ؟
- لماذا لم يستجب الأئمة الآخرون (ع) للذين كاتبوهم كما استجاب الإمام الحسين (ع) ؟
- ١١٤
- ١١٦ هل كانت كتب أهل الكوفة جزء من المخطط الأموي لقتل الإمام الحسين (ع)
- ١١٩ هل يعني ذلك إن الإمام الحسين (ع) لم يكن يعلم بتلك المكيدة ؟
- ١٢٠ هل أن الشيعة هم من قتل الحسين (ع) وسبوا عياله ؟!!
- ١٣١ يَا أَهْلَ الْخُتَلِ وَالْغَدَرِ وَالْحَدَلِ
- ١٣٣ أتبكون ؟!
- ١٣٤ ألا فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الزفرة . وفي رواية : ولا هدأت الرنة
- ١٣٦ إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً
- ١٣٨ ما المقصود بالعهد الذي نقضه أهل الكوفة ؟
- ١٣٨ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم

- ١٣٩ ألا وهل فيكم إلا الصلف النطف ، والصدر الشنف
- ١٤٠ وملق الإماء
- ١٤٠ وغمز الأعداء
- ١٤١ أو كمرعى على دمنة
- ١٤٢ أو كفضة على ملحودة
- ١٤٣ ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون
- ١٤٤ أتبيكون وتتنحبون؟! أجل والله ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً
- ١٤٥ فلقد ذهبتم ﴿بليتم﴾ بعارها ومنيتهم بشارها
- ١٤٦ ولن ترخصوها بغسل بعدها أبداً
- ١٤٧ هل يمكن أن نحتمل أن توبة (التوابين) قد قبلت ؟
- ١٥٠ وأنى ترخصون قتل سليل خاتم النبوة ؟
- ١٥١ ومعدن الرسالة
- ١٥٢ وسيد شباب أهل الجنة
- ١٥٣ وملاذ خيرتكم ﴿حربكم﴾
- ١٥٣ ومعاذ حزبكم
- ١٥٤ ومقر سلمكم وآسي كلمكم
- ١٥٥ ومفرغ نازللكم
- ١٥٥ والمرجع إليه عند مقاتلكم
- ١٥٦ ومدره حججكم
- ١٥٦ ومنار محجتكم
- ١٥٨ ومدره سنتكم
- ١٥٩ ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم وساء ما تزرون ليوم بعثكم
- ١٦٠ فتعساً تعساً ، ونكساً نكساً
- ١٦٠ وبعداً لكم وسحقاً
- ١٦٢ لقد خاب السعي ، وتبت الأيدي
- ١٦٣ وخسرت الصفقة

- وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ١٦٥
- ويلكم يا أهل الكوفة ! أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم ؟ ١٦٦
- وأي عهد نكتنم ؟ ١٦٨
- وأي كريمة له أبرزتم ؟ ١٦٨
- وأي حرمة له هتكنم ؟ ١٧١
- وأي دم له سفكنم ؟ ١٧٢
- لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً ١٧٣
- لقد جئتم بها شوهاً ١٧٤
- صلعاء ١٧٥
- عنقاء ١٧٥
- فقماء ١٧٦
- خرقاء ١٧٦
- طلاع الأرض ، وملء السماء ١٧٧
- أفعبجتم أن مطرت السماء دماً ؟ وفي رواية ﴿ أفعبجتم أن لم تمطر السماء دماً ؟ ﴾ ١٧٨
- كيف كان بكاء السماء ؟ ١٨٤
- ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ١٨٧
- فلا يستخفنكم المهمل ١٩١
- فإنه عز وجل من لا يحفزه البدار ١٩٣
- ولا يخشى عليه فوت الثار ١٩٤
- كلا ، إن ربك لبالمرصاد ١٩٥
- في مواجهة ابن مرجانة ١٩٧
- الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ١٩٩
- ما رأيت إلا جميلاً ٢٠٣
- لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبدت أهلي ، وقطعت فرعي ٢٠٧

- ٢٠٩ الآثار المباشرة لخطاب السيدة زينب (ع) في أهل الكوفة
- ٢١٠ آفاق ودلالات خطاب السيدة زينب (ع) في أهل الكوفة
- ٢١٥ مدخل لشرح خطبة السيدة زينب (ع) في مجلس الطاغية يزيد (لعنه الله)
- ٢١٨ نص خطبة السيدة زينب (ع) في مجلس يزيد (لعنه الله)
- ٢٢٠ الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جدي سيد المرسلين
- ٢٢٠ صدق الله سبحانه ، كذلك يقول {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُوا السَّوْءَ
- ٢٢٢ أظننت - يا يزيد - حين أخذت علينا أقطار الأرض وضيقنا آفاق السماء
- ٢٢٤ وأن ذلك لعظمُ خطرِك ، وجلالة قدرِك
- ٢٢٤ فشمت بأنفك
- ٢٢٥ ونظرت في عطفك
- ٢٢٥ تضرب أصدريك فرحاً
- ٢٢٦ وتنفض مذرويك مرحاً
- ٢٢٦ حين رأيت الدنيا لك مستوسقة
- ٢٢٧ والأمور لديك متسقة
- ٢٢٧ وحين صفى لك ملكنا ، وخلص لك سلطاننا
- ٢٢٨ فمهلاً مهلاً
- ٢٢٨ لا تطش جهلاً
- ٢٢٩ أنسيت قول الله (عز وجل) : {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ
- ٢٢٩ أَمِنَ الْعَدْلُ يَا بَنِي الطَّلَقَاءِ
- ٢٣٢ تخديرك حرائرك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا
- ٢٣٤ قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن
- ٢٣٤ تحذو بهن الأعداء من بلد إلى بلد
- ٢٣٥ ويستشرفهن أهل المناقل ، ويتبرزن لأهل المناهل
- ٢٣٦ ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والشريف والوضيع ، والدنيء والرفيع
- ٢٣٧ ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حماتهن حمي
- ٢٣٧ عتواً منك على الله

- ٢٣٨ وجحوداً لرسول الله
- ٢٣٨ ودفعاً لما جاء به من عند الله
- ٢٣٩ ولا غرو منك ، ولا عجب من فعلك
- وأنى ترتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الشهداء ، ونبت لحمه بدماء السعداء ؟
- ٢٣٩.....
- ٢٤١ ونصب الحرب لسيد الأنبياء
- ٢٤١ وجمع الأحزاب
- ٢٤٢..... وشهر الحراب ، وهز السيوف في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٤٢ أشد العرب لله جحوداً ، وأنكرهم له رسولاً ، وأظهرهم له عدواناً
- ٢٤٤ ألا إنها نتيجة خلال الكفر
- ٢٤٥ وضب يجرجر في الصدر لقتلى يوم بدر
- ٢٤٦ فلا يستبطئ في بغضنا - أهل البيت - من كان نظره إلينا شنفاً وإحناً وضغناً
- ٢٤٧ يظهر كفره برسوله ، ويفصح ذلك بلسانه
- ٢٤٨ وهو يقول ، فرحاً بقتل ولده ، وسبي ذريته ، غير متحوب ولا مستعظم
- ٢٤٩ منحنياً على ثنايا أبي عبد الله
- ٢٥١ قد التمتع السرور بوجهه
- ٢٥٢ لعمرى لقد نكأت القرحة
- ٢٥٣ واستأصلت الشأفة
- ٢٥٤ بإراقتك دم سيد شباب أهل الجنة ، وابن يعسوب الدين ، وشمس آل عبد المطلب
- ٢٥٥ وهتفت بأشياخك
- ٢٥٦ وتقربت بدمه إلى الكفرة من أسلافك
- ٢٥٦ ثم صرخت بندائك
- ٢٥٦ ولعمرى لقد ناديتهم لو شهدوك
- ٢٥٧ ووشيكاً تشهدهم ولن يشهدوك
- ٢٥٩ ولتودّ يمينك - كما زعمت - شلت بك عن مرقعها وجذت
- ٢٦٠ وأحببت أن أملك لم تملك ، وإياك لم تلد حين تصير إلى سخط الله

- اللهم ! خذْ بِحَقِّنَا ، وانتقم من ظالمنا ، واحلِّ غضبك على من سفك دماءنا ٢٦١
- وما فریت إلا جلدك ، وما جَزَرْتَ إلا لحمك ٢٦٢
- وسترد على رسول الله بما تحملت من دم ذريته ، وانتهكت من حرمة ٢٦٣
- حيث يُجمع به شملهم ، ويُلمّ به شعْثهم ، وينتقم من ظالمهم ٢٦٤
- فلا يستفزّك الفرح بقتلهم ٢٦٥
- وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ٢٦٥
- وحسبك بالله ولياً وحاكماً ، وبرسول الله خصماً ، وبجبرائيل ظهيراً ٢٦٦
- وسيعلم من بوأك ومكنك من رقاب المسلمين أن بئس للظالمين بدلاً ٢٦٨
- وما استصغاري قدرك ، ولا استعظامي تقريعك ٢٧٠
- تَوْهَمًا لانتجاع الخطاب فيك ٢٧١
- بعد أن تركت عيون المسلمين به عبرى ٢٧٢
- وصدورهم عند ذكره حرى ٢٧٢
- فذلك قلوب قاسية ، ونفوس طاغية ، وأجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول ٢٧٣
- ومن هناك مثلك ما درج ٢٧٤
- فالعجب كل العجب لقتل الأتقياء ٢٧٥
- تَنَطَّفَ أَكْفَهُمْ مِنْ دَمَانَا ٢٧٩
- وتتخلّب أفواههم من لحومنا ٢٧٩
- تلك الجثث الزاكية ، على الجبوب الضاحية ٢٨٠
- تنتابها العواسل ٢٨١
- وتُعرِّها أمّهات الفراعل ٢٨٢
- فلئن اتخذتنا مغنماً ، لتجد بنا وشيكاً مغرماً ٢٨٤
- فإلى الله المشتكى والمُعول ، وإليه الملجأ والمؤمل ٢٨٦
- ثم كد كيدك ، واجهد جهدك ٢٨٦
- فوالله الذي شرفنا بالوحي والكتاب ، والنبوة والانتخاب ٢٨٨
- لا تدرك أمدنا ، ولا تبُلغ غايتنا ، ولا تمحو ذكرنا ٢٨٩
- ولا ترحضُ عنك عارنا ٢٩٠

- وهل رأيك إلا فند ، وأيامك إلا عدد ، وجمعك إلا بدد ٢٩٠
- يوم ينادي المنادي ألا لعن الله الظالم العادي ٢٩٢
- والحمد لله الذي حكّم لأوليائه بالسعادة ، وختم لأوصيائه ببلوغ الإرادة ٢٩٣
- نقلهم إلى الرحمة والرفقة ، والرضوان والمغفرة ٢٩٤
- ولم يشقّ بهم غيرك ، ولا ابتليّ بهم سواك ٢٩٦
- ونسأله أن يكملّ لهم الأجر ، ويجزلّ لهم الثواب والذخر ٢٩٨
- ونسأله حسن الخلافة ، وجميل الإنابة ، إنه رحيم ودود ٢٩٩
- ما بعد الخطبة ٣٠١
- آفاق ودلالات خطاب السيدة زينب في مجلس الطاغية يزيد (لعنه الله) ٣٠٢
- في المدينة المنورة ٣١٠
- مصادر الكتاب ٣١٣
- محتويات الكتاب ٣١٩